# رؤية نفسية
# للأمثال الشعبية

فهرسة أثناء النشر / إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، إدارة الشئون الفنية

بركات، محمد غالب
رؤية نفسية للأمثال الشعبية
نيوبوك للنشر والتوزيع
17 × 24 سم
تدمك: 9789779960227
رقم الإيداع: 20331/2019
1 ـ الأمثال العامية العربية
2 ـ العنوان

**دار النشـــر:** نيوبوك للنشر والتوزيع
**عنوان الكتاب:** رؤية نفسية للأمثال الشعبية
**الـكـاتـب:** محمد غالب بركات
**رقم الطبعة:** الأولى
**تاريخ الطبع:** 2020

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر

ويحظر طبع، أو تصوير، أو ترجمة، أو إعادة تنضيد للكتاب كاملًا أو جزئيًا، أو تسجيله على أشرطة كاسيت، أو إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على أسطوانات ضوئية، إلا بموافقة الناشر الخطية الموثقة

نيوبوك للنشر والتوزيع
**6 عمارات الدفاع الوطنى ـ حدائق القبة ـ القاهرة**
**تليفون:** 01092673274
newbooknb@gmail.com

# رؤية نفسية للأمثال الشعبية


**د. محمد غالب بركات**

دكتوراه الصحة النفسية والإرشاد النفسي


تقديم

**أ. د. محمد رفعت عبد العزيز**

أستاذ التاريخ بجامعة عين شمس


NEW BOOK

نيو بوك للنشر و التوزيع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]

صدق الله العظيم

# الإهداء

إلى أبي في ذكرى وفاته الأولى
صدع في الفؤاد لا يلتئم

# المحتويات


**تقديم** ..... ١٣

**مقدمـة** ..... ١٥

**الفصل الأول: مدخل إلى الدراسة** ..... ٢١

مفاهيم الأمثال ..... ٢٣

سمات الأمثال ..... ٢٥

أهمية الأمثال ..... ٢٧

الفرق بين المثل الشعبي والعامي ..... ٢٨

بيئة الأمثال ..... ٢٩

الأمثال في الكتب المقدسة ..... ٣٢

**الفصل الثاني: علم النفس الإيجابي** ..... ٤١

علم النفس الإيجابي ..... ٤٣

السعادة ..... ٤٦

التفاؤل والتشاؤم ..... ٤٩

التسامح والتعصب ..... ٥٣

الشجاعة والجُبن ..... ٥٦

التعاون ..... ٥٨
العدل والظلم ..... ٦٠
الحياء والخجل ..... ٦٦
**الفصل الثالث: العبودية المختارة** ..... ٧١
العبودية المختارة ..... ٧٣
**الفصل الرابع: علم النفس النمائي** ..... ٨٣
مراحل النمو ..... ٨٥
الوراثة والبيئة ..... ٩٢
الذكاء والغباء ..... ١٠٢
**الفصل الخامس: سيكولوجية المال** ..... ١٠٥
سيكولوجية المال ..... ١٠٧
**الفصل السادس: سيكولوجية العمل والحب** ..... ١١٣
سيكولوجية العمل والحب ..... ١١٥
**الفصل السابع: الثواب والعقاب** ..... ١٢١
الثواب والعقاب ..... ١٢٣
**الفصل الثامن: مشكلات نفسية** ..... ١٢٧
الخـواف ..... ١٢٩
هُـذاء البارانويا ..... ١٣٢
الكـذب ..... ١٣٨
الاغتـراب ..... ١٤٢

الغضب ١٤٤
الاكتئاب ١٤٨
السرقة ١٥١
الفشل ١٥٤
الأنانية ١٥٦
الحسد ١٥٨
**الفصل التاسع: الحيل الدفاعية** ١٦٣
الكبت ١٦٧
التبرير ١٦٨
الإسقاط ١٧١
النسيان ١٧٣
التكوين العكسي ١٧٤
التعطيل ١٧٥
الإنكار ١٧٥
الإزاحة ١٧٦
التعميم ١٧٦
التوحد (التقمص) ١٧٧
التعويض ١٧٧
النكوص ١٧٩
التفكيك (العزل) ١٨٠

التقديس ..... ١٨١
الانسحاب ..... ١٨٢
أحلام اليقظة ..... ١٨٣
العدوان ..... ١٨٤
الصبر ..... ١٨٦
الاستسلام ..... ١٨٨
**الفصل العاشر: الإعاقات** ..... ١٩١
الإعاقات ..... ١٩٣
**المراجع** ..... ١٩٧
**المؤلف في سطور** ..... ٢٠٥

# تقديم

**للأستاذ الدكتور محمد رفعت عبد العزيز**

إن العناية باللغة القومية والحرص على نشرها مظهر من مظاهر الانتماء للوطن وجزء من الهوية الذاتية والقومية. ولغة الأمثال جزء من اللغة السائدة في المجتمع، ومع ذلك فهي لغة ذات خصوصية تميز المثل عن سائر مظاهر الكلام؛ لأنه يُعد نصًا مستقلًا بذاته، وهو تعبير ثابت يتسم بالإيجاز وبساطة التركيب وسهولة اللغة وجمال جرسها وقوة الدلالة، ويستخدم استخدامًا مجازيًا ويعتمد كثيرًا على التشبيه.

والمثل يعني أن القريحة التي صاغت المثل قد نحتت بالمفردات تمثالًا باقيًا لمعنى أصيل مملوء بالتجربة الحياتية، مُحكم إلى حد الإيجاز المعجز. وتعد الأمثال عنصرًا من عناصر التراث الشعبي مصاغة في شكل أدبي يعمل كقوة مؤثرة في عمليات التنشئة الاجتماعية. ويكاد لا يخلو موقف في حياتنا العامة إلا ونجد له مثلًا مضروبًا عليه، فالأمثال مرآة للحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية.

ويعتبر المثل مصدر مهم للمشتغلين في مجال علم النفس والصحة النفسية؛ لأن المجتمعات تتكون من أفرادها، والأمثال تشكل حالة خاصة من نفسية المجتمع عن طريقها تتشكل سيكولوجية الجماهير، فالأمثال مرجعية تمكن الباحث من معرفة الاتجاهات الاجتماعية التي يرمي إليها الأديب وهو يعبر عن الصور المتعددة للقضايا المختلفة التي حركت الشعور الجمعي نحو إنتاج أدبي بلغة العامة.

والدراسة الحالية التي قام بها المؤلف من الدراسات التحليلية التي يعتمد أصحابها على مادة جاهزة حول موضوع معين توفرها مصادر متنوعة، وإذا كانت الدراسات السابقة التي اهتمت بالأمثال قد تم ترتيبها تارة حسب الترتيب الأبجدي، وتارة أخرى

ترتيب موضوعي، فإن هذا الكتاب الذي بين أيدينا قد رتب الموضوعات النفسية ثم جمع لكل موضوع ما يتناسب معه من الأمثال شارحًا ومفسرًا وناقدًا ومُسقطًا على الواقع في كثير من الأحوال.

فالصحة النفسية لكل الناس غاية، وهم جميعًا يجتهدون لمحاولة سبر غور هذا الجانب أو ذاك من جوانب شخصية الإنسان وصحته النفسية كلٌ بطريقته ووفق منحاه، وأحسب أن هذا المنحى رائع في مجال الصحة النفسية.

تحية تقدير للدكتور محمد غالب على هذا المجهود الطيب وأتمنى أن يتابع نشاطه مازجًا بين الصحة النفسية والعلوم الأخرى.

**أ .د . محمد رفعت عبد العزيز**
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة عين شمس

# مقدمة

الأمثال Proverbs أقوال لها مكانة أدبية رفيعة لدى كل الشعوب والأمم باعتبار أنها تمثل حكمتها وخلاصة تجاربها. فالأمثال حكمة الشعب مضغوطة في جمل قصيرة، وكأنها حبوب الدواء، وتبدو شعبيتها واضحة من اتصالها بالحياة اليومية. والأمة العربية أمة تحتفي بالأمثال قديمًا وحديثًا. وإذا كان الشعر هو ديوان العرب، فالأمثال تأتي بعده في الأهمية، يدل على هذا أن العلماء الذين دوَّنوا الأدب الجاهلي في العصور الإسلامية جعلوا من بين اهتماماتهم جمع الأمثال وتدوينها، وممن اهتم بذلك: عُبَيْد بن شَرِيَّة (ت ٦٧هـ، ٦٨٦م) في العصر الأُموي، والميَداني (ت ٥١٨هـ، ١١٢٤م) الذي أَلَّف أشهر كتاب في هذا الموضوع، وهو كتابه المسمى مَجْمع الأمثال، وهو كتاب ضخم لأحمد بن محمد بن أحمد الميداني، جمع فيه ستة آلاف مثل ونيف، وقد سماه مجمع الأمثال لاحتوائه على هذا العدد الضخم من الأمثال، وقد رتبها على حروف المعجم في ثمانية وعشرين بابًا، معقبًا كل باب بما جاء من الأمثال على صيغة أفعل من ذلك الباب، وقد شرح الأمثال وفسر غريبها، وذكر مناسبتها وقصة المثل في معظم الأحوال، كما اعتمد في جمعه على كل من سبقه وألفّ في الأمثال، كما أشار في مقدمة كتابه إلى صعوبة التأليف في هذا الموضوع، وعدّ من مصادره أكثر من خمسين كتابًا.

ومن هنا تأتي أهمية هذا الكتاب؛ ففضلًا عن كونه جامعًا فهو مبوب ومشروح، وقد أثنى عليه كثيرون، قال عنه ابن خلكان[1]: إنه لم يُعمل مثله في بابه. ويقال أن

(١) أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خَلِّكان البرمكي الإربلي (٦٠٨هـ/ ١٢١١-٦٨١هـ/ ١٢٨٢م). مؤرخ حجة، وأديب ماهر، ولد في إربل بالقرب من الموصل على شاطئ دجلة الشرقي، وانتقل إلى

الزمخشري ـ بعد ما ألف «المستقصى في الأمثال» ـ اطَّلع على «مجمع الأمثال» للميداني، فأطال نظره فيه، وأعجبه جدًا، ويقال: إنه ندم على تأليفه «المستقصي» لكونه دون مجمع الأمثال في حُسن التأليف والوَضْع وبَسْط العبارة وكثرة الفوائد. فقد ظن أنه حَشَد فيه وجَمَع ما لم يتهيأ لغيره من أدباء العربية وعلمائها وباهى بأن سماه «المستقصي» ثم تبين له أنه أقل فائدة وأهْوَنُ جمعًا مما صنفه الميداني.

وكذلك كتاب: الفاخر لابن عاصم الكوفي[١]، والمستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي[٢]. وأيضًا كتاب زهر الأكم في الأمثال والحكم للحسن اليوسي، في القرن الهجري الحادي عشر، وقد جاء كتابه على ستة وستين بابًا مقسمة قسمين، في القسم الأول الأمثال وما يلتحق بها، في مقدمة وخاتمة وأربعة وثلاثين بابًا، تسعة وعشرون بابًا في الأمثال مرتبة على حروف المعجم، والأبواب الخمسة التالية في الأمثال التركيبية، والأعيان، والأمثال القرآنية، والحديثية، والتشبيهات الشعرية. ويحتوي القسم الثاني على الحكم وما يلتحق بها في اثنين وثلاثين بابًا، تسعة وعشرون في

---

مصر فأقام فيها مدة، وتولى نيابة قضائها. سافر إلى دمشق وأقام فيها حتى وفاته. ونبغ في الأحكام والفقه وأصول الدين وعلومه، صاحب «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» وهو أشهر كتب التراجم، ومن أحسنها ضبطًا وإحكامًا.

(١) أبو طالب، المُفَضّل بن سَلَمة بن عاصم الضبّي البغدادي، من علماء اللغة والنحو والأدب، كوفي المذهب، بيته بيتُ علم؛ فأبوه سَلَمة كان راوية للفرّاء مختصًّا به متعصبًا للكوفيين (ت بعد ٢٧٠هـ)، وابنه أبو الطيب بن المفضّل فقيهٌ شافعي، توفي وهو شابّ سنة ٣٠٨هـ. أما مصنفاته المطبوعة فهي «الفاخر» في الأمثال، ساق فيه المفضل طائفة من أمثال العرب، و «كتاب الملاهي وأسمائها» وهو رسالة تحدث فيها عن «العود» وعن بعض الآلات الموسيقية التي كانت تعرفها العرب قديمًا منذ الجاهلية، ولعله أول كتاب بابه. وقد اختلفت المصادر في تحديد سنة وفاته، وليس فيها ما يُطْمأنُّ إليه على وجه اليقين، فقد ذكر المرزباني أنه توفي (٢٥٠هـ) ولاشك أنه سهو، وذكر ابن قاضي شهبة في طبقاته أنه توفي سنة (٣٠٠هـ)، وفي «كشف الظنون» أن وفاته سنة (٢٩٠هـ)، ولعله الأقرب. (أنظر ترجمته في: وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس. دار صادر: بيروت).

(٢) الأبشيهي أو الإبشيهي: نسبة إلى قرية أبشُويه من قرى محافظة الغربية بمصر، وقد لقب به طائفة من الأدباء والعلماء. وبهاء الدين، أبو الفتح، محمد بن أحمد منصور الأبشيهي المحلّي الشافعي (٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م-٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م) كاتب وشاعر، ولد في أبشُويه، وحفظ القرآن وهو صغير، ثم درس النحو والفقه. وولي الخطابة في بلدته بعد وفاة أبيه فكان خطيبًا مسموع الكلمة مهيب المحضر، ووصف بالورع والتقوى.

الحكم المرتبة على حروف المعجم، وفي الأبواب الثلاثة الأخيرة طائفة من الحكم المجموعة، والنوادر، والأوليات (الحسن اليوسي، ١٩٨١، ٩).

ثم ظهرت جهود نعوم شقير الشامي (١٨٣٦-١٩٢٢م) في كتابه: «أمثال العوام في مصر والسودان والشام»، ويوسف هانكي الشامي في كتابه: «الأمثال العامية المصرية»، وفائقة حسين راغب «حدائق الأمثال العامية» عام ١٩٣٩م، وأحمد تيمور باشا «الأمثال العامية» عام ١٩٤٩م.

ولا يفوتنا في هذا المقام كتاب الحكيم بتاح حتب الذي كتبه في عصر الملك اسيسي أحد ملوك الأسرة الخامسة، وهو يتضمن مجموعة كبيرة من الحكم والأمثال والنصائح التي كتبها الحكيم لابنه، وهي تكفي لإعطائنا صورة واضحة عن حكمة مصر وآدابها ومثلها العليا في ذلك العصر القديم (محرم كمال، ١٩٩٨، ١٦).

والمَثَل مفرد الأمثال، يدل في اللغة على معنى المِثْل والنَّظير. أما في الاصطلاح الأدبي، فهو: قول موجز سائر صائب المعنى تُشبه به حالة لاحقة بحالة سابقة. وهو بهذا المعنى جنس أدبي قائم بذاته، كالشعر والخطابة والقصة. فالمثل الشعبي جزء لا يتجزأ من التراث الشعبي الذي يتداوله ويحفظه أفراد المجتمع جيلًا بعد جيل عن طريق الرواية الشفوية، ليأتي المثل الشعبي بذلك في مقدمة أشكال التعبير الأدبي، فهو أقدر أنواع الأدب الشعبي على تصوير الحياة الاجتماعية وما يدور فيها من علاقات وتعاملات وأحداث.

وللمثل مضرب ومورد، فضرب المثل يعني إطلاقه أو استخدامه في الحالات اليومية المتجددة التي تشبه الحالة الأولى. ويشبه مورد المثل الحالة الأصلية التي قيل فيها ابتداءً. وليس من الضروري أن يكون لكل مثل مورد أو قصة كما يعتقد بعض الناس، فهناك أمثال كثيرة لا ترتبط بحادثة معينة، مثل تلك الأمثال المأخوذة من أبيات الشعر صدرًا أو عجُزًا، أو التي أصلها حِكم، أو التي على وزن أَفْعَلُ مِنْ.. كقولهم: أجود من حاتم.

كما أن المثل يؤدي وظيفة يومية، ويُعبر عن علاقات اجتماعية ونفسية، ومن ثم فقد أصبح طبيعيًا أن يظهر بين مفرداته ما يُعبر عن تلك الوظيفة والتي تحمل في

طياتها اتجاهات تصنيفها أو على الأقل تؤدي إلى تكوين موضوعات، فمن خلال الأمثال يمكن الكشف عن طبيعة الشعب وذكائه؛ لأنها تمثل فلسفة الجماهير وديوان حياتهم، كما أنها نتاج خبرات وثقافات متراكمة لأجيال متعاقبة اصطدم فيها الموقف بالموروث العقائدي.

إن الذاكرة الشعبية لمختلف الأمم والدول والجماعات البشرية تختزن العديد من المظاهر الثقافية والنفسية والاجتماعية التي تجعل الكائن البشري داخل نسق ما يسمى بالوعي الجمعي، أو الثقافة الشعبية التي تختزنها ذاكرة الإنسان المنتمي لبيئة حضارية معينة، هذا الوعي الجمعي تساهم فيه الكثير من العوامل النفسية والثقافية بتشكيل نسق نمطي يسعى الإنسان داخل بيئة معينة أن ينساب وراءه طوعًا أو كرهًا، نظرًا للإحكام الخطير والمحاط بسياجات معرفية مختلفة تبدأ بالقمع، وتنتهي بالتأطير القسري للعقل الإنساني شاء أم أبى.

ولعل خير ما يمثل هذا الوعي الجمعي والذاكرة الشعبية ما تعرفه جميع الثقافات والحضارات على حد سواء من اختزال الرؤية النمطية تجاه موضوعات الحياة المختلفة عبر ما يسمى بالمثل الشعبي، والذي اعتبر الخزان الثقافي الكبير المعبر عن درجة وعي المجتمع وتخلفه ونظرته لمختلف أجزاء هذه الحياة ومناحيها، وشكَّل على مرِّ العصور ـ ولا زال ـ أحد الروافد الخطيرة في تكريس بعض المظاهر الاجتماعية والفكرية المساهمة في قضية النمطية الفكرية.

فالمثل يُمثل حكمة الشعب وتاريخه، وهو الصورة الصادقة لحياة الشعوب والأمم، فيه خلاصة الخبرات العميقة التي تمرست بها عبر أمد بعيد من حضارتها، وهو الخلاصة المركزة لمعاناتها وشقائها وسعادتها وغضبها ورضاها، نجد في طيّات الأمثال مختلف التعبيرات التي تمثل حياة مجتمعها وتصورات أفرادها بأساليب متنوعة. وقد قيل: إن ضرب المثل لم يأت إلا رد فعل عميق لما في النفس من مشاعر وأحاسيس؛ نتيجة للمؤثرات الشعورية التي اختفت في العقل الباطن، فجاء سلوكه تعبيرا عن عمق المؤثرات التي دعت إلى ضرب المثل.

ويُعد المثل مصدرًا خصبًا لمن يريد أن يفهم الشخصية القومية ومذهبها الفطري

في التفكير وفي الحياة بصفة عامة، وبالتالي فرصدُ الخصائص الدلالية للأمثال إنما هو رصد لخصائص الشعب الذي ذاع فيه المثل وانتشر، وعمومًا فالأمثال كما يقول توريانو (١٦٦٦م) تمثل فلسفة الجماهير.

والبحث في الأمثال إنما هو بحث في حياة فئات العامة من الناس على اختلاف نشاطهم وسلوكهم في تعاملهم وأخلاقهم وعاداتهم، وكيف تولدت هذه العلاقات ومداها، ودورها في تكوين أخلاقيات الناس، ومن خلال الجزئيات الصغيرة التي تعرضها الأمثال، نجدها تناقش هذه الموضوعات وتفسرها وتعطي صورة حية لطبيعتها (ابراهيم شعلان، ٢٠٠٨، ١٣).

ولغة المثل على الرغم من أنها جزء من اللغة السائدة في المجتمع فهي لغة ذات خصوصية تميزه عن سائر مظاهر الكلام؛ لأنه يعد نصا مستقلا بذاته، وهو تعبير ثابت يتسم بالإيجاز وبساطة التركيب وسهولة اللغة وجمال جرسها وقوة الدلالة، ويستخدم استخدامًا مجازيًا ويعتمد كثيرًا على التشبيه.

وقد أكدت بعض الدراسات على أنه توجد معتقدات عامة تجمع الشعوب من كل مكان في العالم، وخاصة عن طريق الأمثال والأقوال والاقتباسات، فالأمثال تمدنا برؤية في طبيعة منطق المجتمع الموجه نحو الحاجات والمشكلات الاجتماعية، كأنها تجسد على نحو جماعي المبادئ التي ترشد إلى التفكير العلمي(هناء احمد، ٢٠٠١).

فالأمثال الشعبية يمكن أن تساعد في تبسيط وتعديل وتصحيح وجهات النظر المتعلقة بالمشكلات الاجتماعية، كما يمكن أن تساعد القراءة الدقيقة للأمثال الفرد على تنمية معرفته الذاتية عن طريق إمداده برؤية لمجموعة ثقافية تمثل سلوكًا إنسانيًا إيجابيًا، فمن خلال هذه الأمثال يتعرف الفرد على عادات واتجاهات وقضايا وقيم وفكاهة أجداده، وبنظرة شاملة تقدم الأمثال معلومات إضافية مفيدة تظهر بوضوح في تحليل القضايا الاجتماعية.

وما كان للأمثال أن تتوقف مع تجدد التجارب وتعدد الأحداث وهو أدب شعبي لا شك فيه، إذ هو سجل لحياة الناس كلهم، وتكشف الخبايا النفسية لكل شعب.

وإذا كان الأدب يسبق الطب، فالطب النفسي كان لعهد قريب مسؤولية الحكماء والفلاسفة ورجال الدين، وقد وجد عبر التاريخ بعض الموهوبين الذين استطاعوا أن ينفذوا إلى نفسية بعض الشخصيات بدراسة تحليلية مقننة، وعمومًا استفاد علم النفس والطب النفسي من الأدب استفادة كاملة، وأقرب الأمثلة على ذلك أن كل ما يقال عن العقد النفسية مشتق من الأساطير اليونانية مثل: إلكترا[١] وأوديب[٢] والسادية[٣] والماسوشية[٤]، ولا شك أن المسرح الإغريقي ومسرحيات شكسبير ناقشت الإضطرابات النفسية مثل الغيرة والإكتئاب والانتحار وحب المحرمات (أحمد عكاشة، ب.ت، ١٠٥-١٠٧).

(١) ترجع عقدة الكترا إلى نظرية التحليل النفسي، والتي تشير إلى أن النمو النفسي الجنسي للأنثى يتصف بالتعلق بأبيها، وتشير الظاهرة إلى انجذاب البنت لأبيها في الطفولة وشعورها بالعدائية تجاه أمها، حيث تنظر إليها على أنها منافستها في حب أبيها.

(٢) عقدة أوديب مفهوم أنشاءه فرويد واستوحاه من أسطورة أوديب الإغريقية، وهي عقدة نفسية تطلق على الذكر الذي يحب والدته ويتعلق بها ويغير عليها من والده.

(٣) «السادية» Sadism مذهب في علم النفس اشتق اسمه من الماركيز دي ساد (١٧٤٠-١٨١٤) وهو كاتب وأديب فرنسي. وهي اشتقاق للذة عن طريق تعذيب الآخرين، سواء بالضرب والإيذاء البدني، أو توجيه عدوان معنوي يتمثل في عدم مراعاة مشاعر وكرامة الآخرين، وبذلك يُصبح الأذى في ذاته مصدر متعة ولذة، وقد يكون ذلك بطريقة شعورية أو لا شعورية.

(٤) ينسب المصطلح إلى الكاتب الروائي النمساوي ليبولد زاخر مازوح (١٨٣٦-١٨٩٥) وهي عبارة عن تقبل الألم على الذات والاستمتاع به، بل يتلذذ المرء بما يقع عليه من اضطهاد.

# الفصل الأول

# مدخل إلى الدراسة

## مفاهيم الأمثال

الأمثال لغة جمع مثل، والمثل هو الشيء الذي يُضرب لشيء مثلًا، فيجعل مثله، والأصل فيه التشبيه. فالمثل والمثيل: كالمثل والجمع أمثال، وهما يتماثلان، والمثل: الحديث نفسه، وجاء في التفسير أن قول لا إله إلا الله وتأويله أن الله أمر بالتوحيد، ونفي كل إله سواه وهي الأمثال، قال ابن سيده: وقد مثل به وامتثله وتمثل به وتمثله[١].

يقول الزمخشرى: «والمَثل في أصل كلامهم بمعنى المِثل والنظير[٢] ويبين الراغب الأصفهاني أن المثل يُقال على وجهين: أحدهما بمعنى المِثل، نحو شَبَه وشِبه، ونَقَض ونِقض، قال بعضهم: وقد يعبَّر بهما عن وصف الشيء، نحو قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ (سورة محمد، ١٥)، والثاني عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني، أيّ معنى كان، وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة. وذلك أن النِّدَّ يُقال فيما شاركه في الجوهرية، والشَّكل يُقال فيما شاركه في المساحة، والشبه يُقال فيما يشاركه في الكيفية فقط، والمُساوي يُقال فيما يشاركه في الكميّة فقط. والمِثل عام في جميع ذلك. ولهذا إنما أراد الله تعالى نفي التشبيه من كل وجه خصه بالذكر فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

ويقول المرزوقي: «المثل جملة من القول مقتضبة من أصلها، أو مرسلة بذاتها،

---

(١) أنظر: لسان العرب لابن منظور، مادة: مثل.

(٢) أنظر: مقدمة المستقصي للزمخشري.

فتتسم بالقبول وتشتهر بالتداول، فتنقل عما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها، وعما يوجبه الظاهر إلى أشباهه من المعاني، فلذلك تضرب، وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها» (السيوطي).

ويقول الحسن اليوسي في كتابه «زهر الأكم في الأمثال والحكم»: المثل هو قول يرد أولًا لسبب خاص ثم يتعداه إلى أشباهه، فيستعمل فيها شائعًا على وجه تشبيهها بالمورد الأول. ويرى حامد طاهر في كتابه «الفلسفة المصرية من الأمثال الشعبية»: أن المثل عبارة عن قول مأثور يتضمن نصيحة شعبية، أو حقيقة عامة، أو ملاحظة تجريبية، أو موقفًا ساخرًا من عادة اجتماعية أو أسلوب سياسي معين.

ويذكر أحمد أمين أن «الأمثال نوع من أنواع الأدب، يمتاز بإيجاز اللفظ وحسن المعنى ولطف التشبيه وجودة الكناية، ولا تكاد تخلو منها أمة من الأمم، وأن أمثال كل أمة مصدر مهم للمؤرخ الأخلاقي والاجتماعي، يستطيع كل منهما أن يعرف كثيرًا من أخلاق الأمة وعاداتها وتقاليدها وعقليتها ونظرتها للحياة؛ لأن الأمثال عادة وليدة البيئة التي نشأت عنها» (أحمد أمين، ٢٠١٣، ٦١).

ويعرف الحمزاوي المثل بأنه: «تركيب ثابت شائع موجز، يستخدم مجازيًا، صائب المعنى، يعتمد كثيرًا على التشبيه، وبناء على ذلك فهو يتسم بهذه السمات: الإيجاز البليغ، والاستعمال الشائع، والتشبيه، وجمال اللغة، والثبات، والاستعمال المجازي، وجودة الكناية، بالإضافة إلى أنه قابل للاستخدام في سياقات مختلفة، غير أن علاقته بتلك السياقات خاضعة لقواعد دلالية خاصة».

ومفهوم المثل ثابت لا يختلف من لغة لأخرى ولا من أدب لآخر، فالأوربيين يصفون المثل «بأنه العبارة التي تتصف بالشيوع والإيجاز ووحدة المعنى»، وتشير المعاجم الفرنسية إلى أن المثل: هو جملة خيالية ذائعة الاستخدام، تدل على صدق التجربة أو النصيحة أو الحكمة، يرجع إليها المتكلم. وقديمًا عرفوا المثل بأنه حكمة شعبية قصيرة تتداول على الألسنة، أو هو جملة غالبًا ما تكون قصيرة، تعبر عن حدث ذي مدلول خاص، لكن يبقى على المستمع تخمينه (الحمزاوي، ١٩٩٧).

**سمات الأمثال**

يقول إبراهيم النظام: يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحُسْن التشبيه، وجَوْدة الكناية، فهو نهاية البلاغة[١].

**أولًا: إيجاز اللفظ:**

الإيجاز هو أبرز سمات الأمثال، وبه تمتاز على ما عداها من فنون الأدب، كما أن الإيجاز يعمل على إشباع المعنى، وفي ذلك يقول الزمخشري: «أوجزت اللفظ فأشبعت المعنى، وقصرت العبارة فأطالت المغزى، ولوحت فأغرقت في التصريح، وكنت فأغنت عن الإيضاح»[٢].

وكل من أتى بتعريف للمثل يذكر في بدايته أنه جملة قصيرة، أو يأتي بقول يدل على أن المثل لابد وأن يتصف بالإيجاز، وفي هذا الصدد تقول دائرة المعارف البريطانية: «المثل جملة قصيرة، موجزة، مصيبة المعنى، شائعة الاستعمال»، وتعرف دائرة المعارف الأمريكية بقولها: «المثل جملة قصيرة مصيبة المعنى، تستحضر بدقة الحقيقة الشائعة...»، وتقول دائرة المعارف الفرنسية: «الأمثال أصداء للتجربة، والمثل هو اختصار معبر في كلمات قليلة...» (إبراهيم شعلان، ٢٠٠٨، ٢٨).

**ثانيًا: إصابة المعنى:**

تُعد الأمثال من الأشكال الأدبية التي تُعبر عن الواقع بشكل يقترب من الصدق؛ لأنها تُعد نتاج فكر وأحداث وتجارب للحياة اليومية (الحمزاوي، ١٩٩٧، ١٨)، فالمثل تفكير واقعي يعتمد على التجربة اليومية، ويعالج المشاكل الحياتية في صورتها الأولى غالبًا، فالمثل قد يُعبر عن الحقيقة بترديدها كما هي الحال بالنسبة لأمثال المواعظ، وقد يُعبر عن هذه الحقيقة بالتهويل والمبالغة، أو بالمجاز، وقد يلجأ إلى الاستعارة.

(١) أنظر: مجمع الأمثال للميداني، ١: ٥

(٢) أنظر: مقدمة المستقصي للزمخشري.

**ثالثًا: حُسن التشبيه:**

التشبيه سمة أساسية في المثل، فالتشبيه له مكانته في كلام العرب، فكما جاء في اللسان أن الأصل في المثل التشبيه، ولذلك كان أكثر أدب القدماء وما دونوه من علوم مشفوعًا بالأمثال والقصص عن الأمم، ونطقت ببعضه على ألسن الطير والوحش حتى يكون الخير مقرونًا بذكر عواقبه؛ لأن الكلام إذا جُعل مثلًا كان أوضح للمنطق[١].

فالتشبيه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتى يختصر ما بين المشرق والمغرب، فهو يريك للمعاني الممثلة بالأوهام شبها في الأشخاص الماثلة، ينطق لك الأخرس، ويعطيك البيان من الأعجم، ويريك الحياة في الجماد، ويريك التئام عين الأضداد، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين، والماء والنار مجتمعين[٢].

ويضرب الحمزاوي مثلًا لتوضيح سمة التشبيه في الأمثال فيقول: يقول المثل: «قبل الرماء تملأ الكنائن»؛ إذ هو يُضرب في الاستعداد للأمر قبل حلوله، وهو معنى معقول شبه بحالة حسية، هي حالة الرجل يستعد للرمي قبل أوانه، فيملأ جعبته سهامًا. فالمضرب هنا وهو المراد أمر معقول لا يدرك إلا بالفكر والنظر، وهذا يعنى أن العرب لجأوا إلى صورة حسية منتزعة من البيئة، فشبهوا بها تلك المعاني المعقولة وأخرجوها بهذا التشبيه من الخفاء والإبهام إلى الوضوح والجلاء.

**رابعًا: جودة الكناية:**

الكناية أن تتكلم بشيء وتريد غيره، وكنى عن الأمر بغيره يكنى كناية، يعنى أن تتكلم بغيره مما يستدل به عليه، وكنى الرؤيا هي الأمثال التي يضربها ملك الرؤيا، يكنى بها عن أعيان الأمور[٣].

والكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجئ إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه، ويجعله

(١) أنظر: البرهان في وجوه البيان لابن وهب، ص١٤٦.
(٢) أنظر: أسرار البلاغة للجرجاني، ص١١٢.
(٣) أنظر: لسان العرب، مادة: كنى.

دليلا عليه[١]، ويراد بالكناية التعبير عن المعنى بألفاظه التي وضعت له أصلاً لسبب من الأسباب، من تقريب به بالتشبيه، ومن احترام، وتحبب، وتطير، وتمن، ومجاملة، وما إلى ذلك. وهي طريقة لاشك لها شعبيتها خصوصًا وأن الأصل فيها تعبير الإنسان عن الأفعال التي تستر عن العيون عادة، تنزها عن إيرادها على جهتها. فالأمثال لا يصرح فيها بالمعاني المرادة، وإنما يكنى عنها بعبارات تفيد معاني أخرى، وتكتسب المعاني المرادة من الأمثال بهذه الكناية وضوحًا وإشراقًا.

**أهمية الأمثال**

يقول ابن المقفع: «إذا جُعل الكلام مثلًا، كان ذلك أوضح للمنطق، وأبين في المعنى، وأنقى للسمع، وأوسع لشعوب الحديث» (ابن المقفع، ١٩٦١، ٤١). ويرى أحمد أمين أن «أمثال كل أمة مصدر هام للمؤرخ، والأخلاقي، والاجتماعي، يستطيعون منها أن يعرفوا كثيرًا من أخلاق الأمة، وعادتها، وعقليتها، ونظرتها إلى الحياة؛ لأن الأمثال عادة وليدة البيئة التي نشأت عنها» (أحمد أمين، ٢٠١٣، ١٦).

وقد عدها ابن عبد ربه في كتابه «العقد الفريد» أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة. واعتبر أبو هلال العسكري في جمهرة الأمثال أنها من أجلّ الكلام وأنبله، وعد من لم يعن بها من الأدباء غير تام الآلة في الأدب، ولا موفور الحظ منه. ويقول الزمخشري: هي قصارى فصاحة العرب العرباء، وجوامع كلمها، ونوادر حكمها، وبيضة منطقها، وزبدة جواهرها وبلاغتها، وشأنها ليس بالخفي في إبراز غيبيات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في صورة المتحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع للجامح الأبي (العلواني، ١٩٩٣، ٣٧).

والحكم والأمثال أقصر الطرق لاطلاع الباحث على تجارب الآخرين، فهي بمثابة المفاتيح لكثير من غرف الحياة المغلقة التي يريد الإنسان ولوجها، والتعرف على ما فيها. وإذا كانت أساليب التعبير المختلفة تعين على الحياة وفهمها، فالأمثال أشمل

(١) أنظر: دلائل الإعجاز للجرجاني، ص٥٤.

من كل تلك الأنواع، وأقصر من كل تلك السبل. ومن هنا كان لها ما كان من أهمية، فضلًا عما قيل في خصائصها، ومميزاتها، من حيث الشكل والمضمون.

**الفرق بين المثل الشعبي والعامي**

الفرق بين مصطلحَي «الأمثال الشعبية» و«الأمثال العامية» أن مصطلح «أمثال شعبية» شائع على الألسنة والأقلام. إن صفة «شعبي» ليست مرادفة للصفة «عامّي»، فالأمثال كلها «شعبية» بحد ذاتها؛ لأن كل مثل انتشر ودرج على ألسنة الناس، أو على أقلامهم وراحوا يتمثلون به في كتاباتهم أو في أقوالهم هو «مثل شعبي». إذن المقصود من قولنا «الأمثال الشعبية» هو الأمثال العربية التي حفظها التراث الأدبي لنا وتمثل بها الكتاب والأدباء في مواقفهم وحالاتهم على اختلافها، وقد يكون مصدر المثل الشعبي قصةً، أو شعرًا مِثل: «مصائب قومٍ عند قومٍ فوائدُ»، أو من القرآن الكريم كقوله تعالى: «إن مع العسر يسرا»، أو من الحديث الشريف كقوله ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى»، أو حكمة أطلقها حكيم فطارت مِثلَ: «تاج المروءة التواضع» و«رأس الجهل الاغترار» الخ.

أما «المثل العامي» فهو «المثل الشعبي» المبسط لفظه المنطوق به باللهجات العامية. وغالبًا ما تعبر الأمثال العامية عن الحِكَم ذاتها التي تعبر عنها الأمثال الشعبية ولكن بألفاظ بسيطة وأحيانًا سوقية.

والكُتَّاب والأدباء يستشهدون بالأمثال الشعبية مثل ما ترد في كتب الأدب، والعامة تتمثل بها كيفما اتفق على اختلاف درجاتهم في العلم والأدب والأخلاق والدين. فمثلًا نقول: «**إبن الوز عوام**»، والعامة تستعمل مكانه: «**إكفي القدرة على فُمَّها تطلع البنت لامَّها**»، ونقول: «**يُدخل شعبان في رمضان**» والعامة تقول: «**بْيِخلِط عباس بفَرداس**».

وقديمًا بسَّط الناس في صيغة بعض الأمثال الشعبية حتى أصبحت الصيغة المبسطة أكثر انسيابًا على اللسان وأسهل حفظًا على الذاكرة، وكثيرًا ما حل المثل المبسط مكان المثل القديم وكاد يجعله مهجورًا لولا حفظ الأقدمين له في مؤلفاتهم

الجليلة. فمثلًا: حلّ المثل المبسط «**القرد في عين أمه غزال**» مكانَ المثل القديم: «**زُيِّنَ في عينِ والدٍ ولدُ**». وحلت الحكمة: «من تدخّلَ فيما لا يعنيه، سمعَ ما لا يُرضيه» مكانَ المثل العتيق «**أحدَ حِمارَيكِ فازْجُري**»، والخطاب لامرأة تتدخل في ما لا يعنيها. وحل «**يأتيك بالخبر اليقين**» محل «**يأتيك بالأمر من فَصِّه**». وحل «**خالِفْ تُعرَفْ**» محل «**يحجُّ والناس راجعون**»، وحل «**وَعدُ الحرِّ دَين**» محل «**وعدُ الكريم ألزمُ من دَين الغَريم**»... الخ. فالأمثال الشعبية ربما تتضمن ألفاظًا قد تبدو غريبة، وما هي إلا نحت من لفظ جاء من لغة سادت ثم بادت.

### بيئة الأمثال

يقول الأهواني: الأمثال أكثر انتشارًا بين الأميين منها بين المثقفين، والبيئات التي تعتمد على الثقافة الشفوية تتداول الأمثال وتحرص على حفظها والاستشهاد بها أكثر من البيئات ذات الثقافة المكتوبة، وتفسير ذلك من الناحية النفسية والاجتماعية يتمثل في أن ارتباط شخصية الفرد في البيئات الساذجة بالشخصية الجماعية أشد وأمتن، واحترامه للقيم الجماعية وكراهيته للشذوذ عن الجماعة يجعله ذهنيًا يتداول العملة التي صدرت أو ضربت في دار الجماعة، وهي المثل السائر الذي صبت فيه حكمة الأجيال السابقة، والذي جُعل كالحكم في المنازعات ومنظمًا للسلوك، فيستخدم الأمثال للتعبير عن نفسه ولإقناع سامعيه والتأثير على معارضيه. أما المجتمعات الحضرية المثقفة فقد نمت فيها الشخصية الفردية، ووجد فيها الثائرون على قيم المجتمع المعتزون بتفكيرهم الشخصي، الذين يعتقدون أنهم بأقوالهم وأساليبهم البيانية يملكون الأداة التي تصدق في التعبير عن أنفسهم بغير ما حاجة إلى استشهاد بأمثال[1].

فمثلًا الإنسان المصري طالما عانى ـ ولا يزال ـ من الكبت السياسي والاجتماعي والديني، ولعل ذلك ما جعله مبدعًا، يتحايل على وسائل القهر والكبت والإحباط

(١) عبد العزيز الأهواني، أمثال العامة في الأندلس، نقلاً عن الشعب المصري في أمثاله العامية لشعلان، ص٣٩-٤٠ بتصرف

باصطناع أقوال أو نكات، أو فنون شعبية، ينفس فيها وبها عمَّا يعانيه، إذ أجبرته ظروفه أن يكون إنسانًا حضاريًا وليس مجرد إنسان عادي يعيش الحياة لذاتها، ولأن المصري أكثر طاعة وامتثالًا وتقديرًا للسلطات بكل أشكالها الأبوية والسياسية والدينية أكثر من غيره من الجنسيات، لذلك نجده أكثر احترامًا بل وتقديسًا للتقاليد والقيم والعرف والدين والتشريعات، وكثير من وسائل الحظر والمنع والتعويق، ولعل ذلك ما فجَّر لديه ينبوع الحكمة الساخرة الموجزة الممثلة في كل ما يجرى على لسانه من عبارات لاذعة في شكل نكتة أو قفشة أو مثل يلخص القضية المطروحة، بل ويضع لها الحل في عبارة موجزة (عزة عزت، ٢٠٠٣، ١٨).

إستمع إلى المثل الذي يقول: «**يا فرعون إيه فرعنك.. قال مالقيتش حد يردني**» وأنت تجد فيه المشكلة معروضة أمام عينيك في كلمة واحدة وهي: «إيه فرعنك» بكل ما تحتويه الكلمة من معانٍ، ثم يقدم لك المثل الحل في نصفه الثاني إذ يقول: «مالقيتش حد يردني».

وتأسيسًا على ما سبق فهذه الأمثال وليدة بيئات أمية دعتها الضرورة إلى ذلك، وأن هذه البيئات تمثل الغالبية العظمى من الناس، فبيئات المثل شعبية، تعيش حياتها يومًا بيوم، وليس لديها الوقت لكي تبحث عن الحقيقة، وهو ما يؤيده المثل القائل: «**اطبخي يا جارية كلف يا سيدي**»، والآخر الذي يقول: «**إن سرقت اسرق جمل وان عشقت اعشق قمر**». وبالمقارنة بما نعرفه عن عناصر البيئة الأخرى والعالم المادي الطبيعي، لازال ما نعرفه اليوم عن الإنسان محدودًا، وحتى هذا القليل المحدود من المعرفة العلمية بالإنسان غير معروف إلا للقلة القليلة المتخصصة.

وفي الوقت الذي يرى فيه باحثون أن الأمثال الشعبية ـ كعنصر من عناصر الأدب الشعبي ـ إنتاج شعبي جماعي، صاغته الجماعة تعبيرًا عن أفكارها واهتماماتها ومشكلاتها، وأوجزت فيه حكمتها المستخلصة من خبراتها، يرى آخرون أن الأدب الشعبي فردي، أي أن هناك بالضرورة فردًا ما هو الذي ذكر المثل لأول مرة. ولا يوجد تناقض بين الرأيين إذ من غير المتصور أن تكون هناك جماعة التقى أفرادها في زمن ما ليؤلفوا بصورة جماعية مثلًا شعبيًا، لكن من المتصور أن يكون المؤلف الأول للمثل

فردًا واحدًا، ثم انتشر على ألسنة الناس في الحقب التاريخية المتتابعة، ثم إدخال تعديلات أو تغييرات عليها يجعلها تكتسب الطابع الجماعي الشعبي، خاصة إذا شعر الناس أن المثل يعبر عن حالتهم المزاجية وظروفهم وهمومهم.

ولذلك ينظر الباحثون في العلوم الإنسانية والاجتماعية إلى الأمثال باعتبارها وثيقة الصلة بحياة الناس وتاريخهم وثقافة مجتمعهم؛ لأنها من إنتاج الناس وخبراتهم، كما أنها تؤثر في سلوكهم واختياراتهم، وتوجه أفكارهم، ولما كان علم النفس هو أساسًا علم لفهم الحياة الإنسانية بجوانبها المختلفة، هذا العلم له إمكانيات لا محدودة من حيث إثراء معرفتنا المباشرة بالشروط التي تحكم السلوك الإنساني، وبالتالي توجيه معرفتنا لما فيه نفع للفرد أو للجماعات الإنسانية المختلفة، كان الافتراض بأن الأمثال الشعبية يمكن أن تكشف عن سمات الشخصية.

فالحضارة ما هي إلا تعبير عن معرفة الإنسان بنفسه. عندما استطاع الإنسان أن يتغلب على خوفه من تحطيم المعتقدات القديمة، وأن يكتسب الجرأة على البحث، انطلق العلم انطلاقًا غير محدود، يدرس كل ما يقع في مجال الإنسان. ولم يمكث الإنسان كثيرًا في هيبة من نفسه، فاتخذ نفسه موضوعًا للعلم، فكان علم النفس. ومعرفة الإنسان بنفسه في هذه الحضارة تتلخص في أنه الحيوان الذي ظل جاهلًا وهو قادر على العلم (أحمد فائق، ٢٠٠٣، ٣٨-٣٩).

ولاشك أن مفهوم الشخصية الذي يشغل مكانًا كبيرًا في علم النفس يحتل أهمية خاصة في التحليل النفسي، إذ يُعطي أهمية كبيرة للتاريخ الفردي للشخص، ولا سيما الخبرات والعلاقات الشخصية لهذا التاريخ الفردي. وستلاحظ أن الأمثال الشعبية بقدر تأثيرها في حياة الناس وسلوكهم، بما لها من آثار نفسية على الشخصية من تغير وتطور، ويتضح ذلك من احتفاظ الإنسان ببعض الأمثال دون غيرها، وترديده الدائم لها، في حين ينقرض بعضها الآخر بنسب كبيرة، بما يؤكد أن الأمثال تؤثر وتتأثر بالشخصية، بل هي نتاج لهذه الشخصية بكل ما يعتريها من تغيرات.

كما أن هناك اتجاهات تسعى إلى تفسير أهمية العلاقة بين العوامل السيكولوجية والاجتماعية في تكوين طباع الإنسان، وكشف السلوك الدافعي له، والعلاقات

المتبادلة بينه والآخر، وبين الشخصية والآخر في إطار سيكولوجي، وكشف الجوانب الاجتماعية الاقتصادية والثقافية في حياة المجتمع، فكان التركيز على الأمثال الشعبية كمعايير للسلوك وأحكامًا صادقة في نظر الأفراد والجماعات، اكتسبت من خبرات أليمة عبر الأيام، وأطلقت في جُمل قصيرة مسجوعة ـ في أغلب الأحيان ـ ليسهل حفظها وتداولها حتى يتمثلها الناس في مواقف الحياة المختلفة، ويطلقونها على أنها الأحكام التي تعكس عاداتهم وتقاليدهم وقيمهم ونظراتهم لكل جوانب الحياة.

فالإنسان عبارة عن مجموعة العلاقات الاجتماعية، وهو يتأثر ويتغير بتغير هذه العلاقات، إلا أن العلاقات الاجتماعية تتغير هي أيضًا بفعل النشاط الحيوي للإنسان، وعلى هذا فإن الظروف تصنع البشر بقدر ما أن البشر يصنعون الظروف. ومن خلال تفاعل الفرد مع بيئة تتصف بالديناميكية والتطور المستمر تنمو شخصية الفرد، وهذه البيئة تسبب للفرد الإشباع كما تسبب له الإحباط.

وإذا كان الإنسان هو إبن زمانه ومجتمعه وطبقته فإن نشاطه النفسي وشعوره يتحددان بخصائصه الفردية من جهة، وبعلاقاته الاجتماعية من جهة أخرى، ولذلك فإن ظروف الحياة المادية وأشكال العلاقات الاجتماعية في البناء الاجتماعي تؤثر تأثيرًا حاسمًا على سيكولوجية الناس وسلوكهم الاجتماعي، وكل ذلك يحدد مشاعر الناس وأفكارهم واتجاهاتهم.

لقد شعر الإنسان أثناء تطوره بالحاجة إلى التكيف مع بيئته والدفاع عن نفسه، وكذا إلى تجنب الألم والسعي إلى تحقيق أهدافه. ونعني بالبيئة في مجال التكيف كلًا من البيئة الداخلية (للإنسان) والبيئة الخارجية (المجتمع الكبير)، ذلك أن الظواهر النفسية إنما هي نتاج تطور ما هو بيولوجي ـ فسيولوجي في الإنسان من البسيط إلى المركب، ومن السطحي إلى المتعمق.

### الأمثال في الكتب المقدسة

الأمثال تشتمل على أساليب الحسن والجمال، وتستولي في الْجَوْدَة على أمَدِ الكمال، وكفاها جلالَةَ قدر، وفَخَامة فخر، أنَّ كتاب الله عز وجل لم يَعْرَ من وشاحها

المفصل ترائبُ طِواله ومُفَصَّله، ولا من تاجها المُرَصَّع مفارقُ مجمله ومُفَصَّله، وأن كلام نبيه ﷺ وهو أفصح العرب لسانًا، وأكملهم بيانًا، وأرْجَحُهم في إيضاح القول ميزانًا، لم يَخْلُ في إيراده وإصداره، وتبشيره وإنذاره، من مَثَل يحوز قَصَبَ السَّبْق في حَلْبة الإيجاز، أما الكتاب فيقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ (سورة إبراهيم، ٢٤) فقد شَبَّه ثَبَاتَ الإيمان في قلب المؤمن بثَبَات الشجرة، فالكلمة الطيبة هي كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» وشَبَّهَ صُعُود عمله إلى السماء، بارتفاع فروعها في الهواء. ويقول تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة النحل، ٧٥) ضرب الله مثلا بيَّن فيه فساد عقيدة أهل الشرك: رجلا مملوكًا عاجزًا عن التصرف لا يملك شيئًا، ورجلا آخر حرًا، له مال حلال رزَقه الله به، يملك التصرف فيه، ويعطي منه في الخفاء والعلن، فهل يقول عاقل بالتساوي بين الرجلين؟ فكذلك الله الخالق المالك المتصرف لا يستوي مع خلقه وعبيده، فكيف تُسَوُّون بينهما؟

ويقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (سورة النحل، ٧٦) وأمثالُ هذه الأمثال في التنزيل كثير، وهذا الذي ذكَرْتُ عن طَويلها قصير. وقد وردت كلمة «الأمثال» في القرآن الكريم في إحدى عشرة موضعًا، يقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ (الرعد: ١٧)، ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (إبراهيم: ٢٥)، ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ (إبراهيم: ٤٥)، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٧٤)، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٤٨)، ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٣٥)، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ (الفرقان: ٩)، ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ (الفرقان:

٣٩)، ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٣)، ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ (الواقعة: ٢٢-٢٣)، ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر: ٢١) (محمد فؤاد عبد الباقي، ١٩٩٦، ٧٥٩)، ويقول ابن القيم[1]: «إن أمثال القرآن لا يعقلها إلا العالمون، وإنها تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر» (ابن القيم، ١٩٨١، ١٧٥).

ومن آيات القرآن الكريم ما يجري مجرى المثل ويجمع الإعجاز والإيجاز مثل: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ (سورة فاطر، ٤٣) ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ (سورة يونس، ٢٣) ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (سورة المدثر، ٣٨) ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (سورة الرحمن، ٢٦) ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ (سورة الأنعام، ٦٧) ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ (سورة الإسراء، ٨٤) ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ (سورة القصص، ٧٧) ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ (سورة الحشر، ١٤) ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (سورة الأنعام، ١٦٤) ﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (سورة المؤمنون، ٥٣).

وقد قيل للحسين بن الفضل: إنك تُخرج أمثالَ العربِ والعَجَمِ من القرآن، فهل تجد في كتاب الله: «خير الأمور أوسطها»؟ قال نعم، في أربعة مواضع :

١. ﴿ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۗ ﴾ (سورة البقرة، ٦٨).

٢. ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ (سورة الفرقان، ٦٧).

٣. ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ (سورة الإسراء، ٢٩).

---

(١) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكي زيد الدين الزُّرعي، ثم الدمشقي الحنبلي الشهير بشمس الدين، أبو عبد الله وابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) من عائلة دمشقية عرفت بالعلم والالتزام بالدين، واشتهر بابن القيم الجوزية وقيم الجوزية هو والده فقد كان قيمًا على المدرسة الجوزية بدمشق مدة من الزمن، واشتهر بذلك اللقب ذريته وحفدتهم من بعد ذلك.

٤. ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ (سورة الإسراء، ١١٠).

فقيل: هل تجد: «من جهل شيئًا عاداه»؟ قال نعم، في موضعين:

١. ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ (سورة يونس، ٣٩).

٢. ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ (سورة الأحقاف، ١١).

فقيل: هل تجد: «إحذر شر من أحسنت إليه»؟ قال نعم: ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ (سورة التوبة، ٧٤). قيل: فهل تجد: «ليس الخبر كالعيان»؟ قال نعم: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾ (سورة البقرة، ٢٦٠). قيل: فهل تجد: «في الحركة بركة»؟ قال نعم: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ﴾ (سورة النساء، ١٠٠).

قيل: فهل تجد: «كما تدين تدان»؟ قال نعم: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ (سورة النساء، ١٢٣). قيل: فهل تجد: «لا يُلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين»؟ قال نعم: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ﴾ (سورة يوسف، ٦٤). قيل: فهل تجد: «من أعان ظالمًا سُلط عليه»؟ قال نعم: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (سورة الحج، ٤). قيل: فهل تجد فيه: «لا تلدُ الحية إلا حية»؟ قال نعم: ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (سورة نوح، ٢٧). قيل: فهل تجد فيه: «للحيطان آذان»؟ قال: نعم: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ﴾ (سورة التوبة، ٤٧). قيل: فهل تجد فيه: «الحلال لا يأتيك إلا قوتًا، والحرام لا يأتيك إلا جزافًا»؟ قال نعم: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ﴾ (سورة الأعراف، ١٦٣)[1].

وأما الكلام النبوي من هذا الفن فكثير، فعن أبي موسى الأَشْعَرِيِّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما مَثَلُ الجليسِ الصالِح وجليسِ السوء كحامل المِسْكِ

(١) أنظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ج٤، ص ص ٥٠-٥٢.

ونافخُ الكِيرِ، فحاملُ المسكِ إما أن يُحْذِيَكَ (يعطيك)، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبا، ونافخُ الكِيرِ إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تَجِدَ منه ريحا خبيثة»[١] وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما مثلي ومثل الأنبياء كرجل بنى دارا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون: لولا موضع اللبنة»[٢].

ومن روائع أقواله ﷺ: «الحرب خدعة». «ما عال من اقتصد». «المؤمنون عند شروطهم». «يد الله مع الجماعة». «لا جبايه إلا بحماية». «تهادوا تحابوا». «الحياء شعبة من الإيمان». إبدأ بمن تعول». «تخيروا لنطفكم». «اتقوا الملاعن». «خير الأمور أوسطها». «من غشنا فليس منا». «كل ميسر لما خلق الله له». المجالس بالأمانات». «الوحدة خير من جليس السوء». «البركة في البكور». «دع لما يريبك إلا ما لا يريبك». «انصر أخاك ظالمًا كان أو مظلومًا». «أنزلوا الناس منازلهم». «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه». «اليد العليا خير من اليد السفلى». «المرء على دين خليله»[٣].

ويقول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه: «أشقى الولاة من شقيت به رعيته»، «لا تؤخر عمل يومك إلى غدك»، «من لم يعرف الشر يقع فيه». ويقول عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه: «يكفيك من الحاسد أن يغتم وقت سرورك». ويقول علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه: «المرء مخبوء تحت لسانه»، «الناس من خوف الذل في الذل»، «استغن عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت فأنت أسيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره»، «من عذب لسانه كثر إخوانه» (محمد غالب وأنور زناتي، ٢٠٠٩).

وقد تناول الباحث «محمد فياض» الأمثال في القرآن الكريم من حيث المفاهيم، وكيفية ضرب المثل وحكايته وغرابته وأهميته وأنواعه، وخص بالدراسة المثل القرآني والآيات التي وردت فيها كلمة المثل وعددها وأنواعها، وعرض للموضوعات التي

(١) رواه البخاري.
(٢) سنن الترمذي، باب الأمثال.
(٣) أنظر: الإعجاز والإيجاز للثعالبي.

عالجتها. واختتم الدراسة بعقد مقارنة بين الأمثال في القرآن الكريم والعهدين القديم والجديد، وكيف أن سفر الخروج مأخوذ عن الأمثال الفرعونية القديمة (محمد جابر، ١٩٦٨)، كما تناول الأمثال في الحديث النبوي الشريف، وأهميتها وأنواعها، وفرق بينها وبين الأمثال الشعبية، وتناول بالعرض والدراسة بعض الأحاديث التي تحدثت عن الأمثال (محمد فياض، ١٩٧٨).

وفي الكتاب المقدس[١]: «سفر الأمثال» أو«أمثال سليمان»، يتضمن مجموعة من الحكم الأخلاقية التي وردت في الكتب السماوية. ويُسمَّى «سفر الأمثال» بالعبرية «ميشاليم» وهو يضم مجموعة من الأمثال، ويتناول موضوعات مختلفة مثل: مخافة الإله، وطاعة الوالدين، واحترام المعلمين، والنهي عن المنكر، والأمر بالعدل، والصبر، وعدم الغش في الكيل، والتَبصُّر في الأمور.

ويؤكد السفر أن الصالحين من العلماء سيكافئون، وأن الصالحين من الجهلاء سيُجازون. والتوجه الأخلاقي للسفر فردي إنساني وليس قوميًا. وتُنسَب معظم أجزاء السفر إلى سليمان عليه السلام، كما تُنسَب أجزاء أخرى إلى مؤلفين آخرين حُدِّدت أسماء بعضهم ولم تُحدَّد أسماء البعض الآخر. ويشبه السفر كتب الحكم والأمثال المصرية، كما يُلاحَظ تأثره بأدب الأمثال الكنعاني والآشوري.

يقول السفر عن الأمثال: «٥يَسْمَعُهَا الْحَكِيمُ فَيَزْدَادُ عِلْمًا، وَالْفَهِيمُ يَكْتَسِبُ تَدْبِيرًا»، وعن الخطاة تقول الأمثال: «١٥يَا ابْنِي، لاَ تَسْلُكْ فِي الطَّرِيقِ مَعَهُمْ. اِمْنَعْ رِجْلَكَ عَنْ مَسَالِكِهِمْ.»، كما تتحدث الأمثال عن العلم والجهل فتقول: «إِلَى مَتَى أَيُّهَا الْجُهَّالُ

(١) الكتاب المقدس Bible من الكلمة الإغريقية Biblia وتعني كتب. وهو عبارة عن مجموعة من الأسفار تشكل معًا الكتب المقدسة بالنسبة للمسيحيين، ويشكل الجزء الأول من الكتاب ـ العهد القديم ـ كتابًا مقدسًا بالنسبة لليهود. ويتألف الكتاب المقدس من ٧٧ سفرًا (إذا أدرجنا فيها أسفار الأبوكريفا)، واللغات الأصلية للكتاب المقدس هي: العبرية والآرامية (بدرجة محدودة) وأيضًا الإغريقية الهيلينية (اللهجة الرئيسة فيها، أي اليونانية). ولم يتم اللجوء إلى تقسيم الكتاب المقدس إلى فصول إلا في القرن الثالث عشر على يد الكاردينال ستيفن لانجتون، في حين أدخل تقسيم الفصول إلى آيات وترقيم هذه الآخيرة على يد الطابع الفرنسي روبرت في القرن السادس عشر (أنظر: المعجم العلمي للمعتقدات الدينية، تعريب وتحرير، سعد الفيشاوي).

تُحِبُّونَ الْجَهْلَ، وَالْمُسْتَهْزِئُونَ يُسَرُّونَ بِالاسْتِهْزَاءِ، وَالْحَمْقَى يُبْغِضُونَ الْعِلْمَ؟»[١] وفي الإصحاح الثاني يقول السفر: «١٠ إِذَا دَخَلَتِ الْحِكْمَةُ قَلْبَكَ، وَلَذَّتِ الْمَعْرِفَةُ لِنَفْسِكَ، ١١ فَالْعَقْلُ يَحْفَظُكَ، وَالْفَهْمُ يَنْصُرُكَ».

وينسب الحاخامات[٢] نشيد الإنشاد، وسفر الأمثال، وسفر الجامعة إلى سليمان، فيقولون إنه وضع الأول في شبابه، والثاني في تمام عقله وحكمته، والثالث في شيخوخته[٣]. وفي سفر المزامير ما يدل على اهتمام الناس بالمثل، «أميل بأذني إلى مثل، وأوضح بعود لغزي» (المزامير ٤: ٤٩).

لقد كثرت الأمثال في العهد القديم حتى ذُكر أن سليمان الحكيم وحده تكلم بثلاثة آلاف منها، جاء ذلك في سفر الملوك الأول: ٣٠ «وَفَاقَتْ حِكْمَةُ سُلَيْمَانَ حِكْمَةَ جَمِيعِ بَنِي الْمَشْرِقِ وَكُلَّ حِكْمَةِ مِصْرَ.... وَكَانَ صِيتُهُ فِي جَمِيعِ الأُمَمِ حَوَالَيْهِ. ٣٢ وَتَكَلَّمَ بِثَلاَثَةِ آلاَفِ مَثَل»[٤].

وقد صرحت الأناجيل بأن السيد المسيح ـ عليه السلام ـ كان يبلغ دعوته عن طريق الأمثال، فقد جاء في إنجيل متى: «٣ فَكَلَّمَهُمْ كَثِيرًا بِأَمْثَال قَائِلًا: «هُوَذَا الزَّارِعُ قَدْ خَرَجَ لِيَزْرَعَ، ٤وَفِيمَا هُوَ يَزْرَعُ سَقَطَ بَعْضٌ عَلَى الطَّرِيقِ، فَجَاءَتِ الطُّيُورُ وَأَكَلَتْهُ. ٥وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى الأَمَاكِنِ الْمُحْجِرَةِ، حَيْثُ لَمْ تَكُنْ لَهُ تُرْبَةٌ كَثِيرَةٌ، فَنَبَتَ حَالًا إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عُمْقُ أَرْضٍ. ٦وَلكِنْ لَمَّا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ احْتَرَقَ، وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَصْلٌ جَفَّ. ٧وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى الشَّوْكِ، فَطَلَعَ الشَّوْكُ وَخَنَقَهُ. ٨وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى الأَرْضِ الْجَيِّدَةِ فَأَعْطَى ثَمَرًا، بَعْضٌ مِئَةً وَآخَرُ سِتِّينَ وَآخَرُ ثَلاَثِينَ. ٩مَنْ لَهُ أُذُنَانِ لِلسَّمْعِ، فَلْيَسْمَعْ»»[٥].

(١) أنظر: سفر الأمثال، الإصحاح الأول.

(٢) المفرد حاخام Rabbi من العبرية وتعني «سيدي» أو «معلمي». ويُعد الحاخام بمثابة الكاهن الذي يحسم القضايا الدينية والعائلية التي تثار داخل المجتمع اليهودي. ويتولى الحاخامات مسئولية تفسير الوصايا والتعاليم التي وردت في التلمود، ويحرص الحاخامات على إضفاء طابع الحداثة على هذه التعاليم حتى تتناسب مع روح العصر. وفي إسرائيل يسعى الحاخامات إلى تولي قيادة كل الأمور الروحانية والسياسية في الدولة.

(٣) أنظر: موسوعة اليهود واليهودية، للمسيري، ج ٥.

(٤) سفر الملوك الأول، ٤: ٣٠-٣٢.

(٥) إنجيل متى، ١٣: ٣-٩.

وعندما يريد أن يوضح شيئًا فإنه يضرب للناس مثلًا حتى يقربه للأذهان «٣١قَدَّمَ لَهُمْ مَثَلًا آخَرَ قَائِلًا: «يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ حَبَّةَ خَرْدَل أَخَذَهَا إِنْسَانٌ وَزَرَعَهَا فِي حَقْلِهِ، ٣٢وَهِيَ أَصْغَرُ جَمِيعِ الْبُذُورِ. وَلكِنْ مَتَى نَمَتْ فَهِيَ أَكْبَرُ الْبُقُولِ، وَتَصِيرُ شَجَرَةً، حَتَّى إِنَّ طُيُورَ السَّمَاءِ تَأْتِي وَتَتَآوَى فِي أَغْصَانِهَا»»[1].

ويمكنك مراجعة الأمثال من كتاب العهد الجديد، وسوف تجد مثل الزراع (لوقا، ٨: ٤-١٥)، ومثل البذار النامية (مرقس، ٤: ٢٦-٢٩)، وأمثلة الكنز واللؤلؤة والشبكة (متى، ١٣: ٤٤-٥٣)، وكذلك مثل العتيق والجديد (متى، ٩: ١٤-١٧)، ومثل السامري الصالح (لوقا، ١٠: ٢٥-٣٧)، وغير ذلك كثير.

كما بين المسيح عليه السلام العلة من ضرب الأمثال فقال: «١٣مِنْ أَجْلِ هذَا أُكَلِّمُهُمْ بِأَمْثَال، لأَنَّهُمْ مُبْصِرِينَ لاَ يُبْصِرُونَ، وَسَامِعِينَ لاَ يَسْمَعُونَ وَلاَ يَفْهَمُونَ»[2].

(١) إنجيل متى ١٣: ١٣-٣٢.
(٢) السابق، ١٣.

# الفصل الثاني

# علم النفس الإيجابي

# علم النفس الإيجابي

**«حلّها بإيدك أولى ما تحلها بسنانك»**

علم النفس الإيجابي Positive Psychology ربما كان توجهًا أكثر منه مدرسة نفسية؛ حيث إنها لا تزال في بدايتها لم تستقر بعد؛ إذ أن التبشير بها كاتجاه في علم النفس من التوجهات الحديثة. وقد جاء ذلك في مقال يحمل نفس العنوان لاثنين من أساتذة علم النفس بالولايات المتحدة الأمريكية هما: مارتن سيليجمان Mar-tin Seligman وميهالي شيكزنتميهالي Mihaly Csikszentmihalya في عدد يناير من عام ٢٠٠٠ من مجلة American Psychoogyist. وهو رؤية طيبة للحياة، ويشير إلى الأفعال والأنشطة التي تؤدي إلى الرفاهية والسعادة، وخلق أفراد إيجابيين، ومجتمعات مزدهرة (فرج طه وآخرون، ٢٠٠٩، ٨٣٦-٨٣٧).

ويُعرف علم النفس الإيجابي بأنه مجال للنظريات والأبحاث النفسية التي تركز على الخبرات النفسية، والسمات الفردية، أو مناحي القوة الأخلاقية، والمؤسسات الاجتماعية التي تجعل الحياة تستحق العيش إلى أقصى درجة. وهذا الفرع من علم النفس يركز على المستوى الانفعالي والمعرفي مهتمًا بالخبرات الإيجابية في الماضي والحاضر والمستقبل مثل: الرضا والسعادة والتفاؤل والحق والعدل. وعلى المستوى الفردي معنّي بالسمات الشخصية الإيجابية مثل الشجاعة والوفاء والحكمة. وعلى المستوى الجمعي معنّي بالفضائل المدنية والمؤسسات التي تزيد من فاعلية مشاركة الفرد كمواطن وعضو في المجتمع مثل الإيثار والاعتدال والمسؤولية.

ويقدم علم النفس الإيجابي إطارًا نظريًا يمكن من خلاله الكشف عن أفضل

ما في الإنسان من قوى إنسانية وفضائل، والعمل على خلق بيئة مناسبة لتنمية تلك القوى والإمكانات الموجودة داخله، الأمر الذي ينعكس على إكسابه المزيد من الثقة بذاته. ومن ثم فإن رسالة علم النفس الإيجابي هي أن يعيش الإنسان بشكل إيجابي مع كل ما هو سلبي في الحياة، وأن يأصل السعادة بداخله كوسيلة وليست غاية، وأن يكون قادرًا على الاختيار بصورة واعية من خلال جهده وكفاحه، وبذلك يكون الهدف الرئيس لهذا العلم هو التعرف على القوى الإنسانية والعمل على تنميتها من أجل الحماية من الاضطرابات النفسية.

وفي الوقت ذاته فإن كثير من المعتقدات الإيجابية تنمو وتتطور نتيجة لخبرة الفرد في التعامل مع المشكلات التي يواجهها، الأمر الذي يجعل الإنسان يستطيع الاعتماد على هذه القوى دون أن يتجاهل أو يقلل من قيمة سلبيات الواقع. وهنا تجد المثل يقول: «**حلَّها بإيدك أولى ما تحلها بسنانك**» في إشارة إلى وجوب تدارك الأمور وهي ميسرة قبل أن تتعسر، كالعقد تحل باليد وإذا تعسرت تحل بالأسنان، فكان التعلم من خبرة السنوات عن طريق المحاولة والخطأ إحدى الطرق المؤدية إلى التعلم، وأن الفشل أو الخسارة يمكن أن تكون درسًا مفيدًا «**الخسارة اللي تعلم مكسب**».

ويجب التأكيد على أن هذه القوى ليست بمثابة منظومة قيمية تفرض على الشخص من أجل الالتزام بها، ولكنها واحدة من أهم السبل لتحقيق الرفاهية النفسية وجودة الحياة. كما يجب التأكيد على أهمية الموقف الذي تمارس فيه هذه القوى، بمعنى أن ما يُعد إيجابي في موقف ما يمكن أن يكون له تداعيات سلبية في موقف آخر. فممارسة هذه القوى ينتج عنها مشاعر إيجابية لدى كل من يمارسها بحثًا عن الحياة الطيبة، ونحن نستخدمها لكي تحمينا من نقاط ضعفنا (أحمد السيد، ٢٠١٢).

وهكذا يكون تركيز علم النفس الإيجابي على مستوى الموضوع هو البحث عن الخبرات والتجارب ذات القيمة والفائدة المرغوبة: حسن الحال، والرفاهية، والسعادة والاطمئنان، والرضا والأمل والتفاؤل. أما على المستوى الفردي فيكون

القدرة على الحب والعمل والشجاعة والجرأة، وتذوق الجمال والاستمتاع به، والمثابرة والتسامح والأصالة، والعقلية المستقبلية. وعلى المستوى الجماعي يكون المواطنة الصالحة، والإحساس بالمسؤولية وتقديرها، وتقديم الرعاية والعون للآخرين، والإيثار، ودماثة الخلق، والاعتدال والتسامح (فرج طه وآخرون، ٢٠٠٩، ٨٣٧).

## السعادة

**«السعد لمَّا يئتي ما يحبِّش مِساندة»**

بعض الناس يصفون السعادة على أنها شعور بالرضا والإشباع وطمأنينة النفس وتحقيق الذات، والبعض الآخر يرى أنها شعور بالبهجة والاستمتاع واللذة. وعمومًا التعبير عن الشعور بالسعادة مقترنًا بالصحة النفسية والجسدية، ويزداد بوجود علاقات اجتماعية طيبة، ويقل بفقدانها، وبزيادة وطأة أحداث الحياة (مايكل أرجايل، ١٩٩٣، ١٠). ويمكن فهم السعادة على أنها انعكاسًا لدرجة الرضا عن الحياة، وتكرار حدوث الانفعالات السارة. ويمكن تعريف السعادة على أنهاحالة من الفرح والسرور والبهجة، والإحساس اللاذ بالمتعة وحسن الحال.

وليس كل الناس على هذا الحال، فالناس منهم شقي ومنهم سعيد «**ناس ياكلوا البلح وناس يترموا بنواه**»، ومنهم من يهتم بسعادة نفسه فقط ولا يهتم بالآخرين «**في أفراحكم منسية وفي أحزانكم مدعية**»، ويقول آخر: «**في فرحكم ابُص وارجع وفي غمُّكم ليَّ التلات والاربع**»، والحزين أو التعيس يقول بلسان حاله: «**قضّيت العُمر في قهر، وهوَّ العمر كام شهر**». والشخص الذي تكثر أحزانه، أو يغلب عليه طابع التعاسة يردد: «**المتعوس متعوس ولو علَّقوا على راسه فانوس**»، ويقال المثل بصيغة أخرى تفيد اليأس وعدم الرجاء «**المتعوس إن جه يتسبِّب في الطَّواقي يخلق ربنا ناس من غير روس**»، ويقول آخر: «**أهل الهنا للهنا يارب هنيهم، واهل الشقا للشقا راحوا يجيبوا الهنا عِطِر الشقا فيهم**».

وإذا كان الحال كذلك فإن المثل يقول: «**السعد وعد**»، أي أن اللحظات السعيدة

التي يعيشها الإنسان مقدرة من الأزل وموعود بها من الله، وإذا كان حال الإنسان دائر بين السعادة والتعاسة، فلا هو دائم السعادة ولا دائم التعاسة فإن المثل يقول له: «**دوام الحال من المحال**»، ولذلك يجب أن تكون متيقظ للحظات السعيدة ولا تفوتها على نفسك فربما طرأ على نفسك بعد ذلك ما يجعلك لا تشتهي السرور، وهنا يقول المثل: «**حسَّك تُفُوت الحظ إن كان حابك**» لأن «**ساعة الحظ ما تتعوضش**».

وينبغي أن نعلم أن المجتمعات تتكون من أفرادها وأن سعادة هؤلاء الأفراد تؤدي إلى التقدم المستمر للمجتمع الكبير، وهو ما أكدت عليه مؤسسة غالوب Gallup لاستطلاع الرأي، حيث أثبتت أن عدم إحساس الموظفين بالسعادة يكلف اقتصاد الولايات المتحدة خمسمائة مليار دولار أمريكي سنويًا، بسبب تدني الإنتاجية وارتفاع تكاليف الرعاية الصحية (ويليام ديفيز، ٢٠١٨، ١٩).

والسعادة تُطلب لذاتها وليست وسيلة لتحقيق شيء آخر كالمال أو الممتلكات أو المركز والمكانة، فهي غاية نهائية يسعى إليها كل إنسان وإن اختلفت وسيلته في الوصول إليها، وكل من سعادة الفرد وسعادة المجتمع هو الهدف الأسمى الذي يسعى إليه علم النفس الإيجابي، ولذلك يقول المثل: «**السعد لمَّا يئتي ما يحبِّش مِساندة**»، وفي محاولة الإنسان للبحث عن السعادة لا بد وأن يعلم أنها بتوفيق من الله، لأن «**السعد ماهوش بالشطارة**» فكم من ماهر لم ترفعه كفايته، وبليد لم تخفضه بلادته.

ومع ذلك.. ومع تغلغل علم النفس الإيجابي وقياس السعادة بالثقافة الاقتصادية والسياسية منذ تسعينات القرن الماضي، نما إحساس بعدم الارتياح بسبب الطريقة التي تبنى بها صناع القرار السياسي والمسؤولون مفهومي السعادة والرفاهية. حيث تكمن الخطورة في أن هذا العلم تنتهي به الحال بتحميل الأفراد مسؤولية شقائهم وعلاج هذا الشقاء، في حين يتجاهل السياق الذي أدى إلى ذلك. فهناك حتمًا مشكلات اقتصادية وسياسية كثيرة وملموسة ينبغي التعامل معها قبل أن نصب جزءا كبيرًا من اهتمامنا على الشروط العصبية والذهنية (ويليام ديفيز، ٢٠١٨، ١٦).

والسعادة كلمة حبيبة إلى قلب كل إنسان، وهي شعور داخلي يحسه الإنسان بين جوانبه يتمثل في سكينة النفس، وطمأنينة القلب، وانشراح الصدر، وراحة الضمير،

فإذا تم ذلك فالشخص الضعيف ما عاد ضعيفًا بل هو أقوى من الأقوياء، والمثل يقول: «**عند السعد النملة تقتل التعبان**»، وما من إنسان إلا وهو يسعى إلى تحقيق السعادة في حياته، فأكثر الناس يظنون أن السعادة في المال والثراء، ومنهم من يتصور أن السعادة في أن يكون له بيت فاخر وسيارة فارهة، ومنهم من يعتقد أن السعادة في كثرة الأولاد والأحفاد، أو تكون له وجاهة في المجتمع، أو يتبوأ أعلى المناصب، ويظنها البعض الآخر في أن يتزوج امرأة ذات مال وجمال ودلال، وللناس فيما يعشقون مذاهب.

وإن كانت هذه المتع مطلوبة إلا أنها لا يجب أن تكون غاية لأنها زائلة، ولذلك يقول المثل: «**عيش في العز يوم ولا تعيش في الذُل سنة**»، فهي مُتع دنيوية زائلة، من عاش لأجلها ولم يبتغ غيرها لم يذق طعم السعادة الحقيقية، «**يا فرحة ما تمت خدها الغراب وطار**»، فالسعادة ليست في مال يجمعه الإنسان وإلا لسعد قارون، وليست في طلب الوزارة والمنصب ولو كانت كذلك لسعد هامان وزير فرعون، وليست في متعة دنيوية ما تلبث أن تنقضي، بل السعادة الحقيقية في طاعة الله، والبعد عن معصيته التي هي سبب في الفوز الأبدي (فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ).

## التفاؤل والتشاؤم

**«خـدوا فالكوا من عيالكوا»**

**«اتبع البوم يوديك الخراب»**

يُعد كل من التفاؤل Optimism والتشاؤم Pessimism من الخصائص الشخصية المستقرة والثابتة إلى حد بعيد، ويعتقد بعض الباحثين أن التفاؤل عادة يكون موروثًا، في حين يرى آخرون أنه مكتسب في المقام الأول. والتفاؤل هو نظرة استبشار نحو المستقبل تجعل الفرد يتوقع الأفضل، وينتظر حدوث الخير، ويستبعد ما عدا ذلك، بينما التشاؤم توقع سلبي للأحداث القادمة، يجعل الفرد ينتظر حدوث الأسوأ، ويتوقع الشر والفشل وخيبة الأمل (أحمد عبد الخالق، ١٩٩٦، ٦).

وفي الحديث الشريف عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة ويُعجبني الفأل. قالوا: وما الفأل؟ قال: الكلمة الطيبة»[١] وقد ترك الناس الهمزة تيسيرًا. والفأل أو التفاؤل أن يكون رجل مريض مثلًا فيسمع آخر يقول: يا سالم، أو يكون طالب ضالة فيسمع آخر يقول: يا واجد، فيقع في ظنه أنه يبرأ من مرضه ويجد ضالته. أما الطيرة فيها سوء ظن بالله وتوقع البلاء، وهي التشاؤم.

فالنفس الإنسانية السليمة بموجب الفطرة ومقتضى الطبيعة تميل إلى ما يوافقها ويلائمها، كما أخبر النبي ﷺ أنه يُحب الحلواء والعسل، ويُحب معالي الأخلاق ومكارم الشيم. والله عز وجل قد جعل في غرائز الناس الإعجاب بسماع الإسم

(١) البخاري ومسلم.

الحسن ومحبته، وميل نفوسهم إليه، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشار والسرور باسم الفلاح والسلام والنجاح والتهنئة والبشرى، ونحو ذلك، فإذا قرعت هذه الأسماء الأسماع استبشرت بها النفوس، وانشرح لها الصدر، وإذا سمعت أضدادها أحزنها ذلك، وأثار لها خوفًا وانقباضًا.

وفي ذلك يقول المثل: «**بدال ما نقول ديبة نقول قدح شعير**»، والديبة هي أنثى الذئب، ومعنى المثل أننا إذا رأينا مزرعة لا نقول ديبة أي لا ندعي عليها بالتلف أو تشاؤمًا، بل نقول قدح شعير دعاء لها بالخصب أو تفاؤلًا به، ويضرب المثل للحث على التفاؤل وأنه خير من التشاؤم (أحمد تيمور، ١٩٨٦، ١٢٨). ويفترض الباحثون أن التفاؤل يساعد الفرد على الاستمرار بصحة جيدة تحت الظروف الضاغطة، فالأفراد الذين يحصلون على درجات مرتفعة في التفاؤل يحصلون عادة على درجات عالية على مقاييس الرفاهية الشخصية في أوقات الضغوط مقارنة بالأفراد الأقل تفاؤلًا.

فالتفاؤل له تأثير كبير في الطريقة التي يتكيف بها الأفراد مع المواقف اليومية الضاغطة، حيث يواصل المتفائلون الكفاح والعمل الجاد، والتكيف الفعال مع المشكلات التي تواجههم، كما أنهم ينخرطون في سلوكيات صحية أكثر من المتشائمين، في حين أن المتشائمين يميلون إلى الاستسلام والانسحاب.

والأمثال في موضوع التفاؤل والتشاؤم كثير منها: «**اتبع البوم يوديك الخراب**»، «**حُط رجلك مطرح رجل السعيد تسعد**»، «**خدوا فالكوا من عيالكوا**»، «**صباح الفوال ولا صباح العطار**»، والفوال هو بائع الفول، والعطار هو بائع العقاقير، «**صباح القرود ولا صباح الاجرود**»، فهم يفضلون رؤية القرد في الصباح عن الجرود، أي الذي لا تنبت له لحية ولا شارب، حيث يتشاءمون من رؤيته في الصباح. «**النحس مالوش إلا انحس منه**»، أي المشؤم لا يتغلب عليه إلا من هو أشأم منه، والمراد من يحل شؤمه بالناس (أحمد تيمور، ١٩٨٦، ٤٨٨).

ويوضح أحمد أمين (٢٠١٣، ٦٠) القول المشهور «**أقدام واعتاب ونواصي**» أن التفاؤل والتشاؤم يكونان في هذه الأمور الثلاثة، الأقدام وهي الدواب، والأعتاب وهي مدخل المساكن، والنواصي وهي الخيل، وأن هذه الأمور إما أن تكون مصدر

سعد، أو مصدر شقاء، ويعتقدون أن الدابة إذا أكثرت من هز رأسها وهي مربوطة فهي علامة على قرب موت صاحبها، وأما المسكن فالباب الذي يفتح إلى الشمال دليل السعادة والخير، والباب الذي يفتح إلى الغرب دليل السيادة والرياسة، والباب الذي يفتح إلى الشرق دليل الصحة والعافية، والذي يفتح إلى الجنوب دليل الفقر والعوز وسوء المصير.

كما أن المتفائلين يعانون من أعراض جسمية أقل نتيجة للضغوط؛ لأنهم يستخدمون استراتيجية التركيز على المشكلة عندما يدركون أن الموقف يمكن السيطرة عليه، مما يؤدي إلى تخفيض التأثيرات السلبية على الأداء وعلى الصحة النفسية والجسمية. في حين أن المتشائمين يستخدمون استراتيجية التركيز على الانفعال المتمثلة في الانسحاب والإنكار السلوكي، وتجنب الهدف الذي يتضمن الضغوط، والتركيز على الانفعال أو العاطفة بوصفه استراتيجية للتكيف (هدى جعفر، ٢٠٠٦، ٨٩).

ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: «ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: أحسنها الفأل، ولا ترد مسلمًا، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك». وكان النبي ﷺ إذا خرج إلى حاجته يحب أن يسمع: يا نجيح، ويا راشد، كما أنه ﷺ كان لا يتطير (لا يتشاءم) من شيء، وكان إذا بعث عاملًا سأله عن إسمه فإذا أعجبه فرح به، وإن كره اسمه رؤي كراهية ذلك في وجهه.

فالتشاؤم لا يأتي بالحسنات ولا يدفع المكروهات، ولذلك قال ﷺ: «اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت»، وفي القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[1] ولأحمد من حديث ابن عمر «ومن ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك. قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك». فالتفاؤل يلعب دورًا هامًا في تحقيق التوافق مع الخبرات

(١) سورة النساء: ٧٨.

السلبية التي يمكن أن يمر بها الفرد، كما أن كثير من المعتقدات الإيجابية تنمو نتيجة لخبرة الفرد في التعامل مع المشكلات.

ولقد أثبتت البحوث والدراسات أن الشخص الذي ترتفع طاقته الإيجابية ترتفع صحته النفسية. هذه الطاقة الإيجابية تتمثل في القيم التي ناقشها علم النفس الإيجابي مثل التفاؤل والتسامح وغير ذلك. فالإنسان عندما يتفاءل بالخير يناله، تفاءل بالخير على مستوى الخيال في ذهنك، فالخيال الإيجابي يسهل الأمور كثيرًا ويجعل الجسد يتعامل مع الصورة الذهنية الإيجابية، ألم تقرأ قول الله عز وجل في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي»؟ فأحسن الظن وتفاءل.

وبناء على ما سبق فإن المرشد النفسي لا ينظر فقط إلى ما يجب التخلص منه، أو التخفيف من آثاره، ولكن أيضًا ينظر إلى ما ينبغي إكتسابه وتنميته والاستعانة به في الخوض في غمار الحياة لتحسين طريقة الحياة وممارسة الأدوار.

## التسامح والتعصب

**«صبح ولا تقبح والمسامح كريم»**

التسامح يعني العيش مع الآخرين بسلام، ويتضمن تقبل أفكار الآخرين التي قد يختلف معها. وقد يكون هذا الآخر إنسانًا أو فكرًا أو رأيًا، ويتم التعبير عن هذا التقبل في شكل الاعتقاد بأحقية هذا الآخر في الوجود (أشرف عبد الوهاب، ٢٠٠٦، ١٣). والتسامح يبدو ضروريًا وصعبًا في الوقت ذاته. فهو ضروري عندما توجد جماعات مختلفة ذات معتقدات أخلاقية أو سياسية أو دينية متعارضة أو متناقضة، وأنه لا بديل أمامهم سوى العيش معًا، وذلك لأن البديل الآخر هو الصراع. ومع ذلك فإن التسامح قد يبدو صعبًا عندما يكون هناك تهديد بالعنف أو بانهيار التعاون الاجتماعي، ولذلك يطلق «برنارد وليامز» على التسامح: الفضيلة الصعبة.

لقد انبثق مفهوم التسامح من عصر التنوير في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وتكاملت صياغته الفلسفية على أيدي فلاسفة التنوير أمثال: جون لوك (١٦٣٢–١٧٠٤)، وفولتير (١٦٦٤–١٧٧٨)، وبيركلي (١٦٨٥–١٧٥٣) وغيرهم. فهو مبدأ يرتبط بعصر الثورة الفرنسية وبداية الانتفاضات الكبرى، والتمرد على السلطة التقليدية في مسائل الدين والسياسة. وأول من استعمل كلمة التسامح هو المصلح البروتستانتي «مارتن لوثر» عندما ربط التسامح بحرية المعتقد، وإذا كان مفهوم التسامح قد بدا ذا طابع ديني في القرنين السادس عشر والثامن عشر، فمع تطور المجتمع وما طرأ عليه من تغيرات سياسية وفكرية وثقافية، اتسع المجال ليشمل التسامح الديني كافة أشكال الاختلافات الأخرى.

وثمة ملاحظة أن الطبيعة الأخلاقية للتسامح لا تتطلب من الفرد أن يخفف من إيمانه أو معتقداته، ولكنها تتطلب احترامًا لاعتقاد الآخر، والتجانس مع الاختلاف، وهو يزداد مع المعرفة والتفاعل مع ثقافات أخرى. والمادة المثلية في موضوع التسامح قليلة نسبيًا، ومن الأمثال التي أتيح الاطلاع عليها: «**أهل السماح مِلاح**»، والشخص المليح هو الشخص الجميل، «**المسامح كريم**»، فمن الكرم أن تسامح وتعفو إلا في الحقوق فيكون التسامح بعد استردادها، «**فوت كلمة تفوتك ألف**»، «**خُد لك من كل بلد صاحب ولا تاخد من كل إقليم عدو**»، «**هي الشتيمة بتلذق**»، «**يا بخت من بات له ولا باتش عليه**»، «**صبح ولا تقبح والمسامح كريم**».

وأكثر ما يستخدم مفهوم التسامح في مجال الآراء والأفكار بوصفه موقفًا يقر بحق الآخر في حرية الاختلاف الفكري، على اعتبار أن حرية الفكر في أوسع معانيها صميم موطن الحرية البشرية، والتي لا يجوز المساس بها طالما أنه لا يترتب عليها ضررًا لأحد، وموقفًا يقر في الوقت ذاته بقيمة الحوار ومناقشة الآراء بوصف الرأي مهما بلغ صوابه لابد وأن تمحصه المناقشة وإلا غدا عقيدة ميتة.

ومن الخطأ أن يقتصر استخدام المصطلح على مجال التباين الفكري فقط بل لابد أن يتسع ليغطي التباينات الأخرى. أي يكون التسامح هو القبول والتعايش مع الآخر المختلف بما هو إنسان وليس بما هو ينتسب إلى جماعة مغايرة، وإيمانًا بأن التنوع طبيعي ومنطقي بل وضروري. وباختصار: أن نحيا نحن والآخرون على اختلافنا في عالم واحد يضمنا (هاني الجزار، ٢٠٠٩، ٢٣).

وعلى النقيض الآخر من التسامح نجد التعصب، والتعصب هو دجماطيقية الرأي والإصرار عليه بلا مناقشة «**حد الله بيني وبينك**»، «**مخلوش للصلح مطرح**»، وهو بحق وصمة في جبين الإنسانية، فالتعصب ضد الإنسانية بما ينبغي أن تقوم على الحب والتعاون والتسامح. وهو يتضمن عنصرين: أحدهما إيجابي، والآخر سلبي.

والعنصر الإيجابي هو اعتقاد المرء أن الفئة التي ينتمي إليها سواء كانت قبيلة أو وطنًا أو مذهبًا فكريًا أو دينيًا هي أسمى وأرفع من بقية الفئات، والعنصر السلبي هو اعتقاده أن تلك الفئات الأخرى أحط من تلك التي ينتمي إليها (فؤاد زكريا، ١٩٧١،

٥). وما من شك في أن التعصب في حدوده القصوى يخلق صعوبات اجتماعية ونفسية تعوق النمو النفسي للفرد، وقد تدفعه للاضطراب، وقد اهتم معظم علماء النفس الاجتماعي بإبراز هذا الجانب، وأجمعوا على أن هناك اتفاقًا يكاد يكون عامًا، وهو أن صاحب الشخصية التعصبية هو نفسه صاحب الشخصية المضطربة، وأن أسباب التعصب تكمن في اضطراب الشخصية (أحمد زايد، ٢٠٠٦، ٦١).

فالتعصب ينشأ من المبالغة والإسراف والتهويل وعدم الاعتدال والتدبر في التصرفات وأخذ الأمور على أعنتها، حتى أن الأمثال جاءت ساخرة من ذلك، وهاهو المثل يقول: «**يعمل من الحبة قبة**»، ويقول آخر «**عايز جنازة ويشبع فيها لطم**»، وعن المبالغة في الأمور يقول «**تفانينو عجب**»، «**قطه جمل**»، وعندما تحاول إرضاء أحدهم تجده «**ما يعجبوش العجب والا الصيام في رجب**»، فالمثل قد فضح نفسيته عندما قال «**يا قنديلين وشمعة يا في الضلمة جمعة**».

وقد حاولت الأمثال مخاطبة هؤلاء بالاعتدال في كل شيء فقالت: «**خير الأمور الوسط**»، «**لا تشد ولا ترخي**»، «**إمسك العصايا من النص**»، «**اللي يدق يتعب**» فالتعصب ينشأ عن اضطرابات لا شعورية، ويؤدي وظيفة نفسية تتلخص في التنفيس عما يختلج في النفس من كراهية وعدوان مكبوت، وذلك عن طريق عمليتي النقل والإبدال، دفاعًا عن الذات وعمَّن تحبه، فالمتعصب يجني في موقفه كسبًا، ولكنه كسب وهمي يفّوت على صاحبه فرصة حل إشكاله حلًا واقعيًا (مصطفى زيور، ب.ت، ١١٩). وعند تحليل التعصب نتبين أننا نسقط عدوانيتنا على الجماعة الخارجية، بل ونسقط عليها كل ما هو سيء في أنفسنا. فمن المعروف سيكولوجيًا أن الفرد يكره في غيره مالا يرغب أن يواجهه في نفسه، أي أن الإسقاط ملازم للتعصب.

# الشجاعة والجُبن

**«ضرب الطوب ولا الهروب»**
**«الجري نص الجدعنة»**

الشجاعة هي الإرادة التي تصاحبها عين منفتحة نحو أهداف عظيمة ليس من السهل تحقيقها. وهي صفة معتدلة بين التهور والجبن، ويجب أن تكون تحت سيطرة العقل وإلا أصبحت تهورًا «**الفار المدفلق من نصيب القط**»، والمدفلق هو المتهور، كما أنها ليس لها علاقة بحجم البدن أو الجنس. وهي خلق وفضيلة محببة عند الشعوب إذا تم العمل به لنصرة الحق.

والشجاعة هي الجسارة والإقدام Valor and Brevity أي اتخاذ المخاطرة وعدم التراجع أمام التحديات والصعوبات، والقدرة على مواجهة مواقف عقلية ووجدانية صعبة. فالشخص الشجاع يستطيع أن يفصل بين الشق الوجداني والشق السلوكي في الخوف والتردد، وقد ضرب المثل في الشخص الشجاع الذي يقبل على المخاطر فقال: «**إللي يطلع للبلح يا ينزل يا يقع يموت**». والشجاعة لا تعتمد على الخوف وعدمه، إنما تعتمد على ضبط النفس، إذ ليس بالمحمود أن يتجرد الإنسان من كل خوف، فقد يكون الخوف فضيلة وعدمه رذيلة، ويكون الجبن المذموم والخوف المرذول أن يبالغ الإنسان في الخوف.

والشجاعة عكس الجبن كما تقدم، فالجبن صفة مذمومة، بينما الشجاعة صفة محمودة، لذلك يحذر المثل ويقول: «**الإيد اللي تتمد ولا تضربش تستاهل قطعها**»،

وأيضًا «**ضرب الطوب ولا الهروب**»، ويقول مثل آخر في الجبن: «**الكلب في بيته سبع**» وفي الجبن يقول القائل:

وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا

ولقد أورد البخاري في كتاب الجهاد والسير، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس وأجود الناس، ولقد فزع أهل المدينة فكان النبي ﷺ سبقهم على فرس، وقال: وجدناه بحرًا (أي واسع الجري). أما في الجهاد فكانوا يحتمون بالنبي ﷺ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ وهو من أبطال الأمة وشجعانها ـ قال: إنا كنا إذا اشتد بنا البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو[1].

ألم تسمع المثل يقول: «**عند الطعن يبان الفارس من الجبان**». وعن مثل هذا القلب الشجاع يقول المثل: «**الرَّحى ما تدور إلا على قلب حديد**»، في إشارة إلى قلب الرحى التي تطحن الغلال ودورانها على محور من الحديد، فكان تشبيه قلب الشجاع بقلب الرحى وهو الحديد، ويقول مثل آخر «**الزناد الصلب يولع من قدحه**». ولسان حال الشخص الموصوف بالشجاعة ينطق بالمثل: «**أبقى سقَّا وترش عليَّ المية؟**» أي أنني متعود على هذا الماء فلا يضرني رشه، ويؤيده المثل القائل: «**أشجع من عنترة**».

(١) رواه أحمد والطبراني والنسائي.

## التعاون

**«لا إيد لوحدها تسقف ولا فرد يكيد عزول»**

التعاون هو العمل سويًا بغية تحقيق غايات عامة مشتركة، وهو من العمليات الاجتماعية المهمة في استقرار المجتمع وإرساء العلاقات بين الأفراد. وتقاس قوة الجماعة وسلامة بنيانها ودقة نظمها بمقدار تعاون أفرادها، فالناس لا تستطيع أن تجتمع بدون تعاون من أجل السعي وراء المصالح المشتركة. يقول تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

وعلى مستوى المؤسسات والأفراد فإن التعاون كلما زاد زادت الإنجازات، ومن أعان شخصًا في شيء كان حقًا على الآخر أن يعينه فيما هو أعظم منه، والمثل يقول في ذلك «**إشهد لي بكحكة أشهد لك برغيف**»، ويقول مثل آخر «**إللي ما هو قارط رابط**» أي أن الكل في تكاتف وتعاون مستمر حتى لو بدى لك غير ذلك، فالذي تراه لا يعمل في الحقل أي لا يقرط، فهو مستريح بعد أن أنجز عمله.

بل إن التعاون يساعد على تخفيف الحمل «**إن اتفرقت الحملة انشالت**»، فالتعاون المثمر بين الشخص ومن حوله يجعله يختصر الكثير من الجهد والوقت في سبيل تحقيق الأهداف واختصار الوقت. ويجب إعانة الآخر على عمله وتشجيعه «**إن جاك القرد راقص طبله**» أي أعنه على عمله، ومهما كان العمل بسيطًا فإن التعاون على إنجازه أفضل كثيرًا من إنجاز الفرد له بمفرده، وهنا يقول المثل «**إن كانت البيضة لها ودنين يشيلوها اتنين**» أي أن العمل مهما صغر حجمه وجب التعاون في تنفيذه، وللمثل وجه آخر: «**القفة ام ودنين يشيلوها اتنين**»، ألم يقل المثل: «**إيد على إيد تكيد**»،

ويقول الآخر «**إيد على إيد ترمي بعيد**»، وعلى العكس من ذلك تمامًا «**إيد واحدة ما تسقفش**»، ويقول آخر: «**لا إيد لوحدها تسقف ولا فرد يكيد عزول**».

ويمكن تشبيه ذلك بالذرات حين تلتقي فيحدث بينها تفاعل ورد فعل، وكما تؤدي الجاذبية بين الذرات إلى جوامد متماسكة، تغدو التبادلية بين الأفراد والجماعات أداة للتعاون والتماسك في الكيان المجتمعي. ويتوقف مدى التعاون على مدى ما يُسهم به كل فرد أو جماعة، وكلما زاد ما يسهمون به زادت عوائد ما يسترده كل منهم، وهذا النمط أو التوجه العام هو الذي يضمن بقاء المجتمع ونماءه. وعلى العكس من ذلك إذا حدث خلل في التفاعل بين الذرات المجتمعية وعلاقاتها، فيبرز الصراع بين الطبقات، ومظاهر العنصرية، وتطغى المصالح الخاصة، وأساليب الغش والسرقات (مارك بوكانان، ٢٠١٠، ٨-٩).

يقول معن بن زائدة:

كونوا جميعًا يا بني إذا اعترى خطب ولا تتفرقوا أفرادًا

تأبى العِصيُّ إذا اجتمعن تكسُّرًا وإذا افترقن تكسرت آحادا

ومن الصعب أن ينجح فريق في العمل والإنجاز وهم لا يتصفون بالتعاون، وبعضهم تأتي إليه ليعينك على شيء تجده يحتاج منك إعانة «**جبتك يا عبد المعين تعيني لقيتك يا عبد المعين تنعان**»، وهو يضرب لمن تظن به النجدة وهو محتاج إليها. ولا يشترط أن يتعاون أفراد من جنس واحد أو من طبقة واحدة وغير ذلك، فالحائط يقوم على قالب من الطوب «**رك الحيطة على قالب**».

ويحذرنا المثل من التباطؤ عن التعاون مع الآخر فيقول «**الشبعان يفت للجعان فت بِطِي**» أي أن الشبعان لا يستشعر ما بالجوعان فيتباطأ في معاونته، وعمومًا فالناس تحتاج إلى بعضها البعض في التعاون على الحياة «**الناس بالناس والكل على الله**». وأختم بالحديث الشريف الذي رواه الإمام مسلم أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا».

## العدل والظلم

**«جور القط ولا عدل الفار»**

ليس هنالك في سياسة المجتمعات من سبيل لإقامة حياة آمنة زاهرة إلا أن تقوم على أساس من العدل، والعدل المطلق، الذي ترفرف رايته على جميع أفراد المجتمع بكل طوائفه دون تفرقة بين إنسان وآخر أو طائفة وأخرى.. حينئذ ينطلق الجميع إلى النهوض بواجباتهم وهم مطمئنون على حقوقهم؛ لأن الإحساس بالعدل هو خير ظهير لانبعاث قوى النفس وطاقاتها؛ لأنه يمثل الأمن النفسي في باطن أي إنسان، ولذلك قال النبي ﷺ «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد»[1].

العدل لغة التسوية، فالعدل بين الناس التسوية بينهم، وهو غاية أصحاب الرسالات السماوية، وهدف الشرائع والقوانين، وأساس الحكم وضمان الأمان. يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ (سورة النحل، ٩٠) والعدل يكون لكل الناس، فهو ليس قاصرًا على فئة دون فئة، ولا يوالي القريب دون البعيد، ذلك لأنه عدل الله رب كل الأجناس والألوان. روى البخاري ومسلم في صحيحيهما أن ابنة النضر أخت الربيع، لطمت جارية فكسرت سنها، فاختصموا إلى النبي ﷺ فأمر بالقصاص، فقالت أم الربيع: يا رسول الله: أتقتص من فلانة؟ لا والله! فقال: سبحان الله يا أم اربيع!! كتاب الله القصاص.

(١) رواه الشيخان.

والعدل لا يعرف الميل في الحكم للنفس أو الأهل أو الأقارب، لا يفرق بين العدو والصديق. ولم يقف الإسلام عند حد العدل فقط، وإنما طلب بعد العدل الإحسان، والإحسان يسمو فوق العدل؛ لأنه إذا كان العدل يعني التوازن بين الأخذ والعطاء، فإن الإحسان يسمو فوق العدل في المعاملة، والمحسن هو من أفاض من إنسانيته على غيره دون انتظار جزاء منه.

هذه العدالة شاملة كل المجالات والعلاقات بين الناس، العدل في الأقوال ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ (سورة الأنعام، ١٥٢) العدل في الأحكام ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ (النساء، ٥٨) العدل مع العدو والصديق، والقوي والضعيف، ولا يحملنكم كراهية جماعة أن تظلموهم أو تحيفوا على حقوقهم ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة، ٨) وقد أقام الإسلام دولته على العدالة بين كل رعاياه دون تمييز بين المسلم وغير المسلم، وكل دعوة إلى إقرار العدل كمعيار للتعامل بين الأمم واعتباره دستور العلاقات هو أمر يدعو إليه الإسلام ويعمل على تحقيقه، يشهد لذلك ما روي عن رسول الله ﷺ أنه حضر حلفًا في صدر شبابه لبعض أشراف قريش عقد في دار «عبد الله بن جدعان»، تعاقدوا فيه لينصرن الضعيف على القوي، وقال عنه رسول الله ﷺ «لقد شهدت في دار «عبد الله بن جدعان» حلفًا لو دعيت به في الإسلام لأجبت، تحالفوا أن ترد الفضل على أهلها وألا يقهر ظالم مظلومًا»[1]. بل استمع إلى قول الإمام علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وهو يقول: الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه.

لقد كانت العدالة تحتل جانبًا هامًا على المستويات العليا والدنيا، وليس أدل على ذلك من تطبيق رسول الله ﷺ ذلك على نفسه، إذ يروى عنه أنه خرج أثناء مرضه الذي قبض فيه ﷺ بين الفضل بن عباس وعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما، حتى جلس على المنبر ثم قال: «أيها الناس: من كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضًا فهذا عرضي فليستقد منه، ومن أخذت له مالًا فهذا

(١) أنظر: الروض الأنف، والفتح الكبير للسيوطي.

مالي فليأخذ منه، ولا يخشى الشحناء من قبلي، فإنها ليست من شأني، أحبكم إليَّ من أخذ مني حقًا إن كان له أو حللني فلقيت ربي وأنا طيب النفس». أليس ما فعله النبي ﷺ هو ما نطق به المثل القائل: «**من ساواك بنفسه ما ظلمك**»؟

وحتى تتحقق العدالة يجب أن يكون بناء الدولة قائمًا على العدل وتحريم الظلم، وأن يجري قضاؤها وفق الحق، وإن لم تكن الدولة الإسلامية سباقة على غيرها في هذا المضمار تكون قد انحرفت عن الشريعة الإسلامية، وقد نبه ابن تيمية على ذلك بقوله: «إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام»[(١)].

ومفهوم العدل دائمًا يرتبط بالقصاص سواء في النصوص الدينية أو الأعراف والتقاليد، تجد ذلك في سفر التثنية «نَفْسٌ بِنَفْسٍ. عَيْنٌ بِعَيْنٍ. سِنٌّ بِسِنٍّ. يَدٌ بِيَدٍ. رِجْلٌ بِرِجْل»[(٢)]. وفي القرآن الكريم: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ (سورة المائدة، ٤٥). فالناس سواسية كأسنان المشط، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وهذا الحديث يفسر قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ (سورة الحجرات: ١٣)، والأفضلية هنا في الكرامة للمتقين فقط، بينما ساوى جل شأنه بين عباده المؤمنين والكافرين في المكرمة بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (سورة الإسراء، ٧٠).

يقول شوقي:

فالله فوق العرش جل جلاله والناس تحت لوائه أكفاء
والدين يسر والخلافة بيعة والأمر شورى والحقوق قضاء

وعند المصريين القدماء نجد بتاح حتب عندما شعر بتقدمه في السن ينصح ابنه

(١) أنظر: رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص٤٢.
(٢) سفر التثنية ١٩: ٢١.

قائلًا: حصل الأخلاق وارعى الحق واعمل على نشر العدالة وعامل الجميع بصدق. ويؤكد مرارا أن أعظم فضيلة يتحلى بها الإنسان في الحياة هي العدالة والخلق العظيم؛ لأنها باقية وذكراها لا تزول (محرم كمال، ١٩٩٨، ١٠).

وقد كان قدماء الرومانيين يمثلون آلهة العدل بامرأة معصوبة العينين، ممسكة ميزانًا ذا كفتين بإحدى يديها، وسيفًا باليد الأخرى، ويرمزون بعصب عينيها إلى أن العادل ينبغي أن يعمى عن الاعتبارات التي تجعله يتحيز من غير حق، وبالميزان إلى أنه يجب أن يزن لكل إنسان حقه بالقسط، وبالسيف إلى أنه يجب أن يلجأ إلى القوة في تحقيق العدل عند الحاجة إليها.

والناس بفطرتها تميل إلى العدل وتبغض الظلم «**إمسك الباطل لما يجيك الحق**»، وذلك لأن «**الباطل مالوش رجلين**»، ولكن لابد من السعي والمجاهدة لكي تحصل على حقك عدلًا وليس ظلمًا حتى وإن كنت لست في حاجة إليه «**بيَّن حقك واتركه**»، ويقول مثل آخر: «**الحق اللي وراه مطالب ما يموتش**»، وكذلك «**الحق نطاح**»، وعندما يجور أحدهم فيخاطبه المثل قائلًا: «**شرع الله عند غيرك**»؛ لأن شرع الله عدل والعدل والظلم نقيضان لا يجتمعان، وفي حالة أن يكون الشخص صاحب حق حقًا فإن «**صاحب الحق عينه قوية**»، على الرغم من أن البعض من أصحاب النفوس غير السوية لا يميلون لقول الحق حتى وإن تسبب ذلك في إيذاء الآخرين بل إنهم يتلذذون بذلك في سادية شموس، أو أنهم أصحاب منافع من وراء ذلك فما كان من المثل إلا فضح نفوسهم قائلًا: «**كلمة الحق تقف في الزور**»، بينما في حالة التردد يقول أحدهم: «عاوز الحق والا ابن عمه»؛ لأن «**الشهادة عقبة**».

ومع ذلك هناك من يرضى بالظلم في ماسوشية واضحة فتجده يقول: «**إن ابتليت بظالم جاريه**»، ويقول آخر: «**جور القط ولا عدل الفار**»، وللمثل وجه آخر يقول: «**جور الغُز ولا عدل العرب**»، والمقصود بالغُز كما يقول احمد تيمور في أمثاله العامية أنهم الترك الذين كانوا يحكمون مصر، وهو من الأدلة على ما وقر في نفوس أهل مصر من إكبار حكامهم والتملق لهم.. وفي هذا الصدد يقول الكواكبي أن الأمة إذا ضربت عليها الذلة والمسكنة وتوالت على ذلك القرون والبطون، تصير سافلة

الطباع، حتى أنها تصير كالبهائم أو دونها لا تسأل عن الحرية، ولا تلتمس العدالة، ولا تعرف للاستقلال قيمة (عبد الرحمن الكواكبي، ٢٠١٤، ١٢). حتى أن البعض يقر ما يفعله الظالم على اعتبار «**من حكم في ملكه ما ظلم**».

ويروي لنا أحمد أمين في قاموس العادات والتقاليد (٢٠١٣، ٣٣) قصة المثل القائل: «**آخر خدمة الغُز علقة**» ـ الغُز هم طائفة من الأتراك يمتازون بالترفع والتكبر وحب السلطة، ويطلقون على المصريين إسم «فلاحين» مقرونة بالازدراء ـ فيقول: أخبرني صديق من أبناء الأتراك قائلًا: خرج والدي ذات يوم بموكب كالمعتاد، وأراد أن يريني سلطانه، فنظر إلى اليسار وكنا نسير على النيل فرأى أحد الفلاحين يركب ذهبية جديدة يجرها أربعة من الفلاحين بالحبال، فصاح أبي في الفلاحين أن قفوا، وأمرهم أن يجروا الذهبية إلى البر ففعلوا، ورأى الغني هذا المنظر فنزل وجاء إلى أبي، فقال له أبي: متى كان الفلاح يركب ذهبية جديدة؟ ودار الحوار التالي:

**الغني**: مراحمكم وعدلكم ومراحم أفندينا خديوي مصر وعدله جعلتنا نستريح ونطمئن، ودا خير يفرحكم وخير يسركم.

**والدي**: لكن كيف يجوز للفلاحين أن يتشبهوا بأسيادهم ويركبوا الذهبيات؟

**الفلاح**: الحمد لله إحنا بنجري ونلعب على حسكم وفي ظلكم وظل أفندينا، والعبد وما ملكت يدا لمولاه فأنا عبدكم وعبد أفندينا والذهبية ملككم وملك أفندينا.

**والدي**: أنا أقول لك كيف تجاسرت وتشبهت بأسيادك وركبت ذهبية؟

**الفلاح**: أستغفر الله العظيم أن أكون أريد التشبه بكم.

**والدي**: إذا كنت لا تريد التشبه بنا فلماذا اشتريت الذهبية وركبتها في البحر كأنك من أسياد البلد؟ وتريد أن يشاهدك الفلاحون ويقولون ده له شأن ومقام.

**الفلاح**: يا سيدي إن كان لي مقام فهو بفضلكم أنتم وأفندينا.

**والدي**: الفلاح من نسل فرعون، وفي المثل: يافرعون إيه فرعنك قال مالقيتش حد يردني.

**الفلاح**: أستغفر الله إن كنتم ترون أن في ذلك عيبًا فإني أُشهد الله وسوله أن لا أعود لركوبها أبدًا، وتبت إلى الله على يديك.

**والدي**: توبتك مقبولة، ولكن يلزمها تفكيرة.

**الفلاح**: لا ورأسك ورأس أفندينا ما أنساها أبدًا.

**والدي**: لا لا لا بد من تفكيرة ولو صغيرة... ياولد حضر الخدامون.

**والدي**: اربطوه من ذراعيه وهاتوا النسوة اللي بيملوا البلاليص دول، وخليهم يرشوا الأرض حتى تصير وحلة، واسحبوه فوق الوحل ذهابًا وإيابًا ليعرف أولًا قيمة الثياب التي يلبسها، ففعلوا ذلك، وأمر بضربه علقة، حتى سال الدم من رجليه وركبتيه وظهره، وقال له والدي: إن شاء الله ماتنساش.

إنهم ضعفاء فكان الظلم من نصيبهم لأن الظلم «**زي الدبان يعف على الضعيف**»، وكذلك «**الحيطة الواطية كل الناس تنط عليها**»، وهم يشاركون بصمتهم «**الساكت في الحق زي الناطق في الباطل**»، والبعض ينقم على الظلم وأهله ولكنه لا يستطيع فعل شيء سوى التمني حتى أنه يعتبر «**نوم الظالم عبادة**»، ويقول في حقه: «**ربنا ما يملِّك القحف عدله**»، ويتمنى لظلمه الزوال ويحلم بخراب بيت الظالم فيقول: «**بيت الظالم خراب**». لقد كثر الظلم وتعددت أوجهه حتى وصل الأمر إلى السجون وهم كثر «**ياما في الحبس مظاليم**».

وربما تنال الحرية عفوًا فلا يستفيد منها شيئًا لأنه لا يعرف طعمها ولا يهتم بحفظها فتنقلب الحرية فوضى ويقول لهم المثل حينئذ: «**اللي ما يرضى بحكم موسى يرضى بحكم فرعون**».

# الحياء والخجل

**«اللي يستحي من بنت عمه ما يجبش منها عيال»**

الحياء من أجمع شعب الإيمان، فإذا اتصف الإنسان بالحياء من الله الذي يراه ويسمعه ويعلم ما يكنه ضميره فعل جميع الواجبات والمستحبات وترك المحرمات والمكروهات، وإذا استحيا من الناس لم يواجههم بما يكرهون مما يخل بالدين والأدب والشرف والمروءة، وإذا استحيا من نفسه حاسبها، فالحياء انقباض النفس عن القبائح، وهو من خصائص الإنسان.

والخير والشر معان كامنة في النفوس تعرف بسمات دالة عليها؛ فسمة الخير الحياء وسمة الشر البذاء، وكفى بالحياء خيرًا أن يكون على الخير دليلًا، وكفى بالبذاء شرًّا أن يكون إلى الشر سبيلًا، وفي الحديث الذي رواه أحمد والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة؛ والبذاءة من الجفاء والجفاء في النار". وقال بعض الحكماء: من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه، وقال بعض البلغاء: حياة الوجه بحيائه كما أن حياة الغرس بمائه، وليس لمن سلب الحياء صاد عن قبيح ولا زاجر عن محظور فهو يقدم على ما يشاء ويأتي ما يهوى، كما قال النبي ﷺ "إذا لم تستح فاصنع ما شئت" رواه البخاري. ويوافقه المثل: «**اللي ما يستحي يفعل ما يشتهي**»، وكما قال الشاعر:

إذا لم تصن عرضًا ولم تخش خالقًا وتستحي مخلوقًا فما شئت فاصنع

والحياء في الإنسان قد يكون من ثلاثة أوجه:

١. حياؤه من الله تعالى.

٢. حياؤه من الناس.

٣. حياؤه من نفسه.

فمن استحيا من الناس ولم يستح من نفسه فنفسه عنده أخس من غيره، ومن استحيا منها ولم يستح من الله عز وجل فلعدم معرفته به وإيمانه باطلاعه عليه، فإن الإنسان ليستحي ممن يعظمه ويعلم أنه يراه ويسمع نجواه، ومن لا يعرف الله فكيف يعظمه ويعلم أنه مطلع عليه؟ وفي قوله تعالى: «**أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى**» تنبيه على أن العبد إذا علم أن ربه يراه استحيا من ارتكاب الذنب، والحياء من الله تعالى يكون بامتثال أوامره واجتناب نواهيه. روى ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «استحيوا من الله حق الحياء» قالوا: إنا نستحي من الله يا نبي الله والحمد لله، قال: «ليس ذلك ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلاء، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء». رواه أحمد والترمذي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير» متفق عليه. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» متفق عليه.

يقول محمد بن عبد الله البغدادي:

إذا قل ماء الوجه قل حياؤه ... فلا خير في وجه إذا قل ماؤه

حياءك فاحفظه عليك فإنما ... يدل على وجه الكريم حياؤه

ويمكنك أن تؤثر الآخرين بكرمك فيستحون منك لما يلاقونه من كرمك، ولذلك يقول المثل: «**إطعم الفم تستحي العين**»، تجده دائمًا ينزل على حكمك، ولا يرفع عينه فيك لأنه يعتبرك صاحب فضل عليه، ولذلك يدعوه المثل قائلا: «**أكلة واتحسبت عليك كل وبحلق عنيك**»، شبعت من الطعام أو لم تشبع فقد حسبت عليك، فاترك

الحياء جانبًا، وهو مخالف لأداب الطعام، وإن كان المثل يضرب للشخص الذي يتورط في الأمر ثم يتعفف عنه.

وعندما يتحدث الفرد مع شخص آخر فإنه يوزع انتباهه على عدد من الأشياء. فهو يستمع لما يقوله الطرف الآخر، ويلتقط ما يقوم به من إشارات غير لفظية. فهو يحاول هنا أن يضفي معنى على ما يحدث ويفهم جيدًا ما يقول وما يقال له، والهدف من الحديث. إنه يخطط لما يمكن أن يقوله، ومتى وكيف ينطق بما يريد، وكيف يعدل من كلامه ليتناسب مع مجريات الحديث، ويقدر أثر ما يقوله على الطرف الآخر...الخ.

والفرد وهو يقوم بكل ذلك لا يكون شاعرًا تمامًا بذاته أو واضعًا إياها تحت المراقبة الشديدة المباشرة، ولكن إذا كان هذا الفرد خجولًا فإن جزءا من انتباهه يكون مركزًا على ذاته، «**اسود وشه**» وهو مما يؤدي إلى انخفاض حجم الانتباه الذي يخصصه للجوانب الأخرى في موقف المحادثة، ومن ثم يحدث الاضطراب ونقص التركيز، «**بقيت في نص هدومي**».

وتشير نتائج الدراسات إلى أن الأشخاص القلقين اجتماعيًا لديهم أساليب خاصة لمواجهة المواقف الاجتماعية، هي بمنزلة استراتيجيات يعتمدون عليها، إما في تجنب أو تحاشي تلك المواقف وما تمثله لهم من تهديد، أو في الهروب منها. «**داري يا سترة عاري**»، «**يا حيط داريني**»، وتبدو تلك الاستراتيجيات ناجحة في المدى القصير، ولكنها سيئة للغاية في المدى الطويل، وذلك لأنها تحرم الفرد مما يمكن أن يحصل عليه من دعم وتشجيع من يتعامل معهم، وتحرمه كذلك من فرص اكتساب الخبرات والتصرف بأساليب أكثر فاعلية (راي كروزير، ٢٠٠٩، ٨١).

هذا الشخص يشعر بالتوتر والضيق لوجوده في وسط جماعة من الأفراد، ويكره أن تسلط عليه الأضواء، أو يكون موضع ملاحظة الآخرين واهتمامهم، أو يشعر بالتردد والخوف إذا كان بصدد مقابلة شخص يراه ولم يسبق له التعامل معه، وعادة ما يسلك مسلكًا دفاعيًا، إذ ينأى بذاته عن مواقف التفاعل الاجتماعي والتواصل مع الآخرين، ويكره أن يعبر عن آرائه وأن يبدي اختلافه مع آراء الآخرين، ويحرص دائمًا على أن يكون في خلفية الصورة بعيدًا عن الآخرين.

لقد تعددت أعراض الخجل ومظاهره، ومع ذلك تجمع بينها زملة أعراض تختلف نسبيتها من فرد إلى آخر ومن مستوى إلى آخر ومن مثير إلى آخر، ومن هذه الأعراض: أعراض فسيولوجية Physiological symptoms وهي تتمثل في شحوب لون الوجه، وارتعاش الأطراف، واحمرار الوجه، وجفاف الحلق، وخفقان القلب. وأعراض اجتماعية Social symptoms مثل ضعف القدرة على التفاعل أو التواصل، البقاء في خلفية المواقف الاجتماعية، تفضيل الوحدة، الرغبة في الانسحاب. وأعراض انفعالية وجدانية Emotional symptoms مثل التوتر والخوف والضيق والارتباك، كثرة الابتسام، انخفاض الصوت، البكاء أحيانًا. وأعراض معرفية Cognitive symptoms مثل قلة التركيز، و تداخل الأفكار، والتشتت أثناء الحديث.

فالخجل إذًا حالة انفعالية تتسم بعدم الارتياح والتحرج والكف في وجود الآخرين، حيث يعاني الشخص الخجول من قلق مفرط وأفكار سلبية نحو الذات، ومن هنا فإن الخجل ليس هو الحياء، بل الصورة المرضية للحياء، فالخجل إفراط في الحياء إلى حد الاضطراب، والأمثال دعت إلى عدم الخجل وضرورة التخلص منه، حتى أنها أشارت إلى أن الخجل لا يقيم أسرة «**اللي يستحي من بنت عمه ما يجبش منها عيال**»، والمقصود بالحياء هنا في المثل هو الخجل لأن الحياء صفة محمودة على العكس من الخجل كصفة مذمومة، ولذلك تدور الأمثال التي تحدثنا عن الخجل بلفظ الحياء وليس هو المقصود، على اعتبار أن الخجل هو الإفراط في الحياء كما تبين، ولذلك يقول المثل: «**الحيا في الرجال يورث الفقر**»، فإذا كان الحياء فضيلة أقرها القرآن الكريم والسنة النبوية، كما أقرتها البحوث العلمية المختلفة، فإن الحياء في المثل السابق والذي يورث الفقر يكون هو الحياء الشديد أي الخجل.

لقد بينت الدراسات أن الخجل يؤثر في التوافق النفسي والاجتماعي للأفراد، ويعرقل التواصل البناء فيما بينهم إذا وصل إلى درجات مرتفعة تعوق الإنسان في تعبيره عن ذاته أمام الآخرين وتفقده ثقته بنفسه، وهنا يقدم المثل الحل فيقول: «**اللي يزمر ما يغطيش دقنه**»، بل وتحثنا الأمثال على أن يكون الحياء في موضعه وإلا أصبح ضررًا على صاحبه، استع إلى المثل القائل: «**العين بعد ما تبقى ميه تبقى حجر**»، وله وجه آخر يقول: «**العين لما تقوى تبقى حجر**»، أي أن العين كالماء في سهولته، وعند

اللزوم تكون كالحجر في صلابته، والمثل يستعمل في حق الشخص صاحب الحياء إذا اضطرته الظروف أن يتخلى عن حيائه لعدم ضياع حقوقه في حال أن يستغل أحدهم حيائه لصالحه.

إن الشخص الذي يتنازل عن حياؤه لا يعنيه رأي الآخرين فيه، بل تجده يجاهر بقلة الحياء لأن الأمور بالنسبة له سواء، والمثل يقول عن لسانه: «**قالوا للمشنوق غطي رجليك قال ان رجعت عاتبوني**»، وله وجه آخر يقول: «**قالوا للمخوزق استحي قال اللي راجع الدنيا يبكي عليها**»، إلا أن البعض مازال يتمتع بحياؤه ويراعي شعور الآخرين حتى إذا بدا منه ما يدل على قلة الحياء تجده يردد المثل: «**يا أرض انشقي وابلعيني**».

# الفصل الثالث

# العبودية المختارة

# العبودية المختارة

**«اتوصوا بينا باللي حكمتونا إحنا عبيد وانتوا اشترتونا»**

فقيرة هي النفس التي تنظر إلى باطنها فتجد خواء، فتمتد إلى خارجها لتقتني ما يسد لها ذلك الخواء؛ وماذا تقتني؟ تتصيد أناسًا آخرين ذوي نفوس أخرى لتخضعهم لسلطانها! إنها علامة لا تخطئ في تمييز أصحاب النفوس الفقيرة من سواهم، فحيثما وجدت طاغية صغيرًا كان أم كبيرًا، فاعلم أن مصدر طغيانه هو فقر نفسه؛ إن المكتفي بنفسه لا يطغى؛ ومن يشعر في نفسه بثقة واطمئنان ليس في حاجة إلى دعامة من سواه؛ فماذا أقول؟ أقول إن الطغيان قد امتد بجذوره في ربوع الشرق لجدب في نفوس أهله؟ فالطغيان في دمائنا: الحاكم الشرقي طاغية، والرئيس الشرقي طاغية، والوالد الشرقي طاغية، والزوج الشرقي طاغية، طغاة هؤلاء جميعًا؛ لأن في نفوسهم هزالًا يعوضونه بمظاهر الاستبداد بسواهم[١].

ويستطرد الدكتور زكي نجيب محمود فيقول: العظمة في الشرق معناها الطغيان، والطغيان من معانيه كسر القوانين، فيستحيل أن يكون العظيم عظيمًا عندنا إن أطاع القانون، حتى لو كان هذا القانون من وضعه هو؛ لأن العبث بالقيود هي عندنا الحد الفاصل بين السيد والمسود. فقل لي إلى أي حد تستطيع في الشرق أن تعبث بالقانون والنظام، أقل لك في أي مرتبة أنت من مراتب المجتمع، فأعلاها منزلة أكثرها عبثًا، وأدناها أقلها.

---

(١) أنظر: زكي نجيب محمود. مقال بعنوان: نفوس فقيرة. مجلة القدس العربية.

فإذا كان الفرد مستبدًا فلأن الجماعة مستسلمة، وما أصدق المثل القائل: «**يا فرعون إيش فرعنك قال مالقيتش حد يردني**»، فليس هناك سلطة مستبدة دون جماعة مستسلمة، وبالمثل ليس هناك جماعة متحررة وتستطيع السلطة أن تفرض عليها القهر والاستسلام. يقول الوليد بن يزيد الأموي:

نحنُ المالِكُونَ النَّاسَ قَسرًا نَسُومهُمُ المذلةَ والنَّكَالا

ونورِدُهُم حِياضَ الخَسفِ ذُلا وما نالُوهُمُ إلا خِبَالا

وإذا كان الاستبداد هو عدم قبول المشورة في الشأن العام، فهو أيضًا معنى من معاني العبودية. والاستبداد يضرب بجذوره في تاريخ الإنسانية حتى أن عنوان هذا الفصل مستمد من مقالة كتبت في القرن السادس عشر الميلادي بعنوان: العبودية المختارة، وكاتبها هو «إيتيان دي لابويسيه»، وقام بترجمتها مصطفى صفوان، وهي تدور حول قبول العبودية طوعًا بأشكالها المختلفة. ومن الكتب العربية في ذلك الشأن «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» لعبد الرحمن الكواكبي.

ويوضح إمام عبد الفتاح (٢٠١٨، ٣٩١-٣٩٢) أن المستبد أو الطاغية هو شخص منحرف سادي يتجه نحو السيطرة على غيره وإيقاع الأذى به ليسد ما لديه من خواء نفسي، وأن السادية المتسلطة لا تفرض سيطرتها على شخص واحد، وإنما على مجموعة من الأشخاص، بل ربما على شعب بأكمله، وهنا يشعر الحاكم بلذة غريبة في إنزال ألوان من الألم والعذاب بمجموعة من الناس لإخافة بقية أفراد الشعب. فهذا هو فلاريس Phalaris طاغية مدينة أجريجنتم Agrigentum من أعمال صقلية، كان يشوي المساجين من أعدائه في مملكته بأن يضعهم داخل ثور نحاسي ضخم، ثم يوقد تحته نارًا هادئة، وتوضع قصبتان تشبهان المزمار في منخري الثور بطريقة فنية بارعة بحيث تتحول أنات المساجين وصرخاتهم حين تصل إلى أذنيه نغمات وألحان موسيقية.. تلك هي أعلى درجة من السادية: الاستمتاع بإيذاء الشعب وإيلامه.

وفي تراثنا يكتب ابن المقفع «رسالة الصحابة» كوسيلة نصح للخليفة أبي جعفر المنصور، وهو يقصد بالصحابة حاشية الخليفة وأعوانه، فكان الأمر بتقطيع جسد ابن المقفع شريحة بعد شريحة وإلقائها في النار أمام عينه، وفي النهاية تحرق بقيته دفعة واحدة.

ولقد كان «محمد علي باشا» يتمتع بسلطة لا حد لها، فهو يستطيع أن يقضي على أي فرد من رعاياه بالموت دون محاكمة، وكفاه أن يحرك يده حركة أفقية بسيطة ليتضمن ذلك حكم الإعدام (فرج احمد، ٢٠٠٧، إبراهيم شعلان، ٢٠٠٨).

ويحكي أبو حيان التوحيدي ما قاله الوزير بن سعدان: «قد والله ضاق صدري بالغيظ لما يبلغني عن العامة من خوضها في حديثنا، وذكرها أمورنا، وتتبعها لأسرارنا، وتنقيرها عن مكنون أحوالنا، ومكتوم شأننا، وما أدري ما أصنع بها، وإني لأهُمُّ في الوقت بعد الوقت بقطع ألسنة وأيد وأرجل وتنكيل شديد، لعل ذلك يطرح الهيبة ويحسم المادة ويقطع هذه العادة. ما لهم لا يقبلون على شئونهم المهمة، ومعايشهم النافعة، وفرائضهم الواجبة؟ ولما ينقبون عما ليس لهم، ويرجفون بما لا يجدي عليهم» (جابر عصفور، ٢٠٠٩، ٩٧).

ولذلك فالإنسان الذي يعيش بعيدًا عن مراكز السلطة يعيش في أمان، وقد قالوا في الأمثال: «**السلطان اللي ما يعرفش سلطان**». لقد أصبح الناس يخافون حتى من أقرب الناس إليهم «**اتكلم بإحسان احسن الحيطة لها ودان**». والحق أننا شركاء، بل صُناع حقيقيون إذ نؤيد ونساند ونبارك بأفعالنا، وبعدم الفعل بالصمت والتخاذل والامتناع عن كلمة الحق، إنها «الأنانالية» التي تصنع الجلادين، والطاعة العمياء التي تحدث عنها المثل: «**أنا أول المنطاعين وآخر العاصين**»، «**أنا عبد المأمور**»، «**حاكمك سيدك**»، وكأننا نبحث عن سبب خارجي لتبرئة الذات؛ لأن «**سيف السلطنة طويل**»، حتى تولد في النفوس الخنوع للحكام لدرجة أن البعض يعتبر إهانتهم له شرف وفخر، فيردد المثل: «**ضرب الحاكم شرف**».

والحق أن ثقافتنا الشعبية تعبر أصدق تعبير عن انعدام الوعي عند المواطن بحقوقه كإنسان أولًا، وحقوقه المدنية كمواطن ثانيًا، حتى أصبح من المألوف أن يُضرب ويُهان ويعتبر ذلك شرف!! بل إنه على استعداد تام للطاعة والانقياد حتى لو لكلب في قول المثل: «**إن كان لك عند الكلب حاجة قول له ياسيدي**». ويقول الشاعر:

ودارهـــم مـا دمـت فـي دارهـم ... وحـيَّـهـم مـا دمـت فـي حيَّهم

وأحـسـن الـعـشـرة مـع بعضهم ... يـعـيـنـك الـبـعـض عـلـى كلهم

ونتساءل: كيف استطاعت جذور إرادة العبودية أن تترسخ في نفوس المستبد بهم فتشلهم بحيث يعجزون حتى عن الرغبة في الخلاص من أغلالهم؟ ما الرذيلة التي استطاعت أن تمسخ طبيعة الإنسان، وهو وحده المولود حقيقة ليعيش حرًا، وأن تجعله ينسى ذكرى وجوده الأول وينسى الرغبة في استعادته؟ هل لأن الديمقراطية المعتدلة أصلح للعالم المسيحي، بينما الاستبداد أصلح ما يكون للعالم الإسلامي كما يقول مونتسكيو؟ أم لأن الهمج والبرابرة ومنهم شعوب الشرق لا يصلح لهم سوى الاستبداد والطغيان لأنهم خلقوا عبيدًا بطبيعتهم وأنهم يسعون إلى العبودية في شوق كما يقول أرسطو؟

إن الرد العلمي على ما كتبه مونتسكيو وأرسطو ما سطره عبد الرحمن الكواكبي في كتابه القيم: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، وهو يتحدث عن الاستبداد والتربية، فقال: إن الإنسان لا حد لغايته رقيًا وانحطاطًا، فإن يشأ الكمال يبلغ فيه إلى ما فوق مرتبة الملائكة، وإن شاء تلبَّس بالرذائل حتى أحط من الشياطين، على أن الإنسان أقرب للشر منه للخير. وكفى أن الله ما ذكر الإنسان في القرآن الكريم إلا وقرن اسمه بوصفٍ قبيح وهجاه، فقال جل شأنه: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ (سورة عبس، ١٧). ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ (سورة الحج، ٦٦). ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ (سورة العصر، ٢). ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ (سورة العلق، ٦).

والإنسان في نشأته كالغصن الرطب، فهو مستقيم لدن بطبعه، ولكنها أهواء التربية تميل به إلى يمين الخير أو شمال الشر، فإذا شبَّ يبس وبقي على ما تعود ما دام حيًا. ويخطئ والله من يظن أن أكثر أسراء الاستبداد لا سيما منهم الفقراء لا يشعرون بآلام الأسر، بل إنهم يشعرون ولكنهم لا يدركون ما هو سببها ومن أين جاءتهم؟ وربما ظن أن السلب حقًا طبيعيًا للأقوياء فيتمنى أن لو كان منهم.. ومنهم من يسلي نفسه بالسعادة الأخروية ويبعد عن أن الدنيا عنوان الآخرة وأنه ربما كان خاسرًا الصفقتين، فيعيش في ضيق وضغط، يهرول ما بين عتبة همَّ ووادي غمَّ، يودع سقمًا ويستقبل سقمًا إلى أن يفوز بنعمة الموت مضيعًا دنياه مع آخرته، فيموت غير آسف ولا مأسوف عليه. إنها العبودية التي تجد طريقها إلى الناس من مدخلين:

الإكراه والخداع، هذا في أول الأمر، لكن طول تعودهم على الاسترقاق، يجعلهم يقنعون بالعيش خانعين خاضعين إلى الدرجة التي يبدو لمن يراهم أنهم لم يخسروا حريتهم، بل كسبوا عبوديتهم.

وكما يقول الدكتور جمال حمدان في كتابه «شخصية مصر»: قد نجد الشعب المسكين المضلل (ولا نقول الخائف المروع) يتبادل مع قيادته العاجزة الفاشلة الباطشة غالبًا، وجلاده الغاشم الخائن أحيانًا أنخاب خداع النفس وعبادة الذات، الأول يتغابى عن عيوبه الجسيمة بل ويتغنى بها، والثاني يلهيه ويخدره عن استبداده وقهره أو خيانته وغدره بأحاديث المجد والوطنية... الخ.

وقد يشارك بعض زواحف الكتاب الانتهازيين والمأجورين والعلماء العملاء، فتمجد كل سلبياتنا، وتزين لنا العبودية للحاكم الغاشم (في الداخل) أو للعدو الغاصب (في الخارج) على الترتيب، وهنا يجد الناقد المثقف الوطني الحق نفسه محاصرًا بين قوسين من الإرهاب والترويع الفكري والجسدي من الحاكم المغتر من جهة، والشعب المقهور المغلوب على أمره من الجهة الأخرى.

وكانت حيلة الضعيف الانتظار حتى يأتي الله بأمر من عنده، ولسان حاله ينطق بالمثل: «**الأسد الميت ينتفوا له شنبه**»، ثم ينتظر التغيير أملًا في الآتي وتعويضًا عن ما مضى، فيحذره المثل القائل: «**ما تفرحش في موت ابوك قبل ما تشوف جوز امك**»، أو «**ما تفرحوش في اللي انعزل إلا لما تشوفوا اللي نزل**»، فالناس فقدت الثقة في السلطان بصفة عامة، والله أعلم بالآتي، ويخشون أن يكون أشد في معاملته من سابقه «**إللي ما يرضى بحكم موسى يرضى بحكم فرعون**»، فيطلبون منه الرحمة ويقولون: «**اتوصوا علينا يا للي حكمتوا جديد إحنا عبيدكم وانتم علينا سيد**»، وهذا المثل له رواية أخرى «**اتوصوا بينا ياللي حكمتونا إحنا عبيد وانتوا اشترتونا**»، فهل هذا مواطن يعيش في وطنه؟ أم عبد اشتراه الحاكم بعد الآخر؟. إن العبد ليس له في حياته سوى سيده ولا يفترق عنه إلا بالموت أو العتق «**يا يموت العبد يا يعتقه سيده**»، فإذا كان هذا هو حال طبقة العبيد فماذا يكون حال الأسياد؟ لقد لخص حالهم المثل القائل: «**العب مع العبد يوريك شقه**»، أي إذا تنازلت وتواضعت مع العبد يريك ما يسؤك،

حتى من ضاق بهم الحال من هؤلاء لا ينسى أنه سيد فيذكره المثل: «**مالقوش عيش ينتشوه جابوا عبد يلطشوه**». وعمومًا فالسلطة إفراز الجماهير، وفسادها من فساد جماهيرها، وصلاحها من صلاحهم.

يقول لابويسيه: إن هذا الذي يسودكم إلى هذا المدى ليس له إلا عينان ويدان وجسد واحد، ولا يملك شيئًا فوق ما يملكه أقلكم.. فأنَّى له بالعيون التي يتبصص بها عليكم إن لم تقرضوه إياها؟ وكيف له بالأكف التي بها يصفعكم إن لم يستمدها منكم؟ أنى له بالأقدام التي يدوسكم بها إن لم تكن من أقدامكم؟ كيف يقوى عليكم إن لم يقو بكم؟ كيف يجرؤ على مهاجمتكم لولا تواطؤكم معه؟ أي قدرة له عليكم إن لم تكونوا حماة للص الذي ينهبكم؟ شركاء للقاتل الذي يصرعكم، خونة لأنفسكم؟ تبذرون الحب ليُذريه، تؤثثون بيوتكم وتملأونها حتى تعظم سرقاته.. كل هذه الألوان من المهانة التي إما البهائم لا تشعر بها، أو ما كانت تحتملها يسعكم الخلاص منها، فقط اعقدوا العزم على ألا تخدموا تصبحوا أحرارًا. فما أسألكم مصادمته أو دفعه بل محض الامتناع عن مساندته، فترونه كتمثال هائل سحبت قاعدته فهوى على الأرض بقوة وزنه وحدها وانكسر (لابويسيه، ٢٠١٤، ٣٧).

فهل ما سبق عرضه هو السبب في ظهور الأمثال القائلة:

**«إذا دخلت بلد تعبد العجل حش وارمي له»**

**«اللي ما تقدرش توافقه نافقه»**

**«ارقص للقرد في دولته»**

**«الإيد اللي ما تقدرش تقطعها بوسها»**

**«العب مع القرد لما توفى ايامه»**

**«لأجل الضرورة باقول للندل يا سيدي واقف على الباب وأقول له العفو يا سيدي»؟**

ولماذا يقبل البعض أن يكون مستعبدًا بشكل طوعي دون أن يحاول التخلص من عبوديته؟ على الرغم من قول المثل: «**الله يلعن الطشت الدهب اللي اطفح فيه الدم**»، هل يمكن للإنسان أن يكون مطواعًا لغيره دون أن يبدي تذمرًا أو رغبة في الانعتاق

بسبب ظروف المنشأ أو ظروف العيش؟ هل الحرية مطلب إنساني؟ وهل هي مطلبًا للمثقفين وأصحاب الوعي فقط؟ وفي محاولة للإجابة على الأسئلة السابقة يشير «لابويسيه» إلى أهمية الوعي لدى الإنسان وكيف يتكون هذا الوعي، سواء الوعي بمقاومة العبودية أو نقص الوعي بقبولها فيقدم لنا قصة لها معنى مأخوذة من تاريخ الإغريق تقول إن شخصًا أخذ جروين من أم واحدة، أحدهم تمت تنشئته في المطبخ، والأخر أُطلق في الحقول، وبعد فترة جيء بالكلبين، ووضع أمامهما أرنب وإناء فيه حساء، فقام كلب المطبخ بالاقتراب من الحساء لشربه، أما كلب الحقول فقد بدأ يطارد الأرنب. هذه القصة تبدو رمزية وتعني أن البيئة تتحكم في تصرف المخلوق، والإنسان كذلك إبن بيئته، فمن يكون عبدًا فإن أبناءه يشبون على قبول العبودية، وتبدو لهم أنها من طبيعة الأشياء لا يحتاجون إلى تغييرها.

إن من ولدوا وهم مغلولوا الأعناق ثم أطعموا وتربوا في ظل الاسترقاق من دون نظر إلى أفق أبعد يقنعون بالعيش مثلما ولدوا، فيصبح حال مولدهم هو الحال الطبيعي، ثم تأتي العادة لتجعل الناس يتجرعون سُم الاسترقاق من دون الشعور بمرارته. لنقل إذن إن ما درج الإنسان عليه وتعوده يجري عنده بمثابة الشيء الطبيعي، فلا شيء ينتسب إلى فطرته سوى ما تدعوه إليه طبيعته الخالصة التي لم يمسها التغيير، ومنه كانت العادة أول أسباب العبودية المختارة؛ لأن العادة رابطة تكاد تكون وثيقة بين مثير واستجابة، وتتكون العادات عن طريق التعلم وتكرار الممارسة.

ويُعد تفسير «إريك فروم» في كتابه «الهروب من الحرية» من تلك المحاولات التي تنشد فهم الظاهرة من خلال تحليل سلوك الفرد وشخصيته. ينطلق «فروم» في تحليله من أن نزعتي «السيطرة ـ السادية» و«الخضوع ـ المازوخية» موجودة عند البشر جميعًا أسوياء ومنحرفين، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة. ومن ثم فإن تفسير ظاهرة الاستبداد أو بالأحرى تفسير سلوك طرفي ظاهرة الاستبداد يكمن في تحليل سلوك هذين الطرفين، ذلك أن العلاقة بين المستبد والمستبد به تكمن في هاتين النزعتين. المستبد يمارس ويعبر عن النزعة السادية ـ أي التلذذ بإيقاع الأذى بالآخرين ـ التي ترتد، في نهاية الأمر، إلى دافع أساس واحد هو السيطرة الكاملة على الشخص الآخر، بأن تجعله موضوعًا عاجزًا تحت إرادتها، ذلك أن متعة السيطرة

التامة على شخص آخر هي ماهية الدافع السادي. فالمحرك لسلوك المستبد هو دافع السيطرة (فرج احمد، ٢٠٠٧، ٦٢).

أما المُستبَد به الخاضع الخانع فهو يمارس ويعبر عن النزعة المازوخية ـ أي التلذذ بالألم الذي يقع عليه ـ من خلال الخضوع لشخصية أقوى منه تحرره من خوفه، «**إيش جاب العبد لسيده، قال لده طلعة ولده طلعة**»، ويقول آخر: «**اللي يبص لفوق يتعب**»، وأيضًا «**هاتربط حمارك جنب حمار العمدة؟**».

ذلك أن النزعة المازوخية في جوهرها تعبير عن «الخوف»، خوف من الذات وما يرتبط بها من حرية ومسؤولية، فالمازوخي فرد خائف لا يتحمل ذاته الفردية المستقلة عن ذوات الآخرين، ذلك أن استقلاله يشكل مصدر قلق له لا يطاق، لهذا فهو يبحث عن ذات أخرى، أقوى منه، ينضوي تحتها ويخضع لها، ذات تمنحه الأمان، ويشعر من خلالها بالقوة، فالشخصية المازوخية هي في الواقع تعبير عن حل للصراع الذي ينتاب الفرد «بين أن يكون مستقلا وقويًا وبين شعوره بالتفاهة، وهو حل كما نلاحظ لا يجنح نحو امتلاك القوة بل ينتهي إلى الخضوع والتلذذ به. إن الخضوع للطغاة والمستبدين هو الذي يمنح المازوخيين إحساسهم بالقوة المفتقدة، فيزدادون إيغالًا في الخضوع ليزدادوا قوة، ويزول عنهم الخوف الذي يقلقهم.

ومن هنا يخرج النظام الطبقي، والنظام الطبقي في المجتمع تحدثت عنه الأمثال كثيرًا، فيقول المثل: «**العين ما تعلاش على الحاجب**»، ويقول آخر: «**رايح فين يا صعلوك بين الملوك**»، «**ربنا ما سوانا إلا بالموت**»، «**الناس مقامات**»، وقد تولد في النفوس كثيرًا من اليأس والإحباط والقنوط، فقالوا: «**إللي يبُص لفوق يتعب**»، «**المية ما تجريش في العالي**» وكيف يتساوى من ينتمي للطبقات الدنيا مع الخاصة من الناس، وقد عبروا عن ذلك بالمثل القائل: «**إيش عرَّف الحمير بأكل الجنزبيل**»، إنه أسلوب من أساليب الصراع الطبقي، حيث تتسم هذه الطبقة بالاستعلاء، وترفض أن يتشبه بهم أحد من الطبقات الدنيا «**إن طلع من الخشب ماشة يطلع من الفلاح باشا**»، «**لو كان الاسم بيشترى كان الفلاح سمى ابنه خرا**»، وإذا حاول أحدهم النهوض «**بعد نومك مع الجديان بقى لك مطل على الجيران**» فهو محدث نعمة، ويكون المثل من

نصيبه «**كنا فين وبقينا فين**»، فيرد بلسان حاله «**حطوا عليا كلكم يا لّي الزمان خلاني لكم**».

وعلى الرغم من ذلك فهناك أمثال تطالب بالمساواة وتحث عليها «**كلنا ولاد تسعة**»، «**كلنا ولاد حوا وآدم**»، «**محدش على راسه ريشة**»، «**محدش احسن من حد**»، «**أحمد زي الحاج أحمد**»، «**الحسن خي الحسين**» (عزة عزت، ٢٠٠٣، ١٣٨).

إن النظرة الاستعلائية من أصحاب الطبقة العليا إلى من دونهم كان لها حظها في الأمثال، وكأن الذوق والأدب والتربية والأصل لهم وحدهم دون غيرهم من الناس، وربما كان ذلك صحيحًا إلى حد ما، ولكن انظر إلى الكِبر في هذا المثل: «**أكرم ابن الأمارة وابن الهايفة لأ**»، وحتى لا يقلدهم أحد من العامة «**أمه عيَّاشة وعامل باشا**»، فلابد من وجود هذه الطبقية حتى تستمر الحياة «**لما انا أمير وانت أمير مين يسوق الحمير**»، ومع ذلك تجد بعض الأمثال تحث على عدم التعالي على الناس، فيقول المثل: «**حُط راسك بين الروس واوعي عليها بالقطع**»، أما الصعلوك المتبجح بما هو فوق قدره فقال فيه المثل: «**زي براغيت القنطرة عُري وزنطرة**»، «**زي ديك الخمسين عريان ومزنطر**»، وأخيرًا لا للتعاظم ولا للتهجم على الناس وإلا سيتحقق فيه المثل: «**زي الطبل منفوخ على الفاضي**».

فإذا كان هذا هو الحال فلا مجال لثقافة الاختلاف إذًا، ولا اعتبار لأهمية الرأي الآخر كما يقول الدكتور إمام عبد الفتاح، والمثل يؤكد ذلك فيقول: «**المركب اللي فيها ريسين بتغرق**»، ويقول آخر: «**الإبرة اللي فيها خيطين ماتخيطش**» (إمام عبد الفتاح، ٢٠١٨، ٢٠١٢).

يقول أحمد عكاشة في كتابه تشريح الشخصية المصرية إن أي شعب في الدنيا فيه ٦٠٪ من البشر متوسطي الذكاء، وهناك ٢٠٪ من المجموع الكلي مستوى ذكائهم أقل من المتوسط، و ٢٠٪ ذكاؤهم فوق المتوسط، وهذه الأخيرة هي التي تحكم الـ ٨٠٪ من مجموع الناس في أي مجتمع، والغريب أن هذه النسبة الكبيرة من الشعب قابلين للإيحاء والاستهواء، وعادة ما يأخذون الوعود من الأذكياء بمنتهى الأمانة والبساطة، فيصدقونهم ويمشون وراءهم كالمنومين.

وحين يعيش شعب من الشعوب تحت أنظمة استبدادية لفترات طويلة دون أن يتمكن من تغيير هذه الأنظمة فإن أفراد هذا الشعب يكتسبون صفات العبيد «**طول عمرك يا رضا وانت كده**»، فيتعاملون مع كل صاحب سلطة بالخضوع والخنوع والاستسلام، و«**اللي عاجبه ده الكحل يتكحل واللي مش عاجبه يرحل**» ويرضون بالفتات الذي يلقى لهم، وشيئًا فشيئًا تذوب الكرامة، وتسود صفات الانتهازية والنذالة والجبن والتسول المُهين، وينطبق على الناس في هذه الحالة ما قاله الشاعر:

خمسون عامًا أنحني ... مذ كنت يومًا طفلًا رضيعًا

واليوم تأمرني لأرفع هامتي ... فبكل أسفي سيدي لن أستطيعا

إن الناس يدفعون ثمن صمتهم مرتين: مرة في الدنيا ومرة في الآخرة: فعن جابر ابن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال لكعب ابن عُجرة: «أعاذك الله من إمارة السفهاء. قال: وما إمارة السفهاء؟ قال: أمراء يكونون بعدي لا يهتدون بهديي ولا يستنون بسنتي، فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فأولئك ليسوا مني ولست منهم ولا يردون على حوضي، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك مني وأنا منهم وسيردون على حوضي. يا كعب ابن عجرة: الصيام جنة والصدقة تطفئ الخطيئة والصلاة قربان أو قال برهان. يا كعب ابن عجرة: الناس غاديان فمبتاع نفسه فمعتقها وبائع نفسه فموبقها»[1].

(١) رواه أحمد واللفظ له، والبزار، ورواتهما محتج بهم في الصحيح، ورواه ابن حبان في الصحيح. أنظر: صحيح الترغيب والترهيب للألباني، ج٢، حديث رقم: (٢٢٤٢).

# الفصل الرابع

# علم النفس النمائي

## مراحل النمو

**«ابن الحرام يطلع يا قواس يا مكَّاس»**

يمر الفرد في حياته بمراحل نمائية متعددة، ومن الثابت علميًا أن كل مرحلة من هذه المراحل تتأثر بما قبلها وتمهد لما بعدها، أي أن النمو عملية متصلة مستمرة لا تحدث فجأة بل تتطور بانتظام خطوة إثر خطوة. ويجمع علماء النفس على أن الخبرات الاجتماعية السليمة والعلاقات المبكرة التي تتوفر للطفل في الأسرة في الخمس سنوات الأولى من حياته تقوم بدور هام في تكوين شخصيته وتشكيل سلوكه وتوافقه النفسي وصحته النفسية بوجه عام.

فالطفل يولد ولديه العديد من الدوافع والحاجات الفسيولوجية الأساسية التي لابد من إشباعها حتى يحتفظ ببقائه، كالحاجة إلى النوم، والحاجة إلى الإخراج، والحاجة إلى الطعام و... الخ. فالإنسان في المرحلة العمرية الأولى ليس له حول ولا قوة، ويستمد كل خبراته من الأسرة، وقد عبَّر المثل عن ذلك بقوله: «**لا له إيدين تمسك ولا شفايف تلملم**».

والطفل لا يولد اجتماعيًا، بل يقوم المجتمع بصقله وترويضه وتعليمه، وهو ما يسمى بعملية التطبيع الاجتماعي، فيتعلم الأبناء من الآباء والمعلمين وغيرهم الذين يمثلون ثقافة المجتمع، والتربية الاجتماعية والخلقية التي يقوم بها البيت والمدرسة هي لُب عملية التطبيع، وفي ذلك يقول المثل: «**جوزك على ما تعوديه وابنك على ما تربيه**». وعن التنشئة الاجتماعية يقول المثل: «**ابن الحرام يطلع يا قواس يا مكَّاس**»، والقواس هو حامل القوس، أي أن أصله الرديء وما كمن في نفسه من الشر مكنه من أن يعمل بالمهن التي لا يخلو صاحبها من الظلم وإعانة الظلمة.

ويرى الإمام «ابن قيم الجوزية» أن التربية والتنشئة الاجتماعية تلعب دورًا مهمًا في انحراف أو اعتدال الأخلاق، وأن ما يحتاج إليه الطفل بالفعل هو العناية بخُلقه؛ لأنه ينشأ على ما عوده المُربي في صغره[1]، والأمثال في ذلك كثير نذكر منها على سبيل التمثيل: «**أدب ابنك صغير تفرح به كبير**»، «**اضرب ابنك واحسن أدبه ما يموت إلا لما يفرغ أجله**»، «**إكسر للعيل ضلع يطلع له اتنين**»، وهذه المجموعة من الأمثال تدل على وجوب الثواب والعقاب في عملية التنشئة الاجتماعية، وليس المقصود منها الإفراط في جانب العقاب بدليل قول المثل: «**القلب يحن**»، فيعود الحنين ويربط الأسرة من جديد بحبل المودة والحنان، لأن «**البطن ما تجيبش عدو**»، و«**إن كبر ابنك خاويه**».

وعن التربية في الصغر يقول الإمام علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه:

حرض بنيك على الآداب في الصغر كيما تقر بهم عيناك في الكبر

ويقول الحسين بن علي رضي الله عنهما:

خير ما ورَّت الرجال بينهم أدب صالح وحسن ثناء

ذاك خير من الدنانير والأوراق في يوم شدة ورخاء

أما من لا تفلح معه التربية ولم تأتي بثمارها فتكون الحسرة في قلوب أبويه شديدة «**ما تبكوش على اللي خابت زرعته ابكوا على اللي خابت ذريته**»، «**اللي ما تربيه الأهالي تربيه الأيام والليالي**»، ويقول مثل آخر: «**اللي ما فلح البدري جي الوخري يجري**» وهو ما أكد عليه الشاعر بقوله:

ضلَّ الذين رأوا في النسل فائدة ولو أصابوا لما ربّوا ولا حضنوا

ويقول أمية بن أبي الصلت:

غَذَوتُك مولودًا وَعُلتُكَ يافعًا تُعَلُّ بما أدنى إليك وتَنهَلُ

إذا ليلةٌ نابَتكَ بالشَّكو لم أبت لشكواكَ إلا ساهرًا أتململُ

(١) أنظر: تحفة المودود وأحكام المولود، ص١٨٣.

كأني أنا المطروق دونك بالذي ... طُرقتَ به دوني وعينيَ تَهمُلُ
تَخَافُ الرَّدَى نفسي عليكَ وإنها ... لتَعلمُ أن الموتَ حتمٌ مؤجلُ
فلما بَلَغتَ السِّنَّ والغايةَ التي ... إليها مَدَى ما كُنتَ فيكَ أُؤَمِّلُ
جَعَلتَ جزائي منكَ جَبهًا وغِلظةً ... كأنكَ أنتَ المنعمُ المتفضِّلُ
فليتكَ إذ لم تَرْعَ حَقَّ أُبُوَّتي ... فَعَلْتَ كما الجارُ المجاورُ يفعلُ

ويوافقه قول الميداني:

فيا عجبًا لمن ربيتُ طفلا ... ألقِّمُه بأطرافِ البنانِ
أعَلِّمُه الرماية كلَّ يومٍ ... فلما اشتدَّ ساعدُه رماني
أعَلِّمُه الفتوة كل وقتٍ ... فلما طُرَّ شاربه جفاني
وكم علمته نظم القوافي ... فلما قال قافيةً هجاني

ولابد للصاحب أن يتخلق ببعض أخلاق صاحبه «**إن كان بدك تعرف ابنك وتسيسُهُ إعرفه من جليسه**»، ويقول آخر: «**أربط الحمار جنب رفيقه إن ما تعلم من شهيقه يتعلم من نهيقه**». ومهما تشتد تربية الوالدين على أولادهم لا يبلغوا معهم مبلغ الضرر «**هي القطة تاكل ولادها**». ويوافق ذلك قول الشاعر:

أرضى عن ابني إذا ما عقني حذرًا ... عليه أن يغضب الرحمن من غضبي

ويؤكد الشاعر على أن الأبناء يكتسبون سلوكياتهم بتقليد الآباء فيقول:

مشى الطاووسُ يومًا باعوجاجٍ ... فقلدَ شكلَ مشيتهِ بنوهُ
فقال علامَ تختالونَ؟ فقالوا: ... بدأت به ونحنُ مقلدوهُ
فخالف سيرك المعوجَّ واعدل ... فإنا إن عدلت معدلوه
أما تدري أبانا كل فرع ... يجاري بالخُطى من أدبوه
وينشأ ناشئ الفتيان منا ... على ما كان عوده أبوه

هذا هو ما يطلق عليه التعلم بالملاحظة أو التعلم الاجتماعي الذي يرتبط باسم العالم الشهير «باندورا» حيث أكد على أن الإدراكات والمعارف تتفاعل مع البيئة لخلق عملية التعلم والسلوك الموجه ذاتيًا.

ثم تأتي مرحلة المراهقة وهي فترة استيقاظ الانفعالات والحاجات المختلفة وظهور القدرات والإمكانات الجسمية والعقلية، وتتميز هذه الفترة في كثير من الأحوال بالقلق والثورة والشك، فهي محفوفة بالألم والأمل. ونتيجة لهذا التخبط يقول المثل الأفريقي: «**ما يراه الشيخ وهو جالس لا يراه الشاب وهو واقف**».

فهي مرحلة انتقالية بين الطفولة والرشد، ويعيش فيها المراهق في صراع دائم بين أن يعتمد على أهله أو أن يستقل بذاته، ويسعى دائمًا إلى تجريب قيم وأفكار وسلوكيات جديدة حتى يحدد هويته بالرغم من أن ذلك لا يرضي الوالدين، وهذا يعتبر طبيعيًا في ضوء المرحلة العمرية التي يمر بها. وعن هذا الطور النمائي يقول المثل: «**بنت عشرة لوزة مقشرة، وبنت عشرين نزهة الناظرين، وبنت ثلاثين أم البنات والبنين**».

ويجب أن نفرق بين كلمة مراهقة Adolescence وكلمة بلوغ Puberty، فالأخيرة يقتصر معناها على ناحية واحدة من نواحي النمو، وهي الناحية الجنسية، فنستطيع أن نعرف البلوغ بأنه نضج الغدد التناسلية واكتساب معالم جنسية جديدة تنقل الطفل من مرحلة الطفولة إلى بدء النضج، وكثيرًا ما تستخدم كلمة المراهقة والبلوغ على أنهما مترادفتان، وفي الحقيقة ثمة اختلاف فني في معنى اللفظين، فكلمة مراهقة تطلق على مرحلة كاملة تبدأ بالبلوغ وتستمر حتى مرحلة النضج، النضج الاجتماعي الكامل، أي فيما بين حوالي سن ١٢ سنة و ٢٠ سنة. ثم تبدأ مرحلة الرجولة، وهي من أطول مراحل العمر، في هذه المرحلة يأخذ الشخص في ممارسة طاقاته ليجني ثمرة جهوده.

وفي مرحلة الرجولة والنضج يشكل الأب الدعامة التي تبنى عليها حياة الأسرة، وفي ذلك يقول المثل الجزائري: «**الدار بلا كبير مثل الساقية بلا بير**»، وتكون سلطة الأب فوق كل اعتبار، ويشير المثل إلى ذلك قائلًا: «**كل راجل في داره سلطان**».

ومن الحكم التي وردت عن المصريين القدماء قول بتاح حتب مخاطبًا إبنه: «لا تغتر بما حصلت عليه من العلم فتستكبر، ولا تتجبر، ولكن اجعل الأمر شورى من الجميع، شاور الرجل غير المتعلم كالمتعلم لأنه ليس هناك حد للمعرفة». «إذا وجدت رجلا يتكلم وكان أكبر منك فاصغ إليه واحن ظهرك، ولا تغضب إلا إذا تفوه بالسوء، وعندئذ سيقول عنه الناس تبا له من جاهل».

وبعدها تأتي مرحلة الشيخوخة، وهي مجموعة تغيرات جسمية ونفسية تحدث بعد سن الرشد وفي الحلقة الأخيرة من الحياة. ومن التغيرات الجسمية الضعف العام في الصحة ونقص القوة العضلية وضعف الحواس، يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ (سورة الروم، ٥٤)، ومن التغيرات النفسية ضعف الانتباه والذاكرة وضيق الاهتمامات والمحافظة وشدة التأثر الانفعالي والحساسية النفسية. ولذلك يقول المثل: «**من بلغ الستين اشتكى من غير علة**»، ويقول المثل البلغاري: «**لا تسأل الشيخ عن المكان الذي يؤلمه، بل عن المكان الذي لا يؤلمه**»، ويقول آخر: «**تخاف المرة من الشيب زي ما تخاف المعزة من الديب**».

ويتعرض الفرد في هذه المرحلة لبعض المشكلات قد ترجع لأسباب حيوية مثل التدهور في الصحة بشكل عام، وقد تكون أسباب نفسية مثل الفهم الخاطئ لسيكولوجية الشيخوخة، فقد يفهم بعض الناس أن الشيخوخة معناها أن الشيخ المسن يجب أن يمشي متثاقلًا يتأوه طالما قد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبًا، وهذا فهم خاطئ لهذه المرحلة، ويزيد الطين بلة أن بعض الشيوخ قد يصلون إلى هذه المرحلة وما زالت شخصياتهم لم تنضج بعد «**شابت لحاهم والعقل لسة ما جاهم**»، وقد يتصرف بعض الشيوخ تصرفات جنسية شاذة وقد يأتون سلوكًا لا يستحسن ولا يوقر شيبهم، وهنا يقول المثل: «**شايب وعايب**»، ويقول آخر: «**الشايب لما يدلَّع يبقى عامل زي الباب المخلَّع**».

وقد يعيش بعض الشيوخ وكأنهم ينتظرون النهاية والقضاء المحتوم ويتحسرون على شبابهم ولسان حالهم ينطق بالمثل «**ذكر الشباب حسرة**»، ويقول الشاعر «أبو العتاهية»:

بكيت على الشباب بدمع عيني فلم يغن البكاء ولا النحيب
ألا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب

ويقول الإمام الشافعي في ديوانه:

وعزة عمر المرء قبل مشيبه وقد فنيت نفس تولى شبابها
إذا اصفر لون المرء وابيض شعره تنغص من أيامه مستطابها

لقد اهتم المصري القديم بهذه المرحلة العمرية في الحكم والأمثال، جاء ذلك في تعاليم حاكم المدينة الوزير «بتاح حتب» وهو يخاطب ملك مصر العليا والسفلى فيقول: «لقد أقبلت الشيخوخة، وبدأ خرفها، وسرت الآلام في الأعضاء، وتبدى الهرم وكأنه شيء جديد، وذهبت القوة وحل محلها الضعف والهزال، وصمت الفم وتوقف عن الكلام، وغارت العينان، وأصبحت الآذان صماء، وأمسى القلب كثير النسيان، لا يذكر ما حدث بالأمس، وغدت العظام تقاسي من تقدم السن، وصار الوقوف والجلوس كلاهما شاقًا، وتحول الحسن إلى سيء، ولم يبق لشيء أي طعم، وتقدم العمر جعل أحوال المرء سيئة في كل شيء» (محرم كمال، ١٩٩٨، ٢٨).

وتكره المرأة الوصول لهذه المرحلة حتى في جميع الثقافات، ولذلك كثرت الأمثال العربية والأجنبية في ذلك، فيقول المثل الإنجليزي: «**أطول خمسة أعوام في حياة المرأة هي بين التاسعة والعشرين والثلاثين**»، ويقول المثل الروسي: «**أربعون عامًا هو عمر الجدة**»، بينما السن الكبير له من يوقره ويزكيه في مجتمعات أخرى فالمثل الأسباني يقول: «**حبة العنب الجيدة تتحول إلى حبة زبيب جيدة**»، ويقول المثل المصري: «**إن دبل الورد ريحته فيه**».

وقد تباينت الأمثال في الزواج بكبيرة السن فالمثل يقول: «**من كتر همه خد واحدة قد امه**»، وفي المغرب يقولون: «**الشابة شهوة والعجوزة بلوة**»، وعلى العكس تجد المثل الأندونيسي يقول: «**تزوج دائمًا من امرأة أكبر، فلن تجوع وستستفيد من خبرتها**». وعن الزواج من كبير السن يقول المثل: «**إيش ياخد الريح من البلاط**»، ويقول آخر: «**إيش يعمل الترقيع في الثوب الدايب**».

وقليلي الإيمان ممن يصل إلى مرحلة الشيخوخة يخشى الموت فيصاب بمرض نفسي يحمل نفس الإسم «قلق الموت»[١] حتى أن لسان حاله ينطق بالمثل «**أقل عيشة أحسن من الموت**»، على الرغم من معرفته التامة بالمثل القائل: «**آخر الحياة الموت**».

(١) أنظر: محمد غالب بركات (٢٠١١). قلق الموت في ظل الإرهاب الصهيوني. دار الآفاق العربية.

## الوراثة والبيئة

**«إكفي القدرة على فومَّها البنت تطلع لامَّها»**

إن الأمثال العربية جمعت فأوعت الصفات البشرية بعامة، إيجابية كانت أو سلبية، حتى نكاد نقول بأنه ما من صفة إنسانية يمكن أن ينعت بها الإنسان إلا وأشارت إليها الأمثال العربية؛ لنؤكد على القول بأن المثل هو الصورة الصادقة لحياة الشعوب والأمم، فيه خلاصة الخبرات العميقة التي تمرست بها عبر السنوات الطويلة من حضارتها، وهو الخلاصة المركزة لمعاناتها وشقائها وسعادتها وغضبها ورضاها، نجد في طياتها مختلف الأمثال التي تمثل حياة مجتمعها وتصورات أفرادها بأساليب متنوعة، وقيل: «ضرب المثل لم يأت إلا رد فعل عميق لما في النفس من مشاعر وأحاسيس، نتيجة للمؤثرات الشعورية التي اختفت في العقل الباطن، فجاء سلوكه تعبيرا عن عمق المؤثرات التي دعت إلى ضرب المثل[١].

والإنسان موضوع غريب في حد ذاته. فلا يكفي أن ندرس سلوكه كي نستدل عليه ولا يكفي أن نفهم بيئته كي ندركه. بل يجب علينا أن نفض بعض أسراره النفسية أولًا حتى نقترب من فهمه، ومن هنا كانت البداية بالوراثة Heredity فعامل الوراثة يلعب دورًا مهمًا في سلوك الإنسان. والعامل الثاني هو البيئة Environment في صيغتها العامة. فالبيئة عنصر لا ينفصل عن الوراثة، فمنذ أن تبدأ حياة جديدة في رحم الأم تكون تلك الحياة في بيئة تؤثر تأثيرات مختلفة، تؤثر على وراثية الإنسان الجديد (أحمد فائق، ٢٠٠٣، ٤٨).

(١) أنظر: يوسف عز الدين، التعبير عن النفس في الأمثال العربية. (في) الحمزاي.

والوراثة هي كل الخواص التي توجد في الفرد عندما يبدأ الحياة، ولا نقصد بذلك تلك العوامل التي تكون موجودة لحظة ولادته، بل تلك التي توجد فيه منذ لحظة الإخصاب الأولى، أي قبل ولادته بتسعة أشهر (أحمد فائق، ٢٠٠٣، ٥١).

فالوراثة تزود الفرد بالإمكانات والاستعدادات، واستمع إلى المثل الذي يقول: «**إبن الوز عوام**»، فهو كأبويه في السباحة، ومثله: «**فرخ البط سابح**»، وأيضًا «**بنت الفارة حفارة**»، «**من شابه أباه فما ظلم**»، وغالبًا ما تورث الطباع أيضًا، فالذئب لا يُربى ولا يُقتنى؛ لأن طبعه سيغلبه ويؤذي من رباه وأحسن إليه، والمثل يقول: «**إبن الديب ما يتربَّاش**»، فلابد للعرق أن يمتد يوما ويظهر ما كان مستور، يقول المثل: «**الأصل الرَّدن يردي على صاحبه**»، وتكتسب الأنثى الكثير من صفات الأم، حتى يقول المثل: «**بنتِ الحرَّاتة تِطلع درَّاسة**»، ويقول آخر: «**إكفي القلة على فومَّها البنت تطلع لامَّها**»، وإذا كان المثل يقول: «**العرق يمد لسابع جد**» أي أن الإنسان لابد أن يشابه أحد جدوده ولو بعدوا، كما يقولون: «**ولد لخاله**» أو «**بنت لعمتها**»، وعادة تنسب الأمور الوراثية إلى الأصل البعيد، فتقول الأم أن الولد سريع الغضب لأن أباه عصبي، والأب يقول أن ابنه عاق لأن أخوال الولد كذلك. وقد قالوا: «**قبل ما شافوه قالوا حلو زي ابوه**»، ومثله: «**قبل ما وِلدوه قالوا عريض القفا زي ابوه**». ويلخص الإمام علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فيقول: «**النَاسُ بِزَمانِهِمْ أَشْبَهُ مِنْهُمْ بِآبائِهِمْ**».

وقد تتنحى السمات الوراثية فنجد أن «**النار بتخلف رماد**»، وأن «**أم بربور تجيب الشاب الغندور**». وقد يسخر المثل من الوراثة والتشابه فيقول «**أبوك البصل وامك التوم، منين لك الريحة الطيبة يا شوم**».

أما البيئة فهي كل العوامل التي تؤثر في الشخص منذ لحظة إخصابه. وهي مجموع الظروف الخارجية والمتغيرات البيئية المحيطة بالفرد والتي تؤثر على سلوكه، ونحن أبناء الوراثة والبيئة في آن واحد، ومن ثم لا يمكن أن نفصل أثر الوراثة عن أثر البيئة؛ لأن الإنسان منذ نشأته الأولى في صورة بويضة مخصبة تبدأ الموروثات ـ وهي المحددات الكيماوية للوراثة البيولوجية ـ في التفاعل مع سيتوبلازمة الخلية وهذه نوع من البيئة، وحين تتكاثر الخلايا تؤثر كل خلية في الأخرى، وهذه بيئة خلوية

أيضًا، وحين تتكون الغدد الصم فإن ما تفرزه من هرمونات في مجرى الدم شرط ضروري لنمو الجنين بأسره، ثم يولد الإنسان في بيئة مادية وأخرى اجتماعية تؤثران فيه ويؤثر فيهما طوال حياته: الأسرة والمدرسة والزملاء والأدوار الاجتماعية التي يقوم بها، وطبقته الاجتماعية، وثقافة المجتمع الذي يعيش فيه، أي أن البيئة ليست مستقلة عن الوراثة، بل يتفاعلان معًا، ليتم نمو الفرد وسلوكه وما يتسم به من صفات جسمية وعقلية ومزاجية واجتماعية شتى، والبيئة التي ينشأ فيها الأفراد بين ذويهم تؤثر فيهم وفي أخلاقهم ولذلك يقول المثل: «**عيب الولد من أهله**».

والشخصية تنمو كأي ضرب آخر من النمو، ونموها هو حصيلة تفاعل الميراث الفطري البيولوجي للفرد مع بيئته، خاصة البيئة الاجتماعية، حتى أن المثل يقول: «**بلاص المش ينضح مش وبلاص العسل ينضح عسل**». فالشخصية هي الصورة المنظمة المتكاملة لسلوك الفرد التي تميزه عن غيره، أي أنها عاداته وتقاليده وأفكاره وأسلوبه في الحياة.

والأسرة هي أصغر وحدة اجتماعية، إذ تبدأ بالزواج واختيار شريك الحياة، والرغبة في الزواج يعبر عنها المثل القائل: «**اقرصيني في ركبتي تحصليني في جمعتي**»، وعندما تتمنع يكثر خطابها، حتى أن المثل يقول: «**من كُتر خُطابها بارت مسى عليها الليل واحتارت**»، ويقول آخر: «**خطبوها اتعززت فاتوها اتندمت**»، أما التي لم تتزوج فهي تعيش على أمل الزواج «**اقعدي في عشك لما يجي اللي ينشك**». ولابد من اختيار الشريك المناسب حتى يكون بينهما توافق «**إسأل قبل ما تناسب يبان لك الردي والمناسب**»، ويقول آخر: «**قبل ماتناسب حاسب**»، وعلى كل حال فإن «**الأصيلة ما تتاقلش بمال**».

ولتحقيق التوافق تشجع الأمثال على زواج الأقارب «**أحب ابن عمي ولو يسفك دمي**»، «**آخد ابن عمي واتنشر عليه بكمي، واخد ابن خالي واتنشر عليه بشالي**». وعن التوافق بين الزوجين في الأدب الجاهلي يضرب المثل القائل: «**وافق شن طبقة**» و«شَنّ» رجل من العرب خرج ليبحث عن امرأة يتزوجها، فرافقه رجل في الطريق إلى القرية التي يقصدها ولم يكن يعرفه من قبل. قال شن: أتحملني أم أحملك؟ فقال

الرجل: يا جاهل، أنا راكب وأنت راكب فكيف تحملني أو أحملك؟ فسكت «شن» حتى قابلتهما جنازة، فقال شن: أصاحب هذا النعش حي أم ميت؟ فقال الرجل ما رأيت أجهل منك، ترى جنازة وتسأل عن صاحبها أميت أم حي؟، فسكت شن، ثم أراد مفارقته، فأبى الرجل وأخذه إلى منزله، وكانت له بنت تسمى طبقة. فسألت أباها عن الضيف فأخبرها بما حدث منه، فقالت يا أبت ما هذا بجاهل؛ إنه أراد بقوله أتحملني أم أحملك: أتحدثني أم أحدثك. وأما قوله في الجنازة فإنه أراد: هل ترك عقبا يحيا به ذكره؟ فخرج الرجل وجلس مع «شن» وفسر له كلامه، فقال شن: ما هذا بكلامك. فصارحه بأنه قول ابنته «طبقة». فتزوجها شن. وصار يُضرب مثلًا للمتوافقين.

كما يحذر المثل من الزواج غير المتكافئ فيقول: «**ولا تاخدي ابن الأرملة ولا اللي معذب روحه سنة**»، «**خد ندك على قدك**»، فالمصاهرة أهلية «**النسب أهلية**» يكون فيها الارتباط الاجتماعي وثيق، وهو يتطلب الحرص على حسن العلاقة بين الطرفين، ويؤدي النجاح في ذلك إلى أن يصبح الناس كالأهل تمامًا، وتكون علاقة النسب كاللبن إذا أضيف إليه شيء يتغير لونه وطعمه، ولذلك قالوا: «**النسب زي اللبن أقل شيء يغيره**».

وبعض الصور المتناقضة لا تشير إلى حقيقة المجتمع بقدر ما تشير إلى مجموعة من المواقف المتناقضة التي لم تكن تخلو منها الحياة، فالمثل القائل: «**خدي شايب يدلعك ولا تخدي صبي يلوعك**» ليس قاعدة للعادات والسلوك في المجتمع، ولكنها مواقف خاصة تمثل وجهة نظر فردية قابلة للتغير، وفي النهاية كان المجتمع يقوم بتقويم المعوج من السلوك، ويصحح خطأ العادات التي يعتريها الشطط والجموح (إبراهيم شعلان، ٢٠٠٨، ١٢٦). وقد أوصت الأمثال الرجل بزوجته فقالت: «**يا مجامل الغُرب تفتخر بيهم جامل أهل بيتك تكسب أجرهم**»، «**يا مزكّي على أهل بره زكّي على أهل جوه**».

وإذا كان الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة مرفوعًا يقول: «تُنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[1] فتقول

(١) متفق عليه. وأنظر: إرواء الغليل للألباني.

الأمثال: «**من عملهم تجارته يا خسارته**»، «**استعدل ولا تستعجل**»، «**يا واخد القرد على كُتر ماله بكره يروح المال ويفضل القرد على حاله**».

ومن الرجال من يجمع بين الزوجتين، وفي ذلك يقول المثل: «**اللي يتجوز اتنين يا قادر يا فاجر**»، والمقصود إما أن يكون قادرًا على التوفيق بينهما، وإما أن يكون فاجرًا أي ليس في استطاعته القيام بذلك. ولابد من الاحترام المتبادل بين الزوجين، فمن أهان زوجته وعيرها بعيوبها أهانها الناس واستخفوا بها «**اللي يقول لمراته يا عورة يلعبوا بيها الكورة**»، وهو بخلاف من يكرم زوجته فيكرمها الناس «**اللي يقول لمراته يا هانم يقابلوها على السلالم**»، ومهما يحدث بين الرجل وزوجته فإن «**الرجل ومراته زي القبر وافعاله**».

أما الجمال فإن المجتمع الشعبي يحفل بالجمال الحسي، فيقول المثل: «**إن كُنت عايز تمُص قصب مُص من الوسط، وإن كُنت عايز تخطب خد رفيعة الوسط**»، وبالعكس «**اللي بعرقوبها تدبح الطير اهرب منها ما فيها خير**»، وكذلك «**تبقى عورة وبنت عبد ودخلتها ليلة الحد**»، ومن صور التناقض في الأمثال بعد أن مدح الجمال الحسي، فقد سخر منه في مواضع أخرى فيقول: «**بيع الجمال واشتري خفة، الجمال كتير بس الخفيف صدفة**»، والمثل الألماني يقول: «**المرأة الجميلة تحتوي الشيطان في جسدها**»، وإذا كان الجمال نسبيًا فله علاقة بالتزين «**لبِّس البوصة تبقى عروسة**»، ومثله «**لبس الخنفسة تبقى ست النسا**».

والأسرة هي الوحدة الاجتماعية التي ينشأ فيها الطفل، ويتفاعل مع أعضائها، وهي التي تسهم بالقدر الأكبر في الإشراف على نموه، وتكوين شخصيته، وتوجيه سلوكه. ويقوم الوالدان بدور ممثلي النظام الاجتماعي في تعليم الطفل القواعد الخلقية، والقيم الثقافية، والمُثل العليا للمجتمع الذي يتربى فيه الطفل. حتى أن المثل يقول: «**إبنك على ما تربيه وجوزك على ما تعوديه**» ويتم هذا من خلال عملية التوحد «التماهي» Identification؛ وهي الطريقة التي يتمثل بواسطتها الطفل سمات شخص آخر، ويجعلها جزءًا مكونًا لشخصيته، حيث يتوحد الطفل مع المتواجدين معه في حياته الأسرية وخاصة الوالدين (محمد غالب، ٢٠٠٩).

ومن المسلم به أن أول مصدر للإشباع إنما هو الأم، التي تمثل علاقة الطفل بها منذ صرخة الميلاد، اللبنة الأولى للتوحد والذي يمثل أول رباط عاطفي مع الأم إبان الرضاعة، فإذا ما كان الثدي مشبعًا، يلبي في الوقت المناسب حاجة الطفل استدمج الطفل أمًا طيبة، أما إذا اضطربت العلاقة بين حاجته وتلبية إشباعها، فإن هذا البازغ الذي يتعرف على عالمه من خلال أمه وردود أفعالها سيستدمج أمًا رديئة أو غير طيبة تثقل بنيته النفسية منذ البواكير (حسين عبد القادر، ٢٠٠٥، ٣١).

ولذلك يقول المثل: «**الطينة من الطينة واللتة من العجينة**»، وهو يُضرب لمشابهة الشيء للشيء، واستمع إلى المثل الذي يقول: «**أبوك البصل وامك التوم منين لك الريحة الطيبة يا مشوم**»، فما تفعله الآباء من صالح أو طالح حتمًا سيؤثر في الأبناء، وها هو المثل يقول: «**اللي يعمله الفقي في البنية يلتقي**».

أما عن مركز الأم فحدث ولا حرج، فحنان الأم لا يدانيه شيء «**اللي عند امه ما ينحملش همه**»، «**اللي من غير أم حاله يغم**»، وإذا فُقد أحد الوالدين أو كليهما «إلعز بعد الوالدين هوان»، وحب الأم للأبناء ليس له مثيل «**أسيادي واسياد أجدادي اللي يعولوا همي وهم ولادي**»، والإبن أو الإبنة في عين والديه ليس له مثيل «**خُنفسة شافت بنتها عالحيط قالت دي لُولِيَّة في خيط**»، ويقول آخر: «**الخُنفسة عند امها عروسة**»، «**القرد في عين امه غزال**»، لأن شفقة الوالدين ليس لها مثيل: «**قلبي على ولدي انفطر وقلب ولدي عليَّ حجر**»، وهي تعلم أبنائها وتعاقبهم أحيانًا «**اللي ما يفهم بالتلميح يفهم بالتجريح**»، «**حب ولدك بقلبك وربيه بإيدك**» ولكنها لا تتحمل أن يؤذيهم غيرها فتقول: «**أدعي على ابني واكره اللي يقول آمين**»، «**أضرب ولدي واكره اللي ما يحوشني**». فالأم أقرب ما يكون للإنسان، وهي أدرى بحاله «**أم الاخرس تعرف بِلُغى ابنها**»، «**أم الاعمى أخبر برقاده**»، وعمومًا «**اللي ربى خير من اللي اشترى**» وبالطبع لابد من احترام الوالدين، والمثل يقول: «**إللي ما يعرف ابوه ابن حرام**».

وعمومًا تلعب الأمثال دورًا اجتماعيًا ونفسيًا هامًا في ممارسات الوالدين خلال ديناميات عملية التنشئة الاجتماعية، وأنماط التربية لأبنائهم خلال مراحل نموهم المختلفة «**اللي يتعلمه الطفل من أمه يحفظه ويصمه**»، وتستمر التوجيهات الوالدية

للأبناء في مراحل العمر المختلفة حتى أن المثل يقول: «**اعدل العوجة ولو في يوم فرحها**»، وذلك لأن «**من أدب أولاده قهر حساده**» هنا يقول الأبناء: «**الله يرحم المعلمة والكتاب اللي علمتنا نقرا الكتاب**».

كما أن هناك عوامل اجتماعية أخرى تساهم في تكوين شخصية الفرد، منها الإطار الثقافي العام الذي يضم القيم والمعايير الخلقية والروحية والأفكار والمعتقدات الشائعة، والتي تختار كل طبقة اجتماعية منها ما يناسبها «**السر في السكان مش في المكان**»، كما توجد عوامل ثقافية خاصة بالطبقة الاجتماعية والأسرة والمدرسة، وهكذا.

إن سلوك الإنسان يرتبط إلى حد كبير ببيئته، وهو ما أكدت عليه المدرسة السلوكية، فالإنسان الذي نشأ في بيئة صالحة انعكس ذلك على سلوكه، والعكس صحيح، ولذلك قالوا: «**الأصيل يحلف ويُصدق والخسيس يحلف ويتكدب**»، وإذا كنت لا تستطيع أن تتعرف على أصله فاحكم عليه من أفعاله «**إذا غاب عليك أصله فتش على فعله**».

وإذا كان السلوك الإنساني في جملته مُكتسب من خلال عملية التنشئة الاجتماعية، فمن الممكن التغيير والتعديل، حيث إن السلوك الإنساني مرن وقابل للتعديل، وانطفاء السلوك غير المرغوب يكون بالتدريج؛ لأن السلوك الإنساني قابل للتعديل والتغيير، وفي ذلك يقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم: «حسنوا أخلاقكم». فالإنسان كائن اجتماعي يتأثر بالمجتمع الذي يعيش فيه، فتمرض نفسه أو تصح تبعًا لصلاح المجتمع أو مرضه.

وتعترف الأمثال بإمكانية هذا التغيير، وأن المجتمع يهتم بالسلوك الاجتماعي الحسن سواء كان نتيجة للتربية الحسنة (أصله)، أو من البيئة المحيطة به، فيقول المثل: «**فخر المرء بفضله أولى من فخره بأصله**». فمن حسنت أخلاقه ولانت فبها ونعمة «**الخشب اللين ما ينكسرش**».

ومع ذلك فالبعض سيء الطباع ومجبول على الأذى حتى أن النُسك لا يغيره «**إللي فينا فينا ولو حجينا وجينا**»، ومثل هذا يصعب التعامل معه «**إيش يعمل الحزِق**

**في المِزِق»**، فبعضهم قد تخصص في مضايقة الغير وإحراجهم حتى قالوا فيه «**يخش من العتبة ينَشِّف الرقبة**»، منذ لحظة دخوله يبدأ في مضايقة غيره حتى يصل إلى حد نشفان الريق، وحتى إذا علا بعضهم فلا تفارقه وضاعته وسوء خُلقه، ويذكره المثل بذلك «**بعد نومك مع الجديان بقى لك مِطَلّ على الجيران**»، فـ «**الدناوة طبع**»، وذلك لأن «**ديل الكلب عمره ما ينعدل**»، وعلى الإنسان العاقل أن يتحلى بالصبر ولا ينساق وراء هذا الصنف ويذكره المثل بذلك فيقول: «**إن عضني الكلب ماليش ناب أعضه، وإن سبّني الندل ماليش لسان أسبه**».

وتأتي العلاقات بين الجماعات وهو ما يجعلنا نتحدث عن سيكولوجية الجماعة: إن جماعة الرفاق أو الأقران التي ينضم إليها الطفل منذ دخوله مرحلة الطفولة المتأخرة ومع التحاقه بالمدرسة الابتدائية، يكونون عادة من أطفال الجيرة أو من زملائه في المدرسة. وجماعة الرفاق جماعة يدين لها الطفل والمراهق فيما بعد بكثير من الولاء ويعتز بالانتماء إليها وبالتالي يلتزم بمعاييرها وبما تراه من أساليب مستحسنة أو مستهجنة من وجهة نظرها (علاء كفافي، ١٩٩٨، ٧).

والصداقة علاقة اجتماعية وثيقة، تقوم على تماثل الاتجاهات، وتحمل دلالات بالغة الأهمية تمس توافق الفرد واستقرار الجماعة «**صاحبك من بختك**»، «**طول مانت طيب تكتر اصحابك**»، ويقول الإمام علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه: «**مَنْ عَذُبَ لِسَانُهُ كَثُرَ إِخْوَانُهُ**». حيث يشترك الأصدقاء في ضروب متنوعة من النشاطات والاهتمامات بالمقارنة بالعلاقات السطحية التي تتركز في أغلب الأحوال حول موضوع أو نشاط واحد (أسامة ابو سريع، ١٩٩٣، ٣٧) «**إللي يريدك ريده ومن خيرك زيده**».

«**اللي ترافقه وافقه**»، «**اختار الصديق قبل الطريق**»، «**كُل عيش حبيبك تُسُره وكل عيش عدوك تضُره**»، أما من كره الصُحبة فيكون نصيبه من المثل القائل: «**مِن فاتك فوته**»، وفي قلة وفاء الأصحاب يقولون: «**من قِلة الحنية بتنا على جفا وخدنا من بيت العدو حبيب**»، ويقول آخر: «**عُمر العدو ما يبقى حبيب وعمر شجرة التين ما تطرح زبيب**»، وأيضًا «**إعرف صاحبك وعلم عليه**»، وإذا لزم الأمر «**صباح الخير يا**

**جاري انت في دارك وانا في داري»**. وإذا كان الإنسان بطبيعته اجتماعيًا، فإن نجاحه في تكوين أصدقاء واستمرار علاقته معهم يُعد شرطًا من شروط تمتعه بصحة نفسية واستمتاعه بحياة لها معنى.

والصديق الحق يحفظ أسرار صديقه ولا يزيعها، وقد شكا هشام بن عبد الملك ما يجد من فقد الأنيس المأمون على سره؛ فقال: أكلت الحامض والحلو ما أجد لهما طعمًا، وأتيت النساء حتى ما أبالي أمرأة لقيت أم حائطًا، فما بقيت لي لذة إلا وجود أخ أضع بيني وبينه مؤونة التحفظ. فالإنسان يعتريه الكرب لكتمان السر، ويغشاه سقم وكمد يحس به في سويداء قلبه مثل دبيب النمل، ولذلك قيل: «**الصدر إذا نفث برأ**»، وقيل أيضًا: «**ولابد من شكوى إذا لم يكن صبرُ**».

واعلم أن إخفاء الأسرار مع الأيام لا بد من ظهورها، إستمع إلى للمثل وهو يقول: «**إللي بتحبل بالليل تولد بالنهار**»، ويقول آخر: «**إللي يطلع من الراس يوصل للناس**». فالسر إذا تجاوز صدر صاحبه وأفلت من لسانه إلى أُذن واحدة فليس حينئذ بسر، «**صدرك أوسع لسرك**»، وصدر صاحب الأذن الثانية أضيق، وهو إلى إفشائه أسرع، ثم هكذا منزلة الثالث من الثاني، والرابع من الثالث. قال الشاعر:

إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الـذي يستودع السر أضيق

ولو أن أوزن الناس حلمًا ملك لسانه وحصّن سره، ما قدر على أن يملك لحظ عينيه، وتغير لونه، وتبسّمه أو قطوبه، عند ما يختلج بصدره من ذكر ذلك السر، أو يخطر بباله منه، إلا بعد التصنع الشديد والتحفظ المفرط (دحروج، ٢٠١٢، ٤٢).

والأصدقاء نماذج اجتماعية يتعلم منها الفرد العديد من الخبرات والمهارات وضروب من السلوك الإيجابي والسلبي، «**إللي له عين وراس يعمل زي ما بيعملوا الناس**»، ويوضح «أحمد عكاشة» أن دور الجماعة من العوامل الهامة في نشأة العنف، فالفرد الهادئ يتحول إلى فرد عنيف تحت تأثير سيكولوجية الجماعة، وأقرب الأمثلة على ذلك ما يحدث في مباريات كرة القدم من عنف غريب عن طبيعة الشخص نظرًا لتواجده في هذه المجموعة المتحمسة، فتحت تأثير الجماعة يقل التفكير المنطقي، وتبتعد القوى الاجتماعية التي تتحكم في العدوان ومن ثم تظهر جميع الاندفاعات

العدوانية المكبوتة باتجاهاتها المختلفة ناحية التحمس والعنف، فأي عمل فردي عنيف ينتشر بين الجماعة، والعنف يولد العنف، «وكأنهم يطبقون المثل القائل: **إللي يجي حينا يعمل زيِّنا**» وكذلك فمشاهدة العنف تسخدم كمؤثر في انتشار ظاهرة العنف (أحمد عكاشة، ١٩٩٣، ١٩٢).

ولذلك يقولون: «**الوحدة عبادة**»، «**الوحدة ولا الرفيق المتاعب**»، «**يا بخت من ياكل قُرصُه ويآنس الناس بحِسه**». ولا شك أن تاريخ الإنسان كله هو تاريخ العلاقة الجدلية بين الفرد والجماعة، فالفرد والجماعة هما معًا وفي آن واحد قطبي الوجود الإنساني، فلا وجود للفرد إلا من خلال الجماعة، ولا وجود للجماعة إلا من خلال أفرادها.

# الذكاء والغباء

**«الكتكوت الفصيح من البيضة بيصيح»**

الذكاء Intelligence قدرة عقلية عامة، تعتبر الوظيفة الأساسية للذهن أو العقل، وتتدخل في كافة الأنشطة العقلية بدرجات متفاوتة، ومن هنا كان تسمية الذكاء بالقدرة العقلية العامة.

ويرجع الاهتمام بالذكاء والقدرات العقلية المختلفة إلى تاريخ موغل في القدم. فقد استرعت الفروق بين الناس في هذه الجوانب وانعكاساتها على مناحي السلوك المختلفة انتباه الناس. ويرجع أول قياس للذكاء والقدرات العقلية إلى القرن الثاني قبل الميلاد على أيدي الصينيين، وفي الوقت نفسه تقريبًا قدم «أفلاطون» على يد أستاذه «سقراط» في محاورة «الجمهورية» نظرية حول القدرات العقلية، يفترض فيها تقسيم البشر إلى ثلاث فئات: الحكام والفلاسفة وهم في أعلى سلم القدرات العقلية، يليهم القادة العسكريون، ويأتي العمال والفلاحون في أدنى السلم. وحسب هذا التقسيم فالذكاء محدد وراثيًا (محمد طه، ٢٠٠٦، ١٦).

أما في الحضارة العربية الإسلامية، فربما كانت أكثر محاولات دراسة الذكاء مباشرة وعمومية هي دراسة «ابن الجوزي»[1] عن الذكاء، وذلك في كتابه عن الأذكياء، وقد ناقش فيه أثر البيئة والوراثة والعلاقة بين التكوين الجسمي والذكاء، إلا

(١) أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد القرشي (٥١٠هـ/ ١١١٠م-٥٩٧هـ/ ١١٩٧م). فقيه حنبلي ومحدث ومؤرخ، ولد وتوفي في بغداد. عرف بابن الجوزي لشجرة جوز كانت في داره، ولم يكن بالبلدة شجر جوز سواها. له مؤلفات كثيرة في التفسير والفقه والحديث والتاريخ والطب.

أن جانبين استأثرا اهتمامه: الأول الذكاء اللفظي، وهو ما يتجلى في الاهتمام بمعاني المفردات وإدراك الفروق الدقيقة بينها وكيفية التلاعب بالألفاظ، والقدرة على معرفة المعنى الواحد باختلاف الكلمات المعبرة عنه.

ومن ذلك ما أورده بسنده من حديث مالك، إذ قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ يستحمله ـ أي يطلب منه أن يحمله على دابة بغرض الغزو والجهاد ـ فقال إني حاملك على ولد الناقة. قال: يا رسول الله وما أصنع بولد الناقة؟ قال: وهل تلد الإبل إلا النوق».

والثاني: هو الذكاء العملي، أو القدرة على حل المشكلات، والتي تعتمد على إدراك المشكلة وسرعة الاستجابة لها، ومن ذلك رواية «الأصمعي»[1] عن أبيه من أنه أُتي «عبد الملك بن مروان» برجل كان مع بعض من خرج عليه فقال: اضربوا عنقه. فقال يا أمير المؤمنين ما كان هذا جزائي منك. قال: وما جزاؤك؟ قال والله ما خرجت مع فلان إلا بالنظر إليك، وذلك أني رجل مشؤوم ما كنت مع رجل قط إلا غُلب وهُزم. وقد بان لك صحة ما ادعيت، وكنت خيرا لك من مائة ألف معك. فضحك وخلى سبيله.

والذكاء عند عامة الناس مرادف «للنباهة»، وهي يقظة المرء وحسن انتباهه وتفطنه لما يدور حوله، أو لما يقوم به من أعمال، «**يفهمها وهي طايرة**»، وهم يصفون بالذكاء كذلك الشخص حسن التصرف الذي يصطنع الحيلة لبلوغ أهدافه، «**يطلع زي الشعرة من العجين**»، والذي يقدر على التبصر في عواقب أعماله، «**سفيهك داريه واعمل كحك ناعم واديه**»، وإذا اضطرته الظروف تلاقيه «**فص ملح وداب**».

والذكاء من أبرز مكونات الشخصية وأشدها خطرًا وأقواها وضوحًا وتأثيرًا، وهو يتضح في حدة الفهم وسرعته ودقته وصوابه، والقدرة على التعلم والتحصيل الدراسي، «**الكتكوت الفصيح من البيضة بيصيح**»، والقدرة على الاستفادة من

(١) أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع (١٢٣هـ/ ٧٤١م-٢١٦هـ/ ٨٣١م). راوية وإمام في اللغة. نشأ في البصرة وتعلم فيها القراءة والكتابة، ثم أتقن تجويد القرآن على أبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة، وهو أستاذه في سائر علوم اللغة والأدب.

الخبرات الماضية في مواجهة المواقف والظروف والمشكلات الحالية والتعامل معها بنجاح، «**فرق شمله يخف حمله**». ويستمتع كل فرد منا بدرجة ما من الذكاء كبرت أو صغرت، ولا يوجد فرد معدوم الذكاء حتى ضعاف العقول لهم ذكاء بدرجات منخفضة. والذكاء أكثر تأثرًا بالوراثة وأقل تأثرًا بالبيئة.

وعندما طبقت مقاييس الذكاء على نطاق واسع دلت نتائجها على أن الذكاء موزع بين الناس توزيعًا طبيعيًا، أي أن السواد الأعظم منهم متوسطون الذكاء، في حين أن النوابغ وضعاف العقول قليلون، فالذين تزيد نسبة ذكائهم على ١٤٠ لا يتجاوزون ١٪ من الناس، والذين تقل نسبتهم عن ٦٠ لا يتجاوزون ١٪ أيضًا، وقد اتفق العلماء على أن: من تزيد نسبة ذكائه على ١٤٠ يعد ألمعيًا، ومن تكون نسبة ذكائه من ١٢٠ إلى ١٤٠ يعد ذكيًا جدًا، ومن تكون نسبة ذكائه من ١١٠ إلى ١٢٠ يعد فوق المتوسط، ومن تكون نسبة ذكائه من ٩٠ إلى ١١٠ يعد متوسط الذكاء، ومن تكون نسبة ذكائه من ٨٠ إلى ٩٠ يعد دون المتوسط، ومن تكون نسبة ذكائه من ٧٠ إلى ٨٠ يعد غبيًا جدًا، ومن تكون نسبة ذكائه أقل من ٧٠ فهو ضعيف العقل أو متخلف عقليًا، فإن كانت نسبة ذكائه من ٥٠ إلى ٧٠ فهو أهوك، وإن كانت نسبة ذكائه من ٢٠ أو ٢٥ إلى ٥٠ فهو أبله، وإن كانت نسبة ذكائه أقل من ٢٠ أو ٢٥ فهو معتوه (راجح، ١٩٩٩، ٣٩١).

والعامة من الناس لا يفرقون بين هذه الدرجات، وإنما يعتبرون أي فرد غير طبيعي في ذكاءه غبي، وعن الغباء بصفة عامة في الأمثال يقول المثل: «**أساله عن أبوه يقولي هارون أخوه**»، ويقول آخر: «**إيش فهم الثور إني دكتور**»، «**الخايب خايب يطلع من الدنيا بلا نايب**»، «**الطول طول الباب والعقل عقل ذباب**»، وإذا كانت النسبة شديدة يقول المثل: «**ما يعرف كوعه من بوعه**»، والآخر يقول: «**نقول ثور يقول احلبوه**»، «**هبلة وماسّكوها طبلة**»، والغبي قد «**يذبح الطاووس لجمال ريشه**»، وإذا صام فإنه «**يصوم يصوم ويفطر على بصلة**»، وعمومًا «**من جهل قدر نفسه كان بقدر غيره أجهل**».

أما الأذكياء فتقول فيهم الأمثال: «**الفطين ما يحط راسه في الطين**»، «**كل لبيب بالإشارة يفهم**»، «**ما يذبح ديكه إلا على كنز**»، فالذكي «**زي الجني يشوفك وما تشوفه**»، و«**يعرف القرد مخبي ابنه فين**»، كما أنه «**يلعب بالبيضة والحجر**».

# الفصل الخامس

# سيكولوجية المال

# سيكولوجية المال

**«بفلوسك بنت السلطان عروسك»**

للمال مكانة خاصة في حياتنا النفسية، حيث يرتبط بكثير من الدوافع والميول والحاجات والاتجاهات، وإقبال المرء على تحقيق ذاته، أو البحث عن السعادة من خلاله. والخبرة النفسية التي يخلقها المال ليست خبرة سارة فقط، بل هي خبرة مملوءة أيضًا بالمعاناة من كثير من المشكلات النفسية والاجتماعية، «**إللي معاه مال بدَّر واشترى العالي واللي بلا مال كوع للضحى العالي**».

والمال عصب الحياة، «**القرش يلعب القرد**»، حيث يمكن الإنسان من أن يذلل كثيرًا من العقبات التي تعترضه في الحياة. بيد أن المال لا يمكن أن يساعد الإنسان في التغلب على كل العقبات، ولكنه يقوم بدور كبير في إسعاد الإنسان وحل الكثير من مشاكله، كما أنه يعطي قيمة لكل الأشياء، بل إنه يعطي قيمة للإنسان نفسه، ويدعم علاقاته مع غيره، ويرفع صاحبه درجات في السلم الاجتماعي (إبراهيم شعلان، ٢٠٠٨، ٣٢٥). والمثل يقول: «**إللي معاه مال يمشي في الطريق ويمد واللي بلا مال يمشي في الطريق ويجض**»، ويقول آخر: «**إللي معاه مال ياكل لحم بالصفيحة واللي ما معاه مال يشنك على الريحة**».

وقد لوحظ وجود علاقة إيجابية بين المستوى الاقتصادي الاجتماعي والمستوى الثقافي، إلا أن الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي مرت بها البلاد قد غيرت من هذه العلاقة، فظهرت فئات بعينها تزداد ثراء مثل التجار والحرفيين، ولم تعد المهن التي تتطلب مستوى تعليمي مرتفع هي المهن التي تدر دخلًا مرتفعًا، بل

على العكس من ذلك أصبحت التي تدر دخلًا مرتفعًا لا تتطلب تعليمًا أكاديميًا. وهذا ما أشار إليه البعض من أنه إذا كانت العلاقة بين المستوى الاقتصادي الاجتماعي والمستوى الثقافي علاقة إيجابية مرتفعة في العديد من الدول المتقدمة، فإن الأمر يختلف في الدول النامية (محمد غالب، ٢٠٠٩).

فالمال في أيدي الأغنياء وسيلة للوصول إلى العز والجاه والسيطرة، كما قد يكون وسيلة لإخضاع غيرهم من الفقراء، «**طلب الغني شقفة كسر الفقير زيره**»، لذلك نرى في بعض الأمثال الإحساس العنيف بقيمة المال حتى يقول المثل: «**الاعتبار للمال مش للرجال**»، وفي مثل آخر: «**الفلوس على كل شيء تدوس**»، «**أصلك فلوسك وجنسك ملبوسك**»، فقيمة الإنسان بما يملكه من مال «**إللي معاه قرش يساوي قرش**»، «**إللي ما معاهش قرش ما يسواش قرش**». فهو وسيلة تذلل الصعاب، وتساعد على رفاهية الأبناء: «**معاك مال إبنك ينشال ما معكشي ابنك يمشي**»، «**بفلوسك بنت السلطان عروسك**»، «**إللي يدفع القِرش يزمَّر ابنه**».

فالمال يمنح الفرد الشعور بالحماية والقوة والأمن النفسي والسلطة والبهجة والكبرياء، وفي ذلك تقول الأمثال: «**مكسح طلع يتفسح قال بفلوسه**»، «**بفلوسه الحلوة يكلم ابوه على العلوة**»، «**الدراهم مراهم تخلي للعويل مقدار وبعد ما كان بكر سموه الحاج بكار**».

في حين أن قِلّة المال أو انعدامه قد تعني كثيرًا من الجوانب المرضية المتمثلة في الخوف والضعف وعدم الاستقرار النفسي والخضوع والاستسلام والشعور بالملل والحزن وانخفاض مستوى الدافعية، فضلًا عن الشعور بالنقص والدونية «**عيبهم قلّتهم**»، ويقول آخر: «**قلتهم تحوج**»، والمراد قِلّة المال، فالشخص الغني يقول عنه المثل: «**الغني كل الناس تغني له**»، في حين يقول في الفقير: «**دلع الفقاره يجيب المرارة**»، «**الفقير ريحته وحشة**»، «**الفقير لا يتهادى ولا يدّادى ولا تقوم له في الشرع شهادة**» وفي المقارنة بين الفقير والغني يقول: «**إذا أكل الغني حيَّة قالوا من حكمته واذا أكل الفقير حية قالوا من جهالته**».

وإذا كان المال له أهمية كبيرة كما رأينا فإن الحفاظ عليه ضرورة من الضرورات،

وقد كثرت الأمثال التي تحض على الاقتصاد في الإنفاق، فيقول المثل: «**من وفَّر من غداه لعشاه ما شمتت فيه عداه**»، ويقول آخر: «**الميه في البير تحب التدبير**»، «**القِرش الابيض ينفع في اليوم الاسود**»، «**دبَّر من غداك تلقى عشاك**»، «**جوع سنة تغتني العمر**». ويعتبر الادخار هو القاعدة الأساسية لتكون رأس المال، «**جوعة على جوعة خلِّت للعويل راسمال**».

وتقوم سيكولوجية الادخار على أساس تأجيل الإشباع في الوقت الحاضر واستثماره في موضوعات مستقبلية «**اللي دبر ما جاع واللي رقع ما اتعرى**»، «**يا مستكتر الزمن اكتر**»، «**جبال الكحل تفنيها المراود، وكتر المال تفنيه السنين**» «وقد أثبتت الدراسات أن هناك علاقة بين سلوك الادخار وسلوك الاستدانة، فالذين يدخرون أموالهم بصورة منتظمة ودائمة عادة ما يكون مستوى الدافعية لديهم أكبر من أولئك الذين اعتادوا الاستدانة والاقتراض، كذلك فإن هناك بعض الفروق المعرفية الإدراكية بين الفريقين، إذ يعتقد المدخرون أن الديون والقروض هي نوع من أنواع الفشل وعدم القدرة على التوافق، في حين ينظر إليها الذين اعتادوا الاستدانة على أنها وسيلة توافقية» (أكرم زيدان، ٢٠٠٨، ١٧٦).

وعن سياسة الدين يقول المثل: «**الأخذ حلو والعطا مُر**»، «**الدين سواد الخدين**»، ويقول آخر: «**الدين ينسد والعدو ينهد**»، وإذا كان ولابد من الدين فليكن للعمل حتى تستطيع أن تسدد الدين من عائده، وفي ذلك يقول المثل: «**إدَّاين وازرع ولا تداين وتبلع**»، ومع ذلك فبعض المدينين يستهينون بأموال الدائنين ويرفضون السداد، وقد عبَّر المثل عن ذلك بقوله: «**كُل دين واشرب دين وان جه صاحب الدين فخت له عين في عين**»، في حين العلاقات الإنسانية تعتمد على الأخذ والعطاء «**من خد وادى صار المال ماله**»، ولذلك يحث المثل على دفع الدين فيقول: «**إللي يدُق صدره يدفع اللي عليه**»، أي من أظهر قدرته أولى به سداد دينه أولًا، وهنا يقول الدائن: «**عند العطا أحباب وعند الطلب أعداء**»، والمثل ينصح الدائن بقوله: «**ما يموتش حق وراه مطالب**».

وسلوك الادخار والتوفير ينفع الأبناء بعد ذلك وقد بينت الأمثال ذلك بقولها:

«**إللي ما يكون سعدُه من جدوده يا لطمه على خدوده**»، أي من لم تخلف له جدوده شيئًا يعيش فقيرًا يلطم خديه، ومرادهم من ذلك التنبيه على ترك الأموال للأبناء.

أما عندما يصل الادخار إلى حد حرمان الشخص نفسه من متع الحياة، وتجميع المال واكتنازه، والعدول عن إنفاقه في الحاضر والمستقبل، فذلك هو البُخل، وهو ضد الإنفاق والجود والكرم. والبخل يرتبط بأصحاب الأموال، فلا يُقال فلان بخيل وهو لا يملك المال! وبالتالي فهو صفة بعيدة عن الفقراء والمحتاجين؛ فالفقراء يقول عنهم المثل: «**إن عاشوا ياكلوا الدبان وان ماتوا ما يلاقوش الاكفان**»، كما أن الفقير ليس لديه ما يكنزه، «**ما عاش مالي بعد حالي**».

والبخل ممارسة لسلوك التجميع والتخزين والاكتناز بصورة مُبالغ فيها، وكأن جمع المال أصبح عِلَّة لذاته، فالبخلاء يتلذذون بتجميع الأموال، حارمين أنفسهم من مُتع الحياة، حتى أصبح المال مالكهم في الوقت الذي اعتقدوا فيه أنهم مالكوه. يقول الإمام علي ـ رضي الله عنه: عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب، ويفوته الغنى الذي إياه طلب، فيعيش في الدُنيا عيش الفقراء، ويُحاسب في الآخرة حساب الأغنياء. ويقول في موضع آخر: «**بَشِّرْ مَالَ البَخِيْلِ بِحَادِثٍ أَوْ وَارِثٍ**». وصدق أبو العتاهية إذ يقول:

إن البخيل وإن أفاد غنى ... لترى عليه مخايل الفقر

ويقول أحد الشعراء:

أمن خوفِ فقرٍ تعجلته ... وأخرت إنفاق ما تجمعُ

فصرت الفقير وأنت الغني ... فما كان ينفع ما تصنعُ

فهذا البخيل يأكل في منتصف الليل، فقيل له في ذلك فقال: يبرُدُ الماء، وينقمِعُ الذباب، وآمن فجأة الداخل وصرخة السائل وصياح الصبيان (محمد الربيع، ١٩٩٩، ٤٦). وقد بينت الأمثال البخلاء الذين يدعون الفقر من خلال أفعالهم، فهاهو يقول: «**الطباخة الشاطرة تكفي الفرح بوزة**»، «**شربة من برة توفر الجرة**»، «**وجع البطن ولا رمي الطبيخ حامض**».

ويذكر الجاحظ في نوادره عن البخلاء قصة رجل يخاطب المال فيقول: «إن رجلًا قد بلغ في البخل غايته وصار إمامًا، وكلما صار في يده درهم خاطبه وناجاه، وكان مما يقول له: كم من أرضٍ قد قطعت، وكم من كيسٍ قد فارقت، وكم من خاملٍ رفعت، ومن رفيع قد أخملت، لك عندي ألا تعرى ولا تضحى. ثم يلقيه في كيسه ويقول له: اسكن على اسم الله في مكان لا تهان ولا تذل ولا تُزعج منه»، ولذلك عند التعامل مع البخيل ينصحك المثل «**اللي تطوله احسن من عينه**»، ويقول الشاعر:

وخذ القليل من البخيل وذُمَّه إن القليل من البخيل كثير

وعلى العكس من البخل تجد الكرم «**أجود من الدهب من يجود بالدهب**»، «**بيت المحسن عمار**»، «**البير الحلو دايمًا نازح**»، لأن البير العذب الماء يكثر عنده الناس لاستعمال ماءه، وهو يضرب للكريم يضر به جوده. «**الجود من الموجود**»، «**الجيدة تنجع بسيدها**»، أي الفرس الجيِّدة تنجد صاحبها في وقت الشدة، والمقصود أن الكرم ينجد صاحبه وقت العُسر، «**هين قرشك ولا تهين نفسك**»، «**الخير على قدوم الواردين**»، «**الخير يبان على الضبة**»، «**إن كلت كل واشبع وان ضربت اضرب واوجع**»، «**لجل عين تكرم ألف عين**»، «**جحر ديب يساع ميت حبيب**».

والكرم ليس إسراف، لأن الإسراف والمبالغة في الإنفاق والاستهلاك لها عواقبها الوخيمة، ومع ذلك تجد بعض الأمثال تحض على الإسراف، مثل: «**إن طاب لك عيشك كله كله**»، «**هين قرشك ولا تهين نفسك**»، «**الزائد اخو الناقص**»، «**كل واشرب وخلي الدنيا تخرب**»، «**إصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب**». وربما جاءت هذه الأمثال لفئة من المحرومين في مجتمع لا يتسم بالثراء بقدر معاناته من الفقر.

وقد يبدو الطابع المرضي للمال متمثلًا في «الطمع»، حيث المزيد من كسب الأموال ولو على حساب الآخرين، وتقوم سيكولوجية الطامع على أساس أن ما يملكه من مال هو دائمًا قليل، وكأن المال قد خُلق من أجلهم فقط، وقد عبَّر عن ذلك المثل القائل: «**خدوا من فقرهم وحطوا على غناكم**»، وهو يضرب للغني يستنزف ما عند الفقير ليزيد به غناه.

أو عدم التحكم في سلوك الشراء الذي يمكن تصوره ممتدًا كمتصل سلوكي من

الشراء الاندفاعي الخالص في ناحية إلى الشراء القهري الخالص Compulsive Buying في ناحية أخرى، ويتأرجح بينهما سلوك مرضي أصبح يعرف في بعض أدبيات الطب النفسي وأدبيات السوق الاقتصادية بإدمان الشراء Buying Addiction، فيمكن للشخص أن يكون أقرب إلى الاندفاعية أو للقهرية في شرائه، لكن هناك قهرية واندفاعية في كل نوبة شراء مرضية، ويمكنُ تعريف إدمان الشراء بأنه الشراء المنفلت المتكرر والمُزمن والذي يُصبحُ عادةً ورَد فعل أساسي للأحداثِ و/ أو المشاعرِ السلبية، ويشمل نمط إنفاق هوسيٍ، أو لا تمكن السيطرة عليه لشراء أشياء لا يحتاجها الفرد أصلا أو لا يحتاجها حاليًا، وفي أغلب الأحيان يَخْزنها دون أنْ تُستعمل، ويشعر مدمن الشراء بنشوة غامرة أثناء عملية الشراء وأحيانًا تسبقها أو تصاحبها إثارة كبيرة، إلا أنها غالبًا ما يعقبها الندم بسبب التورط المالي الناتج عن ذلك، وكثيرون من هؤلاء يتسوقون منفردين ويضطرون لإخفاء ما يشترون عن المقربين منهم. وعن سلوك الشراء يقول المثل: «**اللي اشترى الدون بالدون رجع لبيته مغبون**»، ويقول مثل آخر: «**إللي اشترى مالا يحتاج إليه باع ما يحتاج إليه**».

وعمومًا فإن الاتجاهات النفسية نحو المال كما يرى «فرويد» إما أن تكون سلبية للغاية، ومتمثلة في البخل والإمساك، وكأن قوة قهرية تحثه على عدم التفريط في أقل القليل من ماله، وإما أن تكون إيجابية جدًا وتتمثل في الإنفاق الذي يصل إلى درجة مرضية في الإسراف والتبذير القهري. «**حبيب ماله، حبيب ماله، وعدو ماله، عدو ماله**».

ولنا الوسطية التي نادى بها ربنا في كتابه العزيز: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (سورة الإسراء، ٢٩).

# الفصل السادس

# سيكولوجية العمل والحب

## سيكولوجية العمل والحب

**«اللي أكله ما هو من فاسه رأيه ما هو من راسه»**

**«اللي مُش في القلب عنايته صعب»**

تتحدد قيمة الإنسان بمقدار ما يقدمه لنفسه ولمجتمعه من أعمال. فالإنسان في بداية حياته يحبو على أربع، ثم ينتصب قائمًا وتتحرر يداه، وتمتد إلى ما حوله يتعرف على الأشياء ويطوعها لأهداف معيَّنة من خلالها يصبح إنسانًا بكل ما تحتويه الكلمة من معاني، هذا هو ما أطلق عليه المرحوم الدكتور «فرج احمد فرج»: ميلاد اليد العاملة.

هذه اليد تمتد لتعمل وتبدع، «**العمل باب الأمل**»، وكأنها تردد المثل القائل: «**الإيد البطَّالة نجسة**»، أي أن اليد التي تعمل «طاهرة»، ويصبح العمل وكأنه عبادة. وهناك عوامل كثيرة تدفع الفرد إلى بذل المزيد من الجهد والعمل منها الحصول على المال والهروب من الفقر ومشكلاته، ومنها الطموح والتنافس والغيرة... الخ.

إن إحدى علامات الصحة النفسية للفرد هي جهوده البنّاءة، أي مدى إسهامه في إحداث تغييرات إصلاحية في بيئته، وأن يكون إنتاجه ملائم لحيويته وذكائه واستعداداته، ولعل من أشهر تعريفات الصحة النفسية تعريف «فرويد» الذي يحدد فيه الصحة النفسية بالقدرة على الحب والعمل. إذ العمل عند الكبار مثل اللعب عند الأطفال نوعًا من التعبير والتنفيس المريح.

وقد حثّت الأمثال على العمل والحركة والنشاط، يقول المثل: «**اشتغل الجمعة**

**والعيد ولا تتحوجش لاخوك السعيد»**، ويقول آخر: «**إن نام لك الدهر ما تناملوش**»، والإنسان يعمل والله هو الذي يمنح، «**إحنا ساعيين والرب يعين**»، «**إسعى يا عبد وانا اسعى معاك**»، «**إعمل اللي عليك والباقي على الله**»، وللحث على العمل ولو بالأجر القليل يقول: «**إعمل بخمسة وحاسب البطال**»، «**الزبدة ما تطلعش إلا بالخض**»، ولابد من إتقان العمل، فلا عبرة بكثرة العمل بدون إتقان «**سبع مناخل والقش داخل**»، فلابد وأن يكون العمل «**شُغل المعلم لابنه**». وإذا كان المثل يقول: «**الجوع كافر**»، أو «**لا كرامة لجائع**»، «**اللي بياكل من بيت غيره جعان**» فقد قدم العلاج في قوله: «**اللي وراه طلق ما ينامش**»، «**أكل العيش يحب الخفية**».

يقول تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ (سورة البقرة، ١٧٢)، فالدعوة إلى الأكل هنا ليست دعوة إلى الاستهلاك بقدر ما هي دعوة إلى إنتاج ما يؤكل، تمامًا كما أن الدعوة إلى الإنفاق هي دعوة إلى تحصيل ما ينفق منه، «**الإيد التعبانة شبعانة**»، ومن ثم تأتي أهمية الاكتفاء الذاتي في إنتاج ما نأكل؛ لأن «**من ملك لقمته ملك حريته**»، و«**اللي أكله ما هو من فاسه رأيه ما هو من راسه**»، بل يؤكد المثل على ضرورة العمل اليومي فيقول: «**إزرع كل يوم تاكل كل يوم**»، ومن داوم على العمل فلابد وأن يجني الكثير ولو طال الزمن «**اللي يغزل كل يوم مِية يعمل في السنة زعبوط ودفية**»، «**إحضر إردبك يزيد**»، «**بات كلب واصبح سبع**».

«وبالعمل تتحقق وحدة الإنسان والعالم، لكن العمل ليس نشاطًا فرديًا عشوائيًا، العمل دومًا نشاط اجتماعي تاريخي، العمل هو التجسد الحقيقي للوجود الإنساني، فبالعمل الاجتماعي المنتج يكسر الإنسان طوق وحدته، ويتجاوز حاجز عزلته ويحقق جوهر ماهيته بما هو إنسان، بما هو وجود في العالم، وفي نفس الآن وجود في حضرة الآخرين (فرج احمد، ٢٠٠٧، ١٢١) ومن ثم حثت الأمثال على العمل الجماعي، «**الإيد لوحدها ما تسقفش**»، «**القفة ام ودنين يشيلوها اتنين**»، «**إيد على إيد تساعد**»، وللمثل وجه آخر «**إيد على إيد تكيد**»، وأيضًا «**إيد على إيد يكبر ويزيد**»، و«**البركة في كتر الأيادي**».

إن الأشخاص الأسوياء أكثر توجهًا خارج ذواتهم، بينما يميل غير الأسوياء إلى أن يكونوا أكثر توجهًا داخل ذواتهم وأكثر تقيدًا بعالمهم الداخلي. فأصحاب الفريق الأول يبدون اهتمامًا بالناس وبالمواقف والأشياء، بل ويتلذذون من اتصالاتهم الاجتماعية أكثر من معايشتهم لعالمهم الداخلي.

ولذلك تجد المثل يسخر من الشخص غير المتعاون، أو الذي يعرض تعاونه في الوقت غير المناسب، أو بعد انفراج الأزمة فيقول: «**بعد ما طارت ساعدها بقولة هش**»، ويقول آخر «**البقرة بتطلق والعجل بيحزق ليه؟ قال تحميل جمايل**».

والعمل الجماعي له ما يناسبه من حيث النوع فلا يصح الاجتماع على عمل يمكن فعله عن طريق الفرد الواحد، حتى أن المثل يقول: «**سِت وجاريتين على قلي بيضتين**»، ويقول آخر: «**الست والجارية على صحن بسارية**».

وفي الوقت الذي وجد فيه أمثال تشجع على التكاسل كقولهم: «**اللي جرِي واللي مشي ما راحش من الدنيا بشي**»، فقد ذمت أمثال أخرى الشخص المتكاسل، والبطالة فقال: «**زي حمير التَّرَّاسة يتلكك على قولة هِس**»، «**أكل ومرعى وقلة صنعة**»، «**اللي ما لوش غرض يعجن يقعد ست أيام ينخل**»، «**قاعدة على قاعدة فات النهار وشمتت الأعدا**»، والمهمل المتكاسل يقول له المثل: «**البحر غربال الخايبة**»، فالعمل يحتاج إلى جهد وتحمل المصاعب، ولذلك قال المثل: «**مفيش حلاوة من غير نار**»، ويقول آخر: «**اللي ياكل العسل يصبر لقرص النحل**»، «**اللي ما يشقى ما يلقى**»، وإذا كان العمل إرهاق وتعب فمن الممكن تفريقه على الأيام «**فرق شمله يخف حمله**».

وفي الوقت الذي يتعاظم فيه العمل وقيمته، فماذا يقال عمَّن لا يعمل؟ «عاطل»، وبالتعبير الدارج «صايع»، والعطل من الشيء غيابه، فعندما يبطل مفعول الدواء ينتهي جوهر فاعليته ووجوده، وكذلك عندما يتوقف العمل ينعدم الوجود الإنساني، فتتراجع قيمة العمل وتنخفض الإنتاجية، ويترتب على ذلك سوء توزيع عائد العمل المتواضع أصلًا، فيتعملق الثراء، ويتعملق الفقر أيضًا.

يُتخم الأثرياء، ويجوع الفقراء، ويزحف الفساد ويواصل الزحف من أعلى إلى أسفل، ومع مواصلة الزحف يزداد اليأس ويكون الصمت.. صمت الجياع المحرومين

(فرج احمد، ٢٠٠٧، ٨٥)، وما أكثر أشكال الهروب، فكان الهروب للسرقة وعالم المخدرات، ولسان الحال يردد المثل: «**الضرورة لها أحكام**».

ولقد وصلت قيمة العمل إلى الدرجة التي جعلت الأطباء النفسيين يستخدمونه في العلاج، وهو ما يسمى بالعلاج بالعمل Occupational Therapy وهو شكل من أشكال العلاجات النفسية لتحقيق عديد من الأهداف، لأن المريض غالبًا ما يكون منسحبًا من الواقع فيصبح العلاج بالعمل وسيلة لإعادته إلى الواقع، كما أنه يعطي المريض إحساسًا بالثقة، وصدق المثل عندما قال: «**تراب العمل ولا زعفران البطالة**».

فماذا عن الحب؟ الحب يزود الفرد بطاقة عالية في وجوده المستقل، ويربطه بتيار من العلاقات الانفعالية مع شخص آخر، وينظر إلى القدرة على الحب على أنها واحدة من المؤشرات على حسن التوافق النفسي للفرد. ولقد أشرنا إلى رأي فرويد في ربطه بين الحب والعمل على أنهما العلامتان الأساسيتان للنضج والشخصية السوية. وهذا الدمج بين الحب والعمل يبينه المثل القائل: «**اعشق غزال والاَّ فُضَّها**»، فالمثل يرشدك إلى حسن الاختيار في الحب والعشق، وكذلك في العمل فإذا أقدمت على عمل ليكن إقبالك عليه كالمحبوب حتى تحسنه، وإلا فالإحجام.

فالمحب يمتلك قوة لم تكن بداخله من قبل، قوة تعكس طاقته وتساعده على الإبداع، وتجعله ينظر إلى العالم بعيون جديدة، فتتنوع أشكل الحب لديه فيحب السفر ويحب الزوجة ويحب العمل...إلخ وكأنه يطبق المثل القائل: «**ألف رفيقة ولا لزيقة**»، والشخص الذي يحب عمله يبدع فيه، على العكس من شخص آخر يعمل لسب رزقه فقط، وآخر يعمل وهو لا يحب عمله، وهذا الآخير لا يستطيع أن يقدم شيء جديد من خلال عمله، فهو يقوم بتنفيذ المطلوب منه فقط لأن «**اللي مُش في القلب عنايته صعب**»، ولسان حال عمله يقول: «**اللي يبص لي بعين أبص له باتنين**»، فإذا نظرت إلى عملك بعين الرضا جاد بالعينين.

إن كل حب يؤدي إلى حب آخر، وتعلقاتنا تميل إلى أن تكون هرمية. فحب الرجل لنفسه قد يقوده إلى التعلق بالمكانة التي يحصل عليها وسط جماعة معينة، فتظهر العاطفة والإخلاص تجاه هذه الجماعة، «**اللي يحب شيء يكتَّر من ذِكره**»، حتى إذا

كان العمل شاقًا هان تحمل الشقاء مثلما تهون المشقة بين الأحبة «**اللي يحب الكمون يتمرغ في ترابه**». ولذلك يشبه سقراط الحب بالجني العظيم أو روح كبير، وأنه ليس خالدًا ولا فانيًا، وليس حكيمًا ولا جاهلًا، وليس خيرًا ولا شريرًا، وليس قبيحًا ولا جميلًا.. وإنما هو مرتبة وسطى بين الخلود والفناء، بين الحكمة والجهل، بين الخير والشر، بين الجمال والقبح (فارس كمال، ٢٠٠٧، ١٩).

ويقول فروم: ليس الحب أساسًا علاقة بشخص معين، إن الحب موقف، اتجاه للشخصية يحدد علاقة شخص بالعالم ككل، وليس نحو موضوع واحد للحب، فإذا أحب شخص شخصًا آخر ولم يكترث ببقية رفاقه فإن حبه ليس حبًا، بل أنانية متسعة.

وإن آتاك الحب فلا تفرط فيه حتى ولو من حية «**إن حبِّتك حية اطَّوَّق بيها**»؛ لأن المؤذي لا يؤذي من أحب، أما من فاته الحب ولم يحب فهو كالحمار «**إيش قلتم في جدع لا عِشِق ولا اتمعشق قالوا يعيش حمار ويموت حمار**». يروي أحمد تيمور في أمثاله العامية قول إسحق الموصلي:

هل إلى نظرة إليك سبيل ... يرو منها الصدى ويشفى الغليل

إن ما قل منك يكثر عندي ... وكثير من الحبيب القليل

وهو يوافق المثل القائل: «**بصلة المحب خروف**»، ومع ذلك فالحب توافق «**حبني وخدلك زعبوط قال هي المحبة بالنبوت؟**»، فالحب لا يفرض ولا يحصل عليه بالقوة، فالحبيب هو ما تميل إليه النفس ولو كان عبدًا «**حبيبك اللي تحبه ولو كان عبد نوبي**»، ووجود الحبيب في حياة المحب بالدنيا وما فيها «**عيش يا حبيبي ولا تبكيني حسك في الدنيا يكفيني**»، والقلوب ليست متساوية سواء في الحب أو الهموم، وسبحان من أودع في كل قلب ما أشغله، «**قلوب عليها دروب وقلوب من الهم تدوب**»، وذلك لأن «**القلوب مش زي بعضها**».

يقول الإمام الغزالي في الإحياء عن الحب وعلاقته بالعبادة: إن المحبة هي الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا

وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، كالشوق والأنس والرضا. ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها، كالتوبة والصبر والزهد وغيرها.

ويبرز «ابن تيمية» بجانب المعنى اللغوي للعبادة جانبًا آخر لا تتحقق العبادة إلا به، ألا وهو «الحب»، فبغير هذا العنصر العاطفي الوجداني لا توجد العبادة التي خلق الله لها الخلق، فيقول في رسالته عن العبودية: العبادة أصل معناها الذل، لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له. وآخر مراتب الحب هو التتيم[١]، وأوله العلاقة، لتعلق القلب بالمحبوب، ثم الصبابة[٢] لانصباب القلب إليه، ثم الغرام وهو الحب الملازم للقلب، ثم العشق، وآخرها التتيم. يقال: تيم الله، أي عبد الله. ويقول: من خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدًا له، ولو أحب شيئًا ولم يخضع له لم يكن عابدًا له، فلا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى.

إن الإنسان في كل عصر وأوان هو الهدف، وهو الوسيلة والمقصد، هو الغاية الأسمى لكل ما يمكن أن نفكر فيه ونأمله أو نتوقعه، هو هدف أي إصلاح.. وكل إصلاح ووسيلته، وهو محور أي تقدم.. كل تقدم ومبتغاه.

(١) التتيم هو التعبد والتذلل، يقال تيمه الحب أي ذله وعبده.

(٢) الصبابة: الشوق أو رقته وحرارته، وهي مصدر صب يصب، وهي شدة الحب والشوق.

# الفصل السابع

# الثواب والعقاب

# الثواب والعقاب

**«من دق الباب سمع الجواب»**

الناس قبل قانون الأثر الذي صاغه «ثورنديك»[١] كانوا دائمًا يرون أن للعقاب شروطًا يجب أن تُراعى كي يكون مثمرًا، منها أنه يجب أن يتلو الذنب مباشرة، وألا يكون من الخفة بحيث لا يجدي، أو من الشدة بحيث يشعر بالظلم، أو من النوع الذي يجرح الكبرياء؛ كما أن الإسراف في العقاب يذهب بقيمته، كذلك الحال في التهديد دون عقاب، ثم جاءت التجارب تؤيد هذه الشروط وتزيد عليها أن الثواب أقوى وأبقى أثرًا من العقاب وبخاصة في عملية التعلم، وأن المدح أقوى أثرًا من الذم بوجه عام (راجح، ١٩٩٩، ٢٨٠-٢٨١).

والثواب شكل من أشكال التعزيز الموجب للسلوك الذي يهدف الباحث إلى تغييره أو تثبيته، وذلك بربط هذا السلوك بمجموعة من الحوافز المادية أو المعنوية. وبذلك فإن الفرد يسعى للحصول على تلك الإثابة باعتبارها تحقق له إشباعًا، ولكون المشاعر سارة فهي إذًا تؤكد الميل لتكراره، وترفع الروح المعنوية للفرد (فرج طه وآخرون، ٢٠٠٩، ٦٠-٦١).

والعقاب Punishment إيقاع الجزاء على شخص؛ لأن سلوكه مرفوض. وتتمثل العقوبة في أي شكل من أشكال عدم الرضا، مثل إيجاد مثير مؤلم ماديًا أو اجتماعيًا، أو إنكار حق الفرد في ميزة كان يحصل عليها من قبل.

---

(١) ثورنديك Thorndike (١٨٧٤-١٩٤٩) عالم نفس أمريكي، واضع نظرية التعلم بالمحاولة والخطأ، عمل طوال حياته أستاذًا بكلية المعلمين في كولومبيا.

كما أن الجمع بين الثواب والعقاب أفضل في كثير من الأحوال من اصطناع كل منهما على حده، فيستخدم العقاب لكف السلوك المعوج حتى يستقيم فيثاب عليه الفرد، «**من يزرع شيء يضمه**»، فيكون العقاب في هذه الحالة بمثابة ألم مؤقت في سبيل لذة أكثر دوامًا، علاوة على أن العقاب المعتدل مدعاة في كثير من الأحيان إلى الحذر وتجنب الأخطاء، أما العقاب الذي يجرح الكبرياء، أو الذي يتخذ شكل توبيخ علني قد تزيد أضراره على فوائده، فقد يولد في نفس المعاقب الكراهية والشعور بالنقص وفقد الثقة بالنفس.

والثواب هو تعزيز لسلوك سوي، «**من دق الباب سمع الجواب**»، ويتم ذلك بإثابة الفرد على السلوك السوي المرغوب بما يدفعه إلى تكرار نفس السلوك إذا تكرر الموقف، ويكون بأي شيء مادي أو معنوي يؤدي إلى رضا الفرد. وقد استخدم هذا الأسلوب بنجاح في علاج فقدان الشهية العصبي وحالات الخمول وحالات الانطواء وحالات السلوك المضاد للمجتمع. أما العقاب فيكون في حالة قيام الفرد بسلوك غير مرغوب وذلك لكفه ووقفه كليًا، ومن أشكال العقاب ما يكون ماديًا أو جسميًا مثل: الضرب، أو اجتماعيًا مثل: التوبيخ (زهران، ١٩٩٧، ٢٤٩-٢٥٠).

«**إللي ينوي على حرق الأجران ياخده ربنا في الفريك**»، «**جاك الموت يا تارك الصلاة**»، «**الزيادة في الوقف حلال**»، «**قالوا ياما البطيخ كسَّر جِمال قال وياما الجمال كسَّرت بطيخ**»، أي أن الجزاء من جنس العمل. «**كِلمة الفمّ سلف ولو بعد حين**»، أي سترد الكلمة لصاحبها عاجلًا أو آجلًا فيجازى بمثله، ومثله المثل القائل: «**كله سلف ودين حتى المشي على الرجلين**». (ثواب)، «**من رش دش**»، أي من بذر الأرض كان له حب يدشه، وهو من باب: «**من جد وجد**». «**من قدم السبت يلقى الحد قدامه**» فإن قدم خيرًا وجده خيرًا، والعكس.

وتجدر الإشارة إلى أن التربية التي تقوم على العنف والتعسف والقهر والتسلط ومصادرة الحرية، هي أقصر الطرق لتحطيم الفرد، وتدمير المجتمع. فالتربية لابد وأن تسعى إلى تفجير طاقات الفرد، وبناء شخصية الإنسان بشكل شامل ومتكامل ومتوازن، كما يجب أن نضع نصب أعيننا إعداد الفرد المفكر والمبدع والمتفوق،

حتى نتمكن من إيجاد فرد قادر على مواجهة زمان أصبح للعولمة فيه تأثير كبير في العالم بشكل عام، وفي الوطن العربي بشكل خاص، مع ما تفرضه من تحديات وتوجده من قضايا، وتفتحه من آفاق وفرص، وتجلبه من مشكلات. ولا يمكن للثقافة العربية مواجهة هذا التحدي إذا لم تسندها تربية قوية وحرة وديمقراطية (يزيد السورطي، ٢٠٠٩، ٨).

يقول محسن خضر: إن الاستبداد والتسلط كإرث سياسي وثقافي نجد صداه وتجلياته عبر وسائط التنشئة الاجتماعية المختلفة، وبالتالي فإن مواجهة شتى صور انتهاكات كرامة الإنسان وحقوقه، وخاصة داخل المؤسسات التعليمية رهينة إلى حد كبير بفهم وتقويم الاستبداد السياسي والثقافي في المجتمع الكبير (محسن خضر، ٢٠١١).

# الفصل الثامن

# مشكلات نفسية

# الخواف

**«زي ولاد الكُتَّاب ينسرعوا من أول كف»**

تمثل حياة الإنسان في كل ما يمُر به من مباهج ومسرات، إلى جانب ما يعتريه من مخاوف ومخاطر، ويتأرجح شعور الإنسان بين الرغبة وإشباعها، والآلام ومحاولة القضاء عليها أو تجنبها وتحاشيها. والخوف رد فعل في جسم الإنسان، في مواجهة شيء يهدد سلامته. إنه رد فعل يحدث داخل الإنسان، ورد الفعل هذا يكون حالة انفعالية يشعر بها الإنسان بمستويات مختلفة وبدرجات متعددة حسب المؤثر.

ويضع علماء النفس «الخوف» على رأس قائمة الانفعالات الأصلية التي يواجهها الإنسان منذ نعومة أظفاره، وإذا كان الإنسان هو الموجود البشري الذي لا يكاد يكف عن البحث عن الأمن، فما ذلك إلا لأنه مهدد في كل لحظة بعديد من الأخطار، فهو يتأرجح بين مخاوف تأتيه من البيئة المحيطة، وكذلك المخاوف التي تأتيه من داخله. ويظهر الخوف من خلال تلك الهواجس التي تعتري الإنسان، فنراه في بعض الأحيان يخاف المرض والفشل والتعرض للكوارث... الخ. وبطبيعة الحال فإن الإنسان في مواجهته لهذه الأمور يحتاج دائمً إلى أن يحقق هذا الحنين الدائم والمستمر، وهو حاجته إلى الأمن والطمأنينة.

فالأمن يعني التحرر من الخوف أيًا كان مصدره. يشعر الإنسان بالأمن متى كان مطمئنًا على صحته وعمله ومستقبله وأولاده وحقوقه ومركزه الاجتماعي. فإن حدث ما يهدد هذه الأشياء، أو توقع الفرد التهديد فقد شعوره بالأمن. ولذلك يقول المثل: **«مطرح ما تآمن خاف»**.

إن الخوف استعدادًا فطريًا داخل الإنسان، يساعد الإنسان على أن يحمي نفسه، ويدافع عن نفسه ليعيش في أمان. إنه استعداد أوجده الله في الإنسان والحيوان، رغم أن طريقة الاستعداد تختلف من حالة إلى أخرى، ومن موقف إلى موقف، إلا أنه يمس كل إنسان، فلا يوجد إنسان لا يخاف. ولو أننا قلنا إنه يوجد شخص لا يخاف، فإن انعدام الخوف يكون ناشئًا إما عن قلة الإدراك أو عن نقص في الطاقة العقلية. فالطفل الذي يضع يده في النار لا يدرك أن النار ستحرقه، والبالغ يتصرف في المخاطر وهو لا يخاف منها لنقص إدراكه العقلي (صموئيل حبيب، ١٩٨٩، ٩).

والفرق بين الخوف العادي والخوف المرضي أن الخوف العادي غريزي، وهو حالة يشعر بها كل إنسان في حياته العادية حين يخاف مما يخيف فعلًا مثل: حين يشعر الفرد باقتراب حيوان مفترس ينفعل ويقلق ويسلك سلوكًا ضروريًا للمحافظة على الحياة وهو الهرب.

وفي ذلك يقول المثل: «**من خاف سلم**»، كما أن «**الخوف يربي الجوف**»، أي أن الخوف يربي المرء ويمنعه من ارتكاب ما يعاقب عليه، «**مين يقدر يقول يا غولة عينك حمره**»، هذا هو الخوف العادي الفطري، وهي انعكاسات سليمة تصاحب الإنسان في مواقف واقعية تستدعي الخوف، «**إللي انت خايف منه هَلبَتُّ عنُّه**»، أي لابد منه، ومن الأمثال الدالة على الخوف العادي الطبيعي: «**نام لما ادبحك قال ده شيء يطير النوم من العين**».

أما الخوف المرضي فهو خوف شاذ لا يعرف المريض له سببًا، وقد يكون وهمي أو غير حسي، كالخوف من الموت أو الخوف من العفاريت... الخ. وقد يُعبر المثل عن ذلك بقوله: «**قولة هش تربي الغش**»، وهو يُضرب في أن الفزع يضر بالشخص. والخوف المرضي يطلق عليه: **الفوبيا: Phobia** وهو خوف مرضي من موضوع أو شيء أو موقف لا يستثير عادة الخوف لدى عامة الناس وأسوياءهم. ومن هذا اكتسب طابعه المرضي. كالخوف من الأماكن المفتوحة، والذي يبدو من خوف المريض من البقاء في الأماكن المفتوحة، فإذا دخل غرفة أو منزلًا لا يستريح إلا إذا أغلق الباب، ويظل قلقًا حتى تغلق جميع النوافذ وهكذا.. فكأن الفوبيا خوف شديد من

أشياء ومواقف نوعية لا حصر لها. وقد تعبر الأمثال التالية عن ذلك: «**زي القرود يخاف من خياله**»، حيث يضرب المثل للشخص شديد الفزع، حيث يرون أن القرد إذا رأى خياله في المرآة فزع فزعًا شديدًا. «**زي ولاد الكُتَّاب ينسرعوا من أول كف**»، أي يضطربون من الخوف، ويعلوا صياحهم من أول صفعة يصفعونها، وهو يُضرب لمن يفزع من أول هول يصادفه. ولذلك قال ﷺ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى».

والمخاوف المرضية لا تستند إلى مسوغات عقلية؛ لأنها تعتمد على هواجس غريبة وأفكار واهمة لا تستند إلى واقع، ولذلك ينصح المثل فيقول: «**إللى تحط رجلك مطرح رجله ماتخافش منه**»، «**إللي تخاف منه ما يجيش احسن منه**»، «**ما عفريت إلا بني آدم**»، «**إللي يخاف من العفريت يطلع له**».

ويُرجع أصحاب المدرسة السلوكية الخوف المرضي إلى التعلم الشرطي، كما يحدث في حالة خبرة مخيفة وقعت في الطفولة، حيث تنتقل استجابة الخوف من المثير الأصلي الذي سبب الخوف إلى مثير اقترن به شرطيًا. «**مالك مرعوبة قالت من ديك النوبة**»، أي قيل لها مالك مرعوبة إلى هذا الحد؟ قالت مما حدث في المرة السابقة. أي أن المثير الشرطي الذي لم يحدث الخوف أصلًا قد اكتسب صفات غير المثير الأصلي فأصبح يثير الخوف دون وضوح، وهو ما يُعبر عنه المثل القائل: «**إللي قرصه التعبان يخاف من الحبل**»، «**إللي يخاف من القرد يركبه**». وبذلك يكون من أهم أعراض الخواف: الامتناع عن مظاهر السلوك العادي، مثل الامتناع عن الأكل في المطاعم، وهكذا. وقد يعبر عن ذلك المثل القائل: «**إللي يخاف من العِرسة ما يربيش كتاكيت**».

ومما تجدر الإشارة إليه أن التحليل النفسي لا يميل إلى تعبير الخوف، ويفضل استخدام مصطلح «حصر» أو «قلق» باعتباره تلك الحالة الوجدانية التي تعتبر إشارة إنذار تأتي الأعراض والأمراض بعامة للسيطرة عليه. كما أن هناك حصر واقعي Real-istic Anxiety وهو ذلك الخوف الناجم عن خطر خارجي واقعي. وفي كل الأحوال فإن الحصر في التحليل النفسي لا يعتبر مرضًا، بل هو مجرد إرهاص باندلاع المرض (فرج طه وآخرون، ٢٠٠٩، ٥١٤).

## هُذاء البارانويا

**«زي مرزوق يحب العلو ولو على خازوق»**

مرض يتميز بوجود هُذاء منظم وثابت، مع احتفاظ الشخصية عادة بإمكانياتها العقلية دون تدهور ناتج عن استمرار فترة المرض، فيظل ذكاء الفرد وذاكرته ومعلوماته دون أن يصيبها الضعف، ويلاحظ أن محور تصرفات المريض يدور حول هذائه الذي يعتقد تمامًا في صدقه ولا يشك فيه للحظة. ويكثر ظهور الهُذاء في مرحلة الرُشد وخاصة في الأربعينات، وينتشر بين الذكور أكثر من الإناث. فهو «**زي الطاووس يتعاجب بريشه**».

وصاحب هذه الشخصية في طفولته يتسم بالعُزلة الاجتماعية، والتقلب الانفعالي، والعناد، وكلما نما الفرد نحو الرشد تتسم شخصيته بشدة الحساسية ومشاعر الاضطهاد أو العظمة، والأنانية، والتمركز حول الذات. وفي الرُشد يتصف بالجمود والتزمت والاستخفاف بالآخرين والتسلط على من هم دونه (حامد زهران، ١٩٩٧، ٥٤٤). «**فجل يا كلاب**»، «**كلب اجرب وانفتح له مطلب**».

هذه الشخصية تدور حول محور الشك وسوء الظن، فصاحبها لا يثق بأحد ويتوقع الإيذاء من كل الناس، ويجد في كل كلمة أو فعل سخرية منه أو انتقاصًا من قدره، ولذلك نجده دائم الحظر من الآخرين، ويكافح طوال عمره ليقوي ذاته ويحمي نفسه من الآخرين الأعداء، وهذا الشك والحذر وعدم الولاء للناس يدفعه للعمل الجاد والشاق لكي يصل إلى المراكز العُليا في مجال تخصصه، وهو حين يحقق ذلك يمارس السيطرة والتحكم في الناس (محمد المهدي، ٢٠٠٧، ٤٥). ولسان من

حوله ينطق بالمثل: «**من بره هلا هلا ومن جوه يعلم الله**»، «**حسنة وانا سيدك**»، «**إيش كبَّرك عنه وانت ابن عمه**».

ومن الأمثلة الدالة على هذه الشخصية «ستالين»، فبعد أن حكم الإتحاد السوفيتي لسنوات طويلة لاحظ المسؤولون أنه بدأ يشك في كل من حوله، واقترحوا عليه أن يجلس مع مجموعة من أكبر الأطباء النفسيين، وحدث اللقاء، وكتب الأطباء التقرير العلمي، وجاء فيه أنه يعاني من اضطراب البارانويا الذي يدفعه إلى الشك في كل من حوله. وتلك صفة ملازمة لكل المسؤولين الذين يبقون في أماكنهم لسنوات طويلة؛ لأن الشخص هنا يشعر بالتمركز حول الذات، وأنه رمز هذا البلد وأنه المخلص له، ولذلك يجب التخلص من أي معارضة لحكمه. وهذا ما حدث من «استالين» إذ ما كاد يقرأ تقريرهم حتى أمر بإعدامهم جميعًا.

لقد أطلق البعض على هذه الشخصية هذاء العظمة أو هذاء الاضطهاد. وفي هذاء العظمة أو توهم العظمة delusions of grandeur يعتقد الفرد أنه شخص عظيم، أو حاكم أو زعيم وقائد أو بطل أو مخترع أو نبي... الخ، ويؤمن بأهميته وتفوقه وامتيازه وعظمته، ويلاحظ عليه الحديث عن الذات والتعالي والمفاخرة، وكأنه يطبق على نفسه المثل القائل: «**يا أرض اتهدي ما عليكِ أدي**»، في حين أن الناس ينظرون إليه نظرة أخرى: «**زي براغيت القنطرة عري وزنطرة**»، «**زي ديك الخمسين عريان ومزنطر**»، والزنطرة هي التعالي والتكبر، ويُضرب المثل للصعلوك المتبجح المتعالي وهو عريان لا يجد ما يستره، وكذلك المثل القائل: «**أمه عياشة وعامل باشا**»، فهو «**زي الغراب يتعاجب بعوار عينه**»، إنه يحب التعالي على غيره ولو بما فيه هلاكه: «**زي مرزوق يحب العلو ولو على خازوق**»، والبعض منهم يتعالى ويفتخر بشيء بعيد عنه متمسحًا به، فهو «**زي الأغوات يفرحوا بولاد أسيادهم**»، و«**أسأله عن ابوه يقول خالي شعيب**»، «**القرعة بتتباهى بشعر بنت أختها**»، «**مالك بتجري وتشلحي قالت مفتاح القوالح معي**»، وفي الحقيقة «**إيش انتي في الحارة يا منخل بلا طارة**».

يقول أحد الشعراء:

تـواضـع تكن كالبدر لاح لناظرِ  على صفحات الـمـاء وهـو رفيعُ

ولا تـكُ كـالـدخـانِ يعلو تجبُّرًا على طبقات الجو وهـو وضيعُ

أورد شارح[١] مقامات الهمذاني[٢] عند تعليقه على المقامة المارستانية حوارًا يبين لنا صاحب هذه الشخصية فقال: قال أبو بكر الأزهر: حدثني المبرد قال: قال لي المازني: أنت تنصرف من مجلسنا إلى مواضع المجانين والمعالجين، فما معنى ذلك؟ قال: قلت: أعزك الله تعالى إن لهم طرائف من الكلام. قال: فأخبرني بأعجب ما لقيته من المجانين. فقلت: دخلت يومًا إليهم فمررت على شيخ منهم وهو جالس على حصير، فجاوزته إلى غيره، فقال: سبحان الله.. أين السلام؟ من المجنون أنا أم أنت؟ فاستحييت منه فقلت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال: لو كنت ابتدأت لأوجبت علينا حسن الرد، على أنَّا نصرف سوء أدبك على أحسن جهاته من العذر، لأنه كان يقال: أن للقادم على القوم دهشة. إجلس أعزك الله، فقال لي وقد رأى معي محبرة: أرى معك آلة رجلين أرجو ألا تكون أحدهما، أمجالس أصحاب الحديث الأغثاث أو الأدباء أصحاب النحو والشعر؟ فقلت: الأدباء. قال: أتعرف أبا عثمان المازني؟ قلت: نعم. قال: أتعرف الذي يقول فيه:

وفـتـــى مـــن مـــازن أســتـــاذ أهـــل الـــبـصـــرة

أمـــــه مـــعـــرفـــة وأبـــــوه نـــكـــرة

فقلت: لا أعرفه. فقال: أتعرف غلامًا له نبغ في هذا العصر معه ذهن وله حفظ وقد برز في النحو يعرف بالمبرد؟ فقلت: أنا والله عين الخبير به. قال: هل أنشدك شيئًا من شعره؟ قلت: لا أحسبه يحسن قول الشعر. قال: يا سبحان الله! أليس هو القائل:

حـبـــذا مـــاء الـعـنـاقـيـد بـــريـــق الـغـانـيـــات

بـهـــمـا يـنـبـت لـحـمـي ودمـــي أي نـــبـــات

(١) هو محمد محي الدين عبد الحميد.

(٢) أبو الفضل أحمد بن الحسين بديع الزمان الهمذاني. نشأ بهمذان إحدى مدن فارس، درس العربية والآداب وبرع فيها، ثم غادرها سنة ٣٨٠هـ وهو في سن الشباب. توفي سنة ٣٩٨ هـ وهو في سن الأربعين.

أيـــــهـــا الـــطـــالـــب أشـــهـــى مـــــن لـــذيـــذ الـــشـــهـــــوات
كـــــل بـــمـــــــاء الـــمـــزن تـــفـــاح خـــــدود الـفـتـيـــات

قلت: قد سمعته ينشد هذا في مجلس الأنس. فقال: يا سبحان الله! أو لا يستحي أن ينشد مثل هذا الكلام حول الكعبة؟ ثم قال: وما تسمع ما يقولون في نسبه؟ فقلت: يقولون: هو من الأزد، أزد شنوءة ثم من ثمالة. قال: قاتله الله، ما أبعد غوره! أتعرف قوله:

سـألـنـــا عـــن ثـمـالـة كـــل حي فـقـال القائلون: ومـــن ثمالة؟
فـقـلـت: محمد بـــن يـزيـد منهم فـقـالـــوا: زدتـنـــا بـهـم جهالة
فـقـال لـي الـمـبـرد: خـل قومي فـقـومـي مـعـشـر فـيـــهـم نـذالـة

فقلت: أعرف هذا العبد الصمد بن المعدل يقولها فيه. فقال كذب من ادعاها، هذا لرجل لا نسب له يريد أن يثبت له بهذا الشعر نسبًا. فقلت: أنت أعلم. فقال: يا هذا قد غلبت خفة روحك على قلبي وقد أخرت ما كان يجب تقديمه، ما الكنية أصلحك الله؟ قلت أبو العباس. قال فما الإسم؟ قلت: محمد. قال فالأب؟ قلت يزيد. قال: قبحك الله، أحوجتني إلى الاعتذار مما قدمت ذكره. ثم وثب باسطا يده يصافحني، فقال: يا أبا العباس صن نفسك عن الدخول إلى هذه المواضع فليس يتهيأ أن تصادف مثلي على مثل هذه الحالة، أنت المبرد أنت المبرد، وجعل يصفق.

وقد ورد في القرآن الكريم قصة علو فرعون واستكباره، قال تعال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (سورة القصص، ٤) وفرعون هذا نموذج مثالي تتوفر فيه هذه الشخصية بوضوح، حتى أنه أصبح قائدًا ومعلمًا لكل المستبدين ومجانين العظمة، فالمستبد متكبر ويتعالى على الناس ويستضعفهم، ولسان حاله ينطق بالمثل: «**أنا أمير وانت أمير مين يسوق الحمير؟**»، «**لما انا ست وانتِ ست مين يكب الطشت؟**».

لقد وصل الاستعلاء والطغيان إلى حد المرض: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ (سورة يونس، ٨٣) وشخصية المتعالي المستبد أقرب ما تكون من

النمط البارانوي، حيث تتضخم الذات أكثر وأكثر حتى تبتلع كل من حوله ويصبح هو والوطن شيء واحد، فتسمع عن البلد باسم رئيسها فمثلًا: (مصر مبارك، وأرض الحجاز باسم آل سعود). ويرد المثل على هذه الشخصية عندما تصل إلى هذا الحد بقوله: «**زي ما تكون لي أكون لك مانتش رب أخاف منك**»، وعن تصريحاته الكثيرة «**قاعد على نخ وعمال يجخ**».

وعندما يصل المتكبر المتعالي المستبد إلى هذا الحد من العلو يشعر بملكيته لمن حوله، ويطالبهم بالطاعة والانقياد، ولا يسمح بالمخالفة أو المناقشة، في حين يقول له المثل: «**حُط راسك بين الروس واوعى عليها بالقطع**»، حيث يُضرب في الحث على عدم التعالي على الناس، «**حط راسك وسط الروس تسلم**»، لعدم التعالي على الناس أيضًا.

وهكذا يقترب من التأله، فيرهب الناس بالتعالي والتعاظم، ويذلهم بالقهر وسلب المال حتى لا يجدوا ملجأ إلا التزلف له وتملقه. أما هو فيتخذ بطانة من أهل الدين يعينونه على ظلم الناس باسم الدين حتى يصل الأمر لإطلاق صفات لا تليق بأحد إلا الله أو رسله، وقد رأينا من رجال الدين من وصف الحاكم وشبهه بالرسول، ومنهم من أكد أنه من أهل البيت.

وإذا لم يتعظ فقد يصل في النهاية إلى حد الاعتقاد بألوهيته، وهو ما وصل إليه فرعون حين قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (النازعات، ٢٤). والسؤال الذي يطرح نفسه: ما الذي جعله يصل إلى هذا الحد؟ والإجابة ببساطة شديدة هم من حوله من أسرته إذا كان شخصًا عاديًا، ومن حوله من المرؤوسين إذا كان رئيسًا في عمله، ومن حوله من حاشية وشعب يستعذب الألم والخزي إذا كان من الحكام، حتى إذا حاول هو في لحظة صدق أن «يتنحى» وأن تعود الجماهير إلى رشدها، فإن الجماهير ترفض ذلك، وتؤثر الاستمرار في الحلم اللذيذ على العودة إلى الواقع المؤلم، وقد سخر المثل من هؤلاء حين قال «**أحه أحه لن تتنحى**»، وهنا يجد الزعيم نفسه مضطرًا لمجاراة الجماهير في حلمها التي لا تريد أن تفيق منه، وكأني أستمع إلى المثل يقول: «**يا فرعون إيش فرعنك قال مالقيتش حد يردني**».

ويوضح ابن مسكوية في «تهذيب الأخلاق» مجموعة من المحكات التي تميز الإنسان الصحيح نفسيًا، ومنها أن يبتعد عن العجب والافتخار، فيقول: «فالعجب ظن كاذب بالنفس في استحقاق مرتبة هي غير مستحقة لها، والدليل على ذلك أن الفضل مقسوم بين البشر، ولا يكمل الواحد منهم إلا بفضائل غيره، وكل من كانت فضيلته عند غيره فواجب عليه أن لا يعجب بنفسه، وكذلك أيضًا الافتخار، فإن الفخر هو المباهاة بالأشياء الخارجة عنا، ومن باهى بما هو خارج عنه فقد باهى بما لا يملكه»[١].

فالإعجاب بالنفس الذي حدثنا عنه ابن مسكوية هو بلغة علم النفس «الشخصية النرجسية»، وهي صفة ملازمة للشخص المتكبر المتعالي أيضًا، فتجده يمشي كالطاووس مهتمًا بشياكته وأناقته وصورته لدى الآخرين، ويجري توحدًا بينه وبين زعماء التاريخ، ولا يتحمل النقد من أحد، وإذا تجرأ الناس على نقده سعى في تأديبهم، وربما سن القوانين التي تحرم العيب أو النقد في ذاته (محمد المهدي، ٢٠٠٧، ٢٢-٢٣).

والأمثال في ذلك كثير: «**إللي عطاك يعطينا**»، «**زي شحات الترك جعان ويقول مش لازم**»، «**زي الطبل منفوخ على الفاضي**»، «**الشهر تلاتين يوم والناس تعرف بعضها من زمان**»، أي أن نظام الكون لم يتغير، والناس يعرفون بعضهم بعضًا، فلماذا التعاظم والتكبر. «**العِجب قاتلنا مش بخاطرنا**»، والعِجب أي الإعجاب بالنفس، وهو يضرب لمن كان الكبر والإعجاب بالنفس في طبعه، وأنه ليس باختياره، وكأنه حالة مرضية، لا يستطيع الإقلاع عنها. «**كُبر النفس قطع نصيب**»، «**نفخة وشمخة وبصلة في الجيب**»، يضرب للفقير المعدم المتكبر.

(١) أنظر: تهذيب الأخلاق لابن مسكوية، ص١١١-١١٤.

# الكذب

**«ما ينوب الكذَّاب إلا سواد وشُّه»**

يُعد الكذب بوجه عام انحرافًا نفسيًا، وكثيرًا ما تشبه الأكاذيب بالرداء الذي يخفي معالم النفس. وهناك ضروب شتى وأنواع مختلفة من الأكاذيب ولكل منها مغزاه وما يرمي إليه، فهناك الكذب الاعتيادي، وهناك الكذب المرضي. فعندما يذكر الكذب في موقف من المواقف فإن الذهن ينصرف إلى القيم الدينية والأخلاقية، باعتبار أن الكذب شر، ونحن بالطبع لا نعترض على ما تقره القيم الدينية والأخلاقية، بل نضيف الزاوية السيكولوجية إلى الزاوية التقيمية التي تتعلق بالخير والشر.

ولقد حاولت مدرسة التحليل النفسي معالجة الكذب القهري الذي يقترن عادة بالهستيريا، وذلك حينما يصبح الكذب عادة مستحوذة على نفسية الشخص، وتصبح لغته نسيجًا من الأكاذيب (عادل الأشول، ١٩٨٢، ٥٦٤). وفي ذلك يقول المثل: «**إن قال لك الحرامي على الباب نام وطرطر رجليك**»، وهو يضرب للكذوب الذي لا يصدق في شيء، ويقول آخر: «**إيش عرفك انها كدبة قال كُبرها**»، أي المبالغة في الخبر أدت إلى تكذيبه، وللكذوب المبالغ ي كذبه يقول: «**أكذب من اخوات يوسف**».

وعندما يصل الفرد إلى مرحلة المراهقة (هو/ هي) فإنه يشعر بأن ما تخاذل بإذائه أثناء فترة الطفولة مازال يعشش في وجدانه، ويهيمن على عقله، ولذلك تجده يندفع نحو التخلص من تلك الركامات النفسية التي ما تزال تؤرقه. وهنا يجد الشخص نفسه في مقارنة بين الصدق مع النفس والكذب عليها، فإذا التزم بالصدق مع النفس فإنه

يستشعر شقاء الحياة ويصطدم بالواقع المرير، ومن هنا يلجأ إلى الخيال والكذب على الذات (يوسف ميخائيل، ١٩٨٩، ٢٩).

والصدق عكس الكذب، وهو مطابقة الخبر للواقع، وهو مطلوب من الإنسان في قوله وعمله واعتقاده، وقد أمر الله بالصدق في عدة آيات من كتابه، وأثنى على الصادقين فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (التوبة، ١١٩)، وأخبر أنه أعدّ لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا ومدح الصادقين والصادقات. والصدق أحد أبعاد الشخصية الصحيحة نفسيًا، وهو لا يقتصر على القول فقط، بل لابد وأن يكون الإنسان صادقًا في قوله وفعله، فالكذب كما يقول المثل: «**الكدب مالوش رجلين**»، لأن الكذب يؤدي إلى الصراعات النفسية، «**ما ينوب الكداب إلا سواد وشُّه**»، كما أن «**شمعة الكداب ما تنورش**»، ومن يكذب اليوم يظهر كذبه غدًا «**إللي يكذب نهار الوقفة يسود وشه نهار العيد**»، وأيضًا «**على وشك يبان يا مضاغ اللبان**» وفي مقابل الصدق وخصائصه المستحسنة، يكون الكذب بمضاره وقبحه، ويكون اللسان ترجمان الإنسان عن أحاسيسه الداخلية، فلو كان الكذب ناشئًا من الحسد والعداوة فهو من رشحات الغضب الخطيرة، ولو كان من الطمع أو العادة فهو من آثار الشهوة المتأججة في الإنسان.

يقول النبي ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»[1].

فالتحري والإصرار على الكذب هو ما يجعله مرضًا، ويقول المثل: «**إن كان الكدب حُجة يكون الصدق أنجى**»، وأعظم الكذب هو الكذب على الله، وقد قال المثل في ذلك: «**ربك وصاحبك لا تكدب عليه**»، لأن ربك عالم بكل شيء فلا يصح أن تكذب على الله، وصاحبك لا تكذب عليه لأن ذلك ينافي الصداقة.

(١) متفق عليه.

وقال ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما»[١]، فالبركة مقرونة بالصدق والبيان، والتلف والمحق مقرون بالكذب والكتمان. والمشاهدة والواقع أكبر دليل على ذلك، لا تجد صادقًا إلا مرموقًا بين الناس بالمحبة والثناء والتعظيم، يحوز الشرف وحسن السمعة والاعتبار، ويتسابق الناس إلى معاملته وبذلك تتم له سعادة الدنيا والآخرة، وهذا بخلاف الكذب المرذول، «**قاعد على نُخ وعمال يجُخ**»، فكلما أفرط المرء في الكذب والإخبار بما لم يقع عرف عند الله وعند خلقه بأنه كذاب، فلا يقام له وزن ولا يأمنه أحد على شيء، فالكاذب يجني على نفسه قبل أن يجني على أحد، لا سيما إذا تحرى الكذب حتى يكتب كذابا في السماء والأرض، «**مكتوب على باب السما الكدب ما يجيش الحِما**»، فالكذب دليل على حقارة الكذاب وخيانته. قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان». ويقولون في الأمثال: «**قالوا للحرامي احلف قال جا الفرج**»، لأنه لا يتأخر عن الحلف كاذبًا، «**قالوا لحرامي الدقيق احلف قال انخلي يا مرة**».

إن الكذوب لا يدع لنفسه فرصة للتفكر، بل إنه يتخيل أن لا يطلع على سره أحد، فتجده يصاب في حديثه بالخطأ والتناقض والنسيان، حتى أن المثل يقول: «**الكداب نسَّاي**»، ولعل من عوامل انتشار الكذب وما سببه من فساد مجتمعي انتشار المثل القائل: «**كذب مزوق خير من صدق مبعثر**» أو «**كذب مصلح خير من الصدق المفسد**» أو «**كدبة بيضة**»... الخ.

وقد كثرت الأمثال في موضوع الكذب، ومنها: «**تنَّك ورا الكداب لحد باب الدار**»، أي سايره ولا تجادله في كلامه فيظهر لك كذب ما سمعته، «**ضحكوا على السقا قال من حقًّا**»، أي كذبوا عليه لسذاجته فصدقهم وظنه حقًا. «**الفشر والنشر والعشا خبيزة**»، يضرب للمتفاخر الكاذب، «**فين عزمك يا فشَّار آدي السيف وادي صاحب التار**»، «**الكداب تنحرق داره**»، «**المية تكدب الغطاس**»، «**يحلف لي أصدقه أشوف أموره استعجب**»، «**يفوتك من الكداب صدق كتير**». ومما تجدر الإشارة إليه

(١) البخاري ومسلم.

أن الكذب ينتشر بالتبعية في الأسر التي يوجد بها نماذج تستخدم الكذب لتبرير أفعال معينة سواء كان ذلك اجتماعيًا أو مرضيًا.

وقد خطب الحجاج بن يوسف يومًا، فأطال الخطبة، فقال أحد الحاضرين: الصلاة فإن الوقت لا ينتظرك، والرب لا يعذرك، فأمر بحبسه. فأتاه قومه وزعموا أن الرجل مجنون، فقال الحجاج: إن أقر بالجنون خلصته من سجنه، فقال الرجل: لا يسوغ لي أن أجحد نعمة الله التي أنعم بها عليَّ وأثبت لنفسي صفة الجنون التي نزهني الله عنها. فلما رأى الحجاج صدقه خلى سبيله. وأخيرًا استمع إلى قول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وهو يقول: لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى ينكت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه فيكتب عند الله من الكاذبين[1]. أليس ذلك هو الكذب المرضي؟

(١) رواه مالك في الموطأ.

# الاغتـراب

**«فقر المرء في وطنه غربة»**

يُطلق لفظ الاغتراب عادة على البُعد عن الأهل أو الوطن. وفي الغُربة يقول المثل: «**الغُربة تعلم**»، حيث لا يوجد أحد يعتمد عليه من أب وأم وأصدقاء، «**من خرج من داره اتقَّل مقداره**»، كما أن «**البعيد عن العين بعيد عن القلب**»، «**غُربة ودلاعة**»، أي أنه لم يتغرب إلا للترف وليس للعمل، وهنا يكون الرد «**الحجر الداير لابد عن لطه**»، وقد يأتي أمر الله في السفر لذلك يقول المثل «**اللقا نصيب**»، وخوفًا عليه من السفر يقول «**رب هنا رب هناك**»، لأن «**البعد جفا**».

وفي هذه الغربة لابد للفرد أن يحسن التصرف في معاملته للآخرين «**الغريب لازم يكون أديب**»، لكنه يطلق اصطلاحًا في العلوم الاجتماعية على فقدان الفرد لذاته، واغترابه عنها، فيستنكر أعماله وكأنها غريبة عليه، ويستنكر ذاته حتى يكره الحياة ذاتها، ويبتعد عن المجتمع الذي يعيش فيه ويعتزله، مما يعتبر ضربًا من الاضطراب النفسي في نهاية المطاف أو عرضًا من أعراضه.

والاغتراب خاصية وجودية مميزة للإنسان بما هو إنسان، قديمة قِدم الإنسان نفسه، فهو المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن ينفصل عن نفسه، وقد ينفصل عن مجتمعه أو عالمه، وقد يعيش الإنسان الاغتراب وكأنه جزءا من حياته، ومكونًا من مكوناته النفسية والاجتماعية دون أن يعي أنه مغترب (إبراهيم عيد، ١٩٩٠، ٧). «**اللي ما تصبحه وتمسيه ما تعرف إيه جرى ليه**».

كما أن المغترب لا يحيا منفصلًا عن نفسه فحسب، بل عن إخوانه في المجتمع،

وعن العمل وعن الأشياء المحيطة به التي يجهلها وإن كان يستهلكها، وعن الحكومة التي تدبر أمره، حتى أصبح شخصية مسيرة ليس له أن يختار، وإذا صارت الأمور على هذا النحو بغير إصلاح فسينتهي الإنسان حتمًا إلى مجتمع مختل توازنه؛ لأن الفرد عندما يغترب عن ذاته فإن اغترابه ينعكس على المجتمع الذي يعيش فيه، فينطبق عليه المثل القائل: «**الغريب أعمى ولو كان بصير**»، ويوضح ذلك المثل القائل: «**غِنَى المرء في الغربة وطن**»، وعكسه: «**فقر المرء في وطنه غربة**»، فحينما تتغير الأشياء من حولك فإن تغيرًا موازيًا يحدث في داخلك، ويكون ذلك طبيعيًا في عالم اهتزت فيه قيمه تحت وطأة الحروب ودفعات التغيير المتسارعة التي هزت كل القيم الثابتة.

هذه الغربة أحدثت شيئًا في الإنسان ذاته، هذا الشيء ربما يكون هو المقصود من المثل القائل «**ما نابنا من غربتنا إلا عوجة ضبتنا**»، فهل يحاول أن يسترد ذاته ويعود من غربته أم أن لسان حاله سينطق بالمثل «**طَّول الغيبة وجه بالخيبة**».

# الغضب

**«زعلُه على طرف مناخيره»**

الغضب انفعال هام يؤدي وظيفة هامة للإنسان، حيث إنه يساعده على حفظ ذاته. فحينما يغضب الإنسان تزداد طاقته على القيام بالمجهود العضلي العنيف، مما يمكنه من الدفاع عن النفس أو التغلب على العقبات التي تعوقه عن تحقيق أهدافه الهامة (محمد عثمان نجاتي، ٢٠٠١، ٧٩). حيث يحدث أثناء انفعال الغضب كثير من التغيرات الفسيولوجية التي من بينها إفراز هرمون الأدرينالين الذي يؤثر على الكبد ويجعله يفرز كميات زائدة من السكر مما يسبب زيادة الطاقة في الجسم ويجعله متهيئًا لبذل المجهودات العنيفة التي يتطلبها الدفاع عن النفس أثناء الغضب، أو الجري أثناء الخوف. ولذلك كل إنسان يغضب قوي أو ضعيف «**الحِس عالي والفراش خالي**»، فصوته عاليًا وهو لا يكاد يُرى في فراشه، ومثله «**الحس سالك والزر بارك**».

وبقدر ما يكون الغضب شديدًا تكون نسبة إفراز هرمون الأدرينالين أكثر تدفقًا إلى الدم مما يؤدي إلى ازدياد نبضات القلب حتى تصل من ٧٢-١٥٠ نبضة في الدقيقة الواحدة، وينتج عن ذلك زيادة في الدم الذي يرسله القلب إلى أعضاء الجسم فيرتفع الضغط حينها. وتظهر عليه أعراض أخرى كانتفاخ الأوداج واحمرار الوجه، واتساع حدقة العين، وارتعاد الأطراف، وربما تظهر علامات أخرى حسب طبيعة الشخص المنفعل.

وفي الحديث الشريف ما يؤكد التفسير العلمي للغضب والأعراض التي تظهر

على الإنسان أثناءه، يقول الرسول ﷺ: «ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه، فمن أحس بشيء فليلصق بالأرض»[1].

أما إذا كان الغضب معتدلًا أو تمالك الإنسان نفسه عند الحالة التي تثيره، فإن الغدة الكظرية تفرز هرمون «الأدرينالين» بنسبة معتدلة أيضًا، وهو ضروري للجسم لتنشيط الدورة الدموية، ولقيام القلب بإمداد الجسم بالطاقة اللازمة في كسب رزقه ومقاومة أعدائه، ولكن احذر «**من أطاع غضبه أضاع أدبه**»، و«**أول الغضب جنون وآخره ندم**».

والغضب كما سبق حالة نفسية وغريزة بشرية كسائر الغرائز التي أودعها الله في الإنسان، ولكن تأثيره على النفس البشرية يختلف من إنسان لآخر، وكذلك السلوك الذي يسلكه الإنسان عند الغضب يتباين من إنسان لآخر، فتجد البعض «**زعلُه على طرف مناخيره**»، والزعل هنا هو الغضب من أقل شيء، وهو يُضرب للشخص سريع الغضب، ومثله «**زي الأخرس لما يحكوا له على طرف مناخيره**»، كما أن البعض عندما يغضب لا يجدي معه التفاهم، وهو غضب مذموم؛ لأن الشخص في هذه الحالة يتصرف بغير حكمة، حتى أن المثل يقول: «**إيش يعمل الحِزق في المِزق**»، والحِزق هو الشخص الحازق في كلامه، والمزق هو الشخص سريع الغضب، ويضرب هذا المثل في توضيح صعوبة التفاهم معه.

ويقول المثل الإيطالي: «**ساعة الغضب مالهاش عقارب**»، ومن أمثال العرب عن الغضب: «**أول الغضب جنون وآخره ندم**»، ويقول الأحنف بن قيس: «**رب غيظ قد تجرعته مخافة ما هو أشد منه**»، وينصح المثل بالصمت كثيرًا فيقول: «**فكر في سنة وتكلم في ثانية**»، وإذا تكلمت فاعلم أن «**الجواب الرقيق يسكت الغضب**».

كما أن الغضب من أهم أسباب اختلال التوافق واللياقة النفسية والاجتماعية، وهناك حقيقة لا تقبل الجدل تقول: «**لا ينال العلا من كان طبعه الغضب**» فالغضب لا يفرز إلا الضغينة والحقد، وهو نار تحرق العقل وتسحق البدن وتصيبه بأمراض

(١) سنن الترمذي، حديث رقم ٢١٩١.

لا حصر لها. ويتفق معظم علماء النفس على أن الغضب ضرورة لحماية النفس من عدوان العالم الخارجي، ولكن عندما يصبح الفرد سهل الاستثارة يغضب لأتفه الأسباب وتزداد حدة انفعالاته لفترات طويلة فإنه سوف يعانى من أعراض التوتر المستمر والقلق المزمن وضعف التركيز والإعياء الذهني و البدني وفقد الرغبة في الاستمتاع بالحياة، مع بعض الأعراض الاكتئابية، ويكون حاله «من بره رخام ومن جوه سخام».

وقد جاء في القرآن الكريم وصف الغضب وتأثيره على سلوك الإنسان، وذلك حينما عاد موسى ـ عليه السلام ـ إلى قومه ووجدهم يعبدون العجل فغضب موسى، يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأعراف، ١٥٠) وكثيرًا ما يحول الغضب إلى أشخاص آخرين، في الحقيقة لم يكونوا هم العقبة التي حالت دون تحقيق أهداف الإنسان، وتعرف هذه العملية «بالنقل»، وهو ما حدث من سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ بالفعل حينما غضب من قومه لعبادتهم العجل، فوجه غضبه إلى أخيه هارون عليه السلام.

وحينما يتملك انفعال الغضب الإنسان تتعطل قدرته على التفكر السليم، «**إذا حاججت فلا تغضب فإن الغضب يدفع عنك الحجة ويظهر عليك الخصم**»، وقد تصدر عنه بعض الأفعال أو الأقوال العدوانية التي قد يندم عليها فيما بعد حينما يهدأ غضبه. وهاهو موسى ـ عليه السلام ـ عندما غضب ألقى الألواح وأمسك برأس أخيه ولحيته وجره إليه غاضبًا ظنًا منه أنه قصَّر في نهيهم عن عبادة العجل، فلما زال غضبه وعاد إلى هدوئه وعرف أنه نهاهم، استغفر الله على ما فعل بأخيه ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ (الأعراف، ١٥١) وقد شبه المثل لحظة الغضب بالسكر في قوله: «**راحت السكرة وجت الفكرة**»، أي ذهبت ثورة الخمر وجاء وقت التفكير، والمراد كل ما يثير في النفس من غضب.

إن التحكم في انفعال الغضب والسيطرة على النفس من الأمور بالغة الأهمية لكي

ينجح الإنسان في حياته ويستطيع أن يتوافق مع نماذج البشر على اختلاف طباعها وأخلاقها.. وأيضًا لكي يتجنب ما يسببه الغضب من اضطرابات نفسية وعضوية متعددة، ويتفادى كثرة التصادم والاحتكاك والذي يحصد بسببه خصومات وعداوات كثيرة. وفي الحديث الذي أخرجه البخاري: عن أبي حصين عن أبي صالح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رجلًا قال للنبي ﷺ أوصني. قال: «لا تغضب، فردّد مرارًا، قال: لا تغضب»[١]. وعن الغضب يقول سفر الأمثال: «الحجر ثقيل، وحمولة الرمل مرهقة، ولكن غضب الجاهل أثقل منهما، الغضب فظ، والسخط قهار»[٢].

(١) أخرجه البخاري في باب الحذر من الغضب.
(٢) سفر الأمثال ٢٧: ٣.

## الاكتئاب

**«من كتر الهم اتهمينا وكنا بيض واسودينا»**

الهموم والأحزان ضيفان ثقيلان على الإنسان في دنياه، لا يكادان يفارقانه، «**إللي نبات فيه نصبح فيه**»، فلا أحد يخلو من الهم سواء كان غنيًا أو فقيرًا، «**بجملة الهم يا عم**»، ولكل همّ بمقداره، وفي ذلك يقول المثل: «**كل قناية مضَايقة بميتها**»، حتى يأذن الله ـ سبحانه ـ له بدخول الجنة، حيث لا حزن ولا ألم، ولاهم ولا غم، ولا كرب ولا ضيق، لذلك فإن من أول دعاء أهل الجنة: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ﴾ (فاطر، ٣٤).

ولقد كان النبي ﷺ يتعوذ من الهم والحزن، روى البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل، والجبن، وضلع الدين، وغلبة الرجال»[1] وكأن النبي ﷺ قد جمع معاني السعادة الدنيوية الكاملة، والتي لها أكبر الأثر في الدنيا والآخرة في تلك الأمور التي ذكرها في ذلك الحديث، والتي هي في الحقيقة منغصات حياة الإنسان ومسببات حزنه وضيقه، وهى:

**الهم**: وهو ضيق الصدر الذي سببه ما يظنه المرء ويتوقعه مستقبلا، «**كتر الهم يعلم البكا**».

**الحزن**: وهو الضيق الذي سببه ما يفكر فيه المرء مما مضى، «من شاف حاله انشغل باله».

(١) صحيح البخاري، باب التعوذ من غلبة الرجال.

**العجز**: وهو عدم القدرة على القيام بما يأمله الإنسان ويطمح به، «**العين بصيرة والإيد قصيرة**».

**الكسل**: وهو القعود عن المعالي والركون إلى الراحة وعدم السعي وبذل الجهد لتحقيق المطالب، «**أكل ومرعى وقلة صنعة**»، «**راس الكسلان بيت الشيطان**»، «**زي تنابلة السلطان يقوم من الشمس للضل بعلقة**».

**الجبن**: وهو العجز عن الشجاعة والإقدام.

**البخل**: وهو العجز عن الجود بالمال في الصدقة والزكاة والإيثار.

والمثل يقول: «**لا صحة مع الهم**»، الهم والحزن إذًا داءان ضاران بالإنسان، لابد أن يحاول جاهدا أن يطردهما عنه ما استطاع و إلا وقع فريسة لهما فأقعداه عن المعالي وحطماه عن الإنجاز، «**كنت بالهم القديم راضي جاني الجديد زود أمراضي**»، لذلك كان من المهم أن نتناول هذه القضية المؤثرة على نفس الإنسان وسلوكه، الهموم والأحزان أكبر أعداء لصحة الإنسان النفسية، إذ يرى كثير من العلماء أن الصحة النفسية هي حالة نفسية يشير فيها الإنسان إلى «التوافق» مع نفسه أو مع مجتمعه الذي يعيش فيه، ويوازن بين مصالحه ومصالح مجتمعه، والمقصود بالتوافق: «عملية ديناميكية يحدث فيها تغيير أو تعديل في سلوك الفرد أو في أهدافه أو في حاجاته، أو فيها جميعا، ويصاحبها شعور بالارتياح والسرور إذا حقق الفرد ما يريد وحقق أهدافه وأشبع حاجاته، ويصاحبها شعور بعدم الارتياح والاستياء والضيق إذا فشل في تحقيق أهدافه، «**من همّه خد واحدة قد أمه**»، ومنع من إشباع حاجاته، وهذه الحالة اليائسة الضيقة من عدم الارتياح والاستياء وفقدان السرور هي الحالة التي يهجم فيها على المرء الهم ويتربص به ضيق الصدر والشعور بالفشل «**الضحك على الشفاتير والقلب يصبغ مناديل**»، وهو يوافق قول الشاعر:

كتابُ حياة البائسينَ فصولُ  تليها حواشٍ للأسى وذيول
وما العمر إلا دمعة وابتسامة  وما زاد عن هذي وتلك فضول

فهو إحساس يكون فيه الفرد نهبًا للشعور الداخلي السلبي والفشل وخيبة الأمل، واختفاء الابتسامة والانشراح، وظهور العبوس وعدم الابتهاج والأسى الممزوج

بفقدان الهمة والتقاعس عن الحركة والعزوف عن بذل أي نشاط حيوي ولربما العزوف عن الحيوية والحياة بكاملها ـ في بعض الحالات ـ ليصل إلى مراتب اليأس من فرص الحياة الطيبة في المستقبل، إذ يشعر الفرد معه عندئذ بحاجة لذرف دموع الحزن والأسى ويود لو أنها تنزلق من مآقيه على الرغم من عدم وجودها. والمثل يقول: «**يدق الهم وينخله ويسفه**».

وبعد مطالعة الأعراض السابق ذكرها، أليس الهم والحزن هو ما يُعرف بالاكتئاب النفسي؟ فالاكتئاب النفسي هو مشكلة من المشكلات التي تعوق الفرد في توافقاته وتطوره، حتى إذا ما وصل إلى درجة شديدة كان التعطل أو التأخر بصفة عامة، فيكون الاضطراب الانفعالي متمثلًا في القدرة على الحب وكراهية الذات، تلك التي تصل إلى التفكير في الموت أو الإقدام الفعلي على الانتحار، حيث يسيطر التناقض الوجداني «**الوش مزين والقلب حزين**» (صراع الحب والكراهية) على المسرح، «**هم يضحك وهم يبكي**».

وكذلك الاضطراب المعرفي متمثلًا في انخفاض تقدير الذات، واضطراب الذاكرة، وتوقع الفشل في كل محاولة للنجاح واستشعار خيبة الأمل في الحياة، بالإضافة إلى الاضطراب البدني المتمثل في اضطراب الشهية للطعام، واضطراب النوم، «**الأيام الزفت فايدتها النوم**»، وكثرة البكاء، وتناقص الطاقة الذي يستتبعه حالة من التأخر النفسي البدني (عبد الله عسكر، ٢٠٠١، ١١). يقول الشاعر:

وفوقي سحاب يمطر الهم والأسى وتحتي بحار بالأسى تتدفق

ويقول آخر:

ثوبي مثل شعري مثل خطي سواد في سواد في سواد

والبعض يتصور أن الهم والقهر مكتوب عليه، وأن هذا هو قدره «**كل هم في البلد بيجي عندي ويتسند**»، «**قلوب عليها دروب وقلوب من الهم تدوب**»، «**من يوم ما ولدوني في الهم حطوني**». ومع ذلك فالأمثال تقدم حل ولو بسيط، فمن الممكن اللجوء للبكاء «**ما شيلتك يا دمعتي إلا لشدتي**»، أو «**اترك الهم ينساك وإن افتكرته ضناك**».

# السرقة

**«المال السايب يعلم السرقة»**

عندما يسرق طفل أو بالغ فان ذلك يصيب الوالدين بالقلق. وينصب قلقهم على السبب الذي جعل ابنهم يسرق ويتساءلون هل ابنهم أو ابنتهم "إنسان غير سوي". ومن الطبيعي لأي طفل صغير أن يأخذ الشيء الذي يشد انتباهه.. وينبغي ألا يؤخذ هذا السلوك على أنه سرقة حتى يكبر الطفل الصغير، ويصل ما بين الثالثة حتى الخامسة من عمره حتى يفهموا أن أخذ شيء ما مملوك للغير أمر خطأ. وينبغي على الوالدين أن يعلموا أطفالهم حقوق الملكية لأنفسهم وللآخرين. والآباء في هذه الحالة يجب أن يكونوا قدوة أمام أبنائهم.. فإذا أتيت إلى البيت بأدوات مكتبية أو أقلام المكتب أو أي شيء يخص العمل، فدروسك في الأمانة لأطفالك ستكون من الصعب عليهم أن يدركوها. ولذلك فإن السرقة عند الأطفال لها دوافع كثيرة ومختلفة ويجب لذلك أن نفهم الدوافع في كل حالة، وأن نفهم الغاية التي تحققها السرقة في حياة كل طفل حتى نستطيع أن نجد الحل لتلك المشكلة.

وينبغي على الآباء أن يدركوا سبب سرقة الطفل، هل الطفل سرق بدافع الحاجة لمزيد من الاهتمام والرعاية ؟ وفي هذه الحالة قد يعبر الطفل على غضبه أو يحاول أن يتساوى مع والديه، وقد يصبح المسروق بديلا للحب والعاطفة. وهنا ينبغي على الوالدين أن يبذلوا جهدهم لإعطاء مزيد من الاهتمام للطفل على اعتبار أنه عضو مهم في الأسرة.

وعند قيام الطفل بدفع أو إرجاع المسروقات، فلا ينبغي على الوالدين إثارة

الموضوع مرة أخرى، وذلك من أجل مساعدة الطفل على بدء صفحة جديدة. فإذا كانت السرقة متواصلة وصاحبها مشاكل في السلوك أو أعراض انحراف فإن السرقة في هذه الحالة علامة على وجود مشاكل أكبر خطورة في النمو العاطفي للطفل أو دليل على وجود مشاكل أسرية.

وسلوك السرقة قد يصل إلى «هوس السرقة». «**يسرق الكحل من العين**»، إن هوس السرقة Kleptomania الذي ينتشر لدى بعض البالغين من الرجال والنساء، نلاحظ في مثل هذه الحالة يعجز الفرد مرارا عن مقاومة الاندفاع لسرقة أشياء لا يحتاجها سواء لاستخدامه الشخصي أو لاستخدام أسرته أو لكسب مالي، بل ربما أن هذه الأشياء التي سرقها يتم التخلص منها أو توزيعها أو تخزينها أو رميها «**مال تجيبه الريح تاخده الزوابع**».

وترى الدراسات النفسية التحليلية أن الشخص الذي يمارس هذا السلوك ناجم من التدليل الزائد الذي وجده وهو طفلا من والده «**المال السايب يعلم السرقة**»، تدليلا عظيما أثناء السنوات الأولى من عمره، فكان يلبى له كل طلب، ثم حرمه فجأة مما كان يؤثره به، وفرض عليه أساليب من السلوك صعبت عليه، لذا اتسمت حياته بعد ذلك بسمة ظهرت على غيرها من السمات الأخرى، فكانت تصرفاته كلها تنم عن ثقته في أنه يستحق تعويضا، فكأنه في ممارسة هذا السلوك «السرقة» لابد أن يكسب من مكاسب فقدها، ومن ثم فهو يتوقع أن يرد إليه ما كان يتمتع به أثناء طفولته فيجاب له كل مطلب وما عليه إلا أن يمارس السرقة حتى يشبع ما فقد من عطف أو حنان مفقود.

ومن الجلي أن الفرد الذي يمارس سلوك السرقة وهو كبير يحاول أن يتحدى الواقع ليرجع بسلوكه هذا إلى دنيا الطفولة، فينفض عن نفسه قواعد التربية المنطقية والواقع الذي يعيشه بكل ما يحمل من صعاب ومعاناة.

وعلينا أن نميز بين سلوك السرقة المرضي وغير المرضي. ففي الحالة الأولى (سلوك السرقة المرضي) فإن المصاب بهوس السرقة هو الذي يكرر سرقة المحلات أو الأماكن أو البيوت، ويسبق ذلك الفعل تخطيط دقيق مع دراية بما يفعل، ولا يندم على فعلته، وهو يعد اضطراب نفسي.

وبعض حالات السرقة نشاهدها في بعض الشخصيات المعروفة لدينا والتي نقابلها في حياتنا كل يوم، «**من أمنك لم تخونه ولو كنت خاين**»، وهي الشخصيات السيكوباتية التي تتميز بسرقة أقلام أو ميداليات، فقد يجلس أحد الأشخاص بالقرب منك وأنت تعرفه حق المعرفة، وفي غفلة تجده يغافلك ويسرق ميداليتك أو قلمك أو..، «**اللي يسرق البيضة يسرق الفرخة**»، هذه الشخصية ليست بحاجة إلى القلم أو الميدالية، وهو ربما ليس غاليا أو ثمين إلى الحد الذي يضطر لسرقته، هذا السلوك نلاحظه عند البعض الذي يتميز بثراء أو إمكانية مالية جيدة وليس بحاجة لما يسرق، ولكن دوافع هذا السلوك المنحرف ضغط عليه ليقوم بهذا الفعل.

خلاصة القول يمكن أن تكون الانحرافات في الشخصية تتميز بنمط من عدم التكيف مع الواقع، وكذلك عدم القدرة على المرونة التي تتطلبها الحياة في عالمنا المتغير بشكل سريع وهذا أدى إلى اختلال في إدراك الواقع والتدهور في قدرة التفكير في الذات وفي البيئة ومتطلباتها، لذا سببت مشكلات كثيرة ناجمة عنها، ومشكلات حادة سببت الإعاقة في التكيف لدى الفرد نفسه وسببت له الكثير من المشكلات وعدم التوافق مع المجتمع.

وبالطبع هذا يختلف عن السرقات التي نسمع عنها من قبل اللصوص والبلطجية الذين يمتهنون السرقة ويعتبرونها مهنة، وهم بذلك لا يفرقون بين الحلال والحرام «**حلال كلنا.. حرام كلنا**»، وعمومًا فإن «**المال اللي يشبه اصحابه حرام**»، ولذلك تجد هذه السلوكات تتوارثها الأبناء لأن «**عمر الحرام ما يربي**»، والأمثال في موضوع السرقة كثير منها: «**سلموا القط مفتاح القرار**»، «**حاميها حراميها**»، «**عمر المال الحلال ما يضيع**»، «**عويل قال لكفه اللي تفرقه سفه**».

هؤلاء يقول الله تعالى في حقهم: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة المائدة، ٣٨).

# الفشل

**«ما يموت على السد إلا قليل الفلاحة»**

الفشل هزيمة مُرة تتربص بالإنسان في ميادين الحية كافة: المهنية، والعاطفية، والاجتماعية، والفكرية. فيسقط الإنسان هناك حيث النجاح ممكن ومتوقع، وتتلاشى الآمال والأحلام على صخرة الواقع الصلبة، ويحاول كثير من الناس تفهم فشلهم، فيردون هذا الفشل إلى عوامل خارجية، كالظروف المهنية أو الاجتماعية، أو...الخ. والواقع أن الفشل حالة تختلف باختلاف الأشخاص، فمنهم من يمر به فيصبح أكثر قوة، وكأنه يطبق الحكمة القائلة «**السم الذي لا يقتلني يقويني**»، ومنهم من يتعرض له فيحطم الفشل أجنحته، ومنهم من يسير مباشرة إلى الفشل بقدميه، فيسعى إليه سعيًا نتيجة رواسب قديمة وظروف نفسية وعائلية صعبة مر بها في طفولته (طلال حرب، ١٩٩٤، ٥).

فالفشل أحيانًا يكون نتيجة لصراعات داخلية عنيفة، وجروح نفسية تركت أثرها في الإنسان وحملته على الفشل حملًا. فهذا موظف ناجح حصل على ترقية وصار رئيسًا، فتوقع الجميع له مستقبلًا باسمًا فإذا هو يفشل فشلًا ذريعًا أودى بعلاقته برفاقه وبحياته العائلية وصحته النفسية. وهذا رجل ناجح ويعيش حياة مترفة ويحظى باحترام الجميع وتقديرهم، ولكن الجميع يعلمون أنه يخفي بهذه المظاهر البراقة فشلًا عائليًا حطم حياته «**ما كل من ركب الحصان خيال**»، «**خيبة الأمل راكبة جمل**»، ولا يقتصر هذا الفشل على الأشخاص العاديين، بل يعاني منه أيضًا المشاهير «**باب النجار مخلع**».

لقد وصل «روبسبيير» إلى قمة السلطة، لكنه لم يستطع البقاء طويلًا، إذ انقلب عليه رفاقه واعتقلوه، غير أن أصدقاءه وأعوانه أنقذوه وتجمعوا حوله ينتظرون منه إشارة صغيرة للانقضاض على أعدائه، فأمضى الليل حائرًا مترددًا، «**بيغرق في شبر مية**»، فتفرق أعوانه معتبرين أن شيئًا لم يحدث، عند ذلك اغتنم أعداؤه الفرصة وانقضوا عليه واقتادوه إلى المقصلة «**ما يموت على السد إلا قليل الفلاحة**».

وفي الحالات الخطيرة من الفشل لا يتوصل المرء إلى التكامل مع شخصيته في نطاق النشاط الاجتماعي، ويعاني منذ طفولته، يخفق في دراسته، لا يتفاهم مع محيطه، ينعزل ويوجد لنفسه العديد من الصعوبات التي تمنعه من متابعة طريقه «**زي شخاخ الجمال تملي ورا**»، وهذا رغم ذكائه وقدراته المؤكدة.

وعند دراسة مسألة فشل فرد ما في الحياة الاجتماعية، ينبغي الانطلاق من وجهتي نظر مختلفتين: وجهة نظر الفرد الذي أصابه الفشل، ووجهة نظر المجتمع الذي ينتمي إليه. وبحسب الانطلاق من هذه الوجهة أو تلك نتبين أن المسألة لا تنطرح بالضرورة بالطريقة نفسها. فما اعتبر بشكل صارم فشلًا من وجهة النظر الفردية يبدو أحيانًا نجاحًا من وجهة النظر الاجتماعية، ومثال ذلك «روسو»، و«بودلير» اللذين اعترفا بفشلهما في حياتهما الاجتماعية التي اعتبرها المجتمع نجاحًا. هذه التعاسات التي ظهرت عليهما إنما ترجع لأصول مرضية، فهاهو «روسو» يعاني من جنون اضطهاد كان يجعله غير جدير بالقيام بدور الرجل أو الأب للعائلة. وكان «بودلير» مدمنًا على المخدرات وغير قادر على رعاية ثروته، وكان يشتكي من عدم قدرة على العمل، ومات مجنونًا.والخلاصة أن مفهوم الفشل ذو طابع اجتماعي، ويتغير مع الأزمنة والعهود.

# الأنانية

**«من حب نفسه كرهته الناس»**

الأنانية Egoism أن يبالغ المرء في حبه لنفسه، «**من حب نفسه كرهته جماعته**» فذلك قدر من الأنانية لأنه يؤثر نفسه على الآخرين بقدر ما يشير إلى تمركز حول الذات، والاهتمام بالأنا دون مراعاة للواقع، وعلى حساب الآخرين «**كلها نية قبل ما غيرك يأكلها مستوية**»، وهذا ما يضع يدنا على طبيعة التكوين النرجسي لمثل أولئك الأشخاص الأنانيين، وكأن قدرًا كبيرًا من ليبيدو[١] الموضوع قد استثمر في الأنا ولحسابها.

والمصطلح Egoism مرادف في الإنجليزية لمصطلح آخر هو الغرور أو العجبة Egoistic إلا أن مصطلح الأنانية نادرًا ما يتضمن ذلك القدر من الغرور والإعجاب بالنفس الذي يتضمنه المصطلح Egoistic ولا شك في اتصاف الأنا لدى أولئك وهؤلاء بالنرجسية الشموس، وما الخلاف غير خلاف في الدرجة (فرج طه وآخرون، ٢٠٠٩، ٢٠٠).

والأنانية، أو الأَثَرة، تعني تفضيل الذات على الآخر، «**يا روح ما بعدك روح**»، «**كل واحد بيقول يالله نفسي**»، «**إمتى القيامة يا جحا قال لما اموت انا**»، «**من بعد راسي ما طلعت شمس**»، «**أنا ثم الطوفان**»، «**فؤادي ولا أولادي**»، وهي نزوع طبيعي يمكن التغلب عليه بالأخلاق التي تمتدح الكرم والإيثار، وذلك من أجل إعادة التوازن إلى

(١) يشير المصطلح في أصله اللاتيني إلى الرغبة أو الشهوة. وقد استعاره فرويد لأول مرة كمرادف للوجدان الجنسي، فالليبيدو بالنسبة للدفعة الغرزية الجنسية يقابل كلمة الجوع بالنسبة للتغذية. وهو يتطور حسب المرحلة النمائية التي يمر بها الإنسان بداية من المرحلة الفمية ومرورًا بالمرحلة الشرجية وحتى المرحلة التناسلية. وفي كل مرحلة نمائية تختلف مناطق اللذة عند الفرد.

الفرد والمجتمع معًا. «**من حب نفسه كرهته الناس**»، «**حبيب ماله، حبيب ماله**»، «**ما يشكر في نفسه إلا إبليس**».

وينحصر المعنى العام للأنانية على المستوى الفردي على الأقل في صورتين كلتاهما مرفوضة وشاذة من وجهة نظر الشخص السويّ نفسيًا واجتماعيًا: أولاهما تتمثل في عجز الفرد عن النظر إلى العالم إلا من خلال مصالحه ومنافعه الخاصة أو الشخصية، «**ألف عين تبكي ولا عين امي، وعين امي ولا انا**»، «**قال بيت ابوك انهد قال خد لك منه قالب**»، وهذا المستوى هو الذي يمكن أن يطلق عليه إسم الأنانية بحصر المعنى. وتتمثل الثانية في تبني وجهة النظر الأولى مصحوبة بقدر أكبر من التشدد والغلو في التزام المصلحة الذاتية. وهذا ما يمكن أن يطلق عليه إسم جنون الأنانية الذي يُدل عليه بالمصطلحين egotism وegomania .

كما يمكن أن يقال عن الأنانية: إنها الحالة التي تغلب فيها على الفرد دوافعه ورغباته الذاتية دون النظر إلى رغبات أو مصالح الآخرين، «**إلعب وحدك ترجع راضي**» ومن ثم تتعارض مع الروح الاجتماعية حتى لو اتسع نطاقها، وصبغت اتجاه فريق من الأفراد. أما فرويد فيقرر: إن كل ما لدينا من معرفة عن الليبيدو ينصبّ على الأنا الذي يتجمع فيه أول الأمر كل القدر الممكن من الليبيدو، وتسمى هذه الحالة النرجسية الأولية المطلقة. وتستمر النرجسية حتى يبدأ الأنا في شحن الموضوعات في العالم الخارجي التي تعرض له بالليبيدو، أي حتى يستبدل حب الموضوعات بحب الذات «**ما ينفعك الا نفسك**».

فبمقتضى هذا الفهم الفرويدي للبنية النفسية تكون النرجسية أقرب إلى حالة فطرية ليس من اليسير على الفرد مواجهتها والتخلص منها. وإذا ما توسعنا في استخدام مصطلح النرجسية، ودفعناه خارج حقل التحليل النفسي، أمكن النظر إلى النرجسية بوصفها أول صورة من صور الأنانية، وبأنها متأصلة في الجبلّة الإنسانية، في حين أن أول تعيّناتها النفسية والاجتماعية تتمثل في رغبة المرء المفرطة في الاستئثار بالخيرات المادية والمعنوية من دون سائر أفراد الجماعة التي يحيا فيها. ومن الناحية الأخلاقية تطلق الأنانية أيضًا على من لا يستهدف إلا نفعه الخاص، في حين أن الغيرية هي حب الغير وإرادة الخير له وتقديمه على الذات.

## الحسد Envy

**«إيش يعمل الحسود في المرزوق»**

الحسد في اللغة هو: «أن يرى الرجل لأخيه نعمة فيتمنى أن تزول عنه، وتكون له دونه» (لسان العرب، مادة حسد). ويعرف الحسد بأنه استجابة عاطفية سلبية لصفات شخص آخر يشعر تجاهه بالدونية، وأنه متفوق عليه سواء في الممتلكات أو الخصائص أو الإنجازات (Smith & Kim, 2007).

ولذلك فالحسد من الأمراض المجتمعية الفتاكة، ويعاني منه كثير من الناس، وهو موجود في كل الثقافات ويشير إلى شعور الشخص بالرغبة في الحصول على ما يمتلكه شخص آخر من نِعم (Emerson et al,. 2016)، وتشير الدراسات إلى أن الحسد مذكور منذ وقت مبكر في النصوص الدينية وأنه خطيئة مميتة، ومن الأمثلة عليه في النصوص الدينية قصة قابيل وهابيل، حيث قام قابيل بقتل أخيه هابيل بدافع الحسد، وبالتالي فإن الحسد قديم قدم الإنسان (Lange & Crusius, 2015). وفي القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ (سورة ص، ٧١ ـ ٧٦).

هذا السجود الذي حدثتنا عنه الآيات سجود تشريف لآدم ـ عليه السلام ـ وطاعة لله عز وجل، فلا يجوز لكائن من كان أن يحضر سجدة لله عز وجل في غير صلاة ولا يسجد، ولا يجوز لكائن من كان أن يشهد الملائكة سُجَّدًا ولا يخر على جبهته،

فكشف اللعين عن مكنونات نفسه، ويؤصل حجته فيقول: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ إنه الحسد بكل معانيه، ويتبجح في طلبه فيقول: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، لم يقل هذا ليندم ويتوب بل قال: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ (سورة الأعراف، ١٦ ـ ١٧). لا أهلِك أنا وينجو آدم وبنوه، ولو تاب إبليس لتاب الله عليه، ولكنه الحسد والحقد.

ولقد نهى الله تعالى عنه في سورة الفلق: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

وفي الكتاب المقدس في الرسالة الأولى لبطرس تحذير من الحسد: «فَاطْرَحُوا كُلَّ خُبْثٍ وَكُلَّ مَكْرٍ وَالرِّيَاءَ وَالْحَسَدَ وَكُلَّ مَذَمَّةٍ»[١].

وفي السنة النبوية قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا» (البخاري ومسلم). والحسد مساو للقتل، وهو ما أكد عليه حديث أبي أمامة بن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: «مرّ عامر بن ربيعة بسهل بن حنيف ـ رضي الله عنهما ـ وهو يغتسل، فقال: لم أر كاليوم ولا جِلدَ مُخبّأة[٢]، فما لبث أن لُبِطَ به[٣]، فأتي به النبي ﷺ فقيل له: أدرك سهلًا صريعًا، قال : من تتهمون به؟ قالوا: عامر بن ربيعة. فقال: علام يقتل أحدكم أخاه؟ إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة، ثم دعا بماء، فأمر عامرًا أن يتوضأ، فغسل وجهه ويديه إلى المرفقين، وركبتيه وداخلة

(١) الرسالة الأولى لبطرس، ٢: ١.
(٢) أي الجارية التي لم تتزوج بعد.
(٣) أي صرع وسقط على الأرض.

إزاره، وأمره أن يصب عليه» رواه ابن ماجة. وفي هذا الصدد يقول المثل: «**الحَسَنُ محسود**»، فتكون النتيجة: «**عينك الصافية ما خلّت عافية**».

هذه الحادثة تبين مدى خطورة العين وقوّة تأثيرها وبالغ ضررها؛ فهي ذلك السهم الذي لا يُرى بالعيون المجرّدة ولكن يُدرك أثرها من خلال نتائجها الوخيمة، فتجعل السليم سقيمًا، والقوي ضعيفًا، والكثير قليلًا، والخصيب قاحلًا، بل هي القادرة على إدخال الرجل القبر، وإدخال الجمل القدر، كما صحّ بذلك الحديث، وفي ذلك يقول المثل: «**من قرُّوا عليه عزُّوه**»، أي عزُّوه في نفسه لما أصابه من الحسد، ويقول مثل آخر: «**أكثر أهل القبور من العين**»، ويقول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه: ما أحدث الله بعبد نعمة إلا وجدت له عليها حاسدًا.

لقد ورد في صحيح مسلم بشرح النووي مجموعة أحاديث تؤكد أن العين حق، وتؤكد على مشروعية الرقى لدفع البلاء سواء قبل وقوعه أو بعد وقوعه، منها عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رقاه جبريل عليه السلام، قال: «بسم الله يبريك ومن كل داء يشفيك ومن شر حاسد إذا حسد وشر كل ذي عين». وعن أبي سعيد أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد اشتكيت؟ قال نعم. قال: «بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك بسم الله أرقيك».

وللجاحظ رسالة في الحاسد والمحسود[1] جاء فيها أن الحسد يولد العداوة، وأنه سبب كل قطيعة، ومفرق كل جماعة، وقاطع كل رحم بين الأقرباء، إذ إنه يكمن في الصدور كمون النار في الحجر، كما أن الحاسد كل همه أن ينزع الله منك النعمة التي أعطاكها، وهو لا يغفل عن ذلك أبدا، قال الله عز وجل: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ (سورة النساء، ٥٤).

ويبين الجاحظ أن الحسد يكثر في الأقرباء، ويقل في البعداء، ولذلك يقول المثل

(١) أنظر رسالة الحاسد والمحسود للجاحظ، ج٣.

«**الأقارب عقارب**»، وله صيغة أخرى «**أقرب لك عقرب لك**»، على الرغم من أن هناك وصية في مثل آخر تقول: «**إن كان في إيدك حنة اجلُطها لأقرب الناس ليك**»، أي اكشطها من يدك لقريبك ربما يكون هذا البر نافع في عدم التحاسد، والأقربون أولى بالمعروف، أما إذا أردت الإبقاء على قريبك فلا تشاركه في عمل ولا تصاهره؛ لأن هذه المواطن لا يؤمن فيها الخلاف «**إن كان لك قريب لا تشاركه ولا تناسبه**» **لأن** «**الدخان القريب بيعمي**».

ويصير في العلماء أكثر منه في الجهلاء؛ لأن الحاسد من أهل العلم ضعيف في علمه ولذلك يحسد الأشراف من العلماء ويذمهم ويطعن في علمهم. كما خص به الجيران من بين جميع أهل الأوطان، «**البلاوي تتساقط من الجيران**»، لأن الجار الحاسد على علم ودراية بكل ما يخص جاره المحسود، وكان الدعاء في المثل: «**ربنا ما يجعل لنا جار وله عينين**»، حتى أن المثل ينصحنا بقوله «**الجار ثم الدار**»، ولذلك يقول المثل: «**الحسد عند الجيران والبغض عند القرايب**»، وتقول إحداهن في المثل: «**حسدتني جارتي على طول رجليا**»، فالحسد هنا على مالا يحسد عليه أحد، فعلى الرغم من أن طول الرجل في النساء قدح، سواء كان الطول في القدم أو في الساق، إلا أن الحاسدة حسدتها على ذلك لشيء في نفسها، لأن الحسد طبع في النفس وخلق وسجية، حتى أن صاحب النعم الكثيرة قد يحسد من هو أقل منه «**أبو ألف حسد ابو مِية**».

وهنا ينصح المثل بعدم الحسد لأنه المرض الفتاك وخاصة بين الجيران فيقول: «**غير من جارك ولا تحسده**»، ولكن كيف يكون الحل إذا ابتلينا بمثل هذا؟ ويجيب المثل فيقول «**أُصبر على الجار السوء يا يرحل يا تيجي له داهية**» فالصبر على الأذى قد يكون أهون من رحيلك في ظل ظروف الحياة الصعبة، فقد يرحل الجار الحاسد أو يبتلى بمصيبة تلهيه عنك، ومن المفيد الابتعاد عن هؤلاء وعدم مخالطاتهم دون عداوة «**صباح الخير ياجاري إنت في دارك وانا في داري**»، أو تعمل بوصية المثل القائل: «**إفتح في جنبك طاقة ولا تفتح بينك وبين جارك طاقة**».

وما ترى الحاسد إلا ويتبين لك مكنونه بتغير لونه، وتخوص عينه، والإقبال على غيرك والإعراض عنك، والاستثقال لحديثك، والخلاف لرأيك، ولقد صدق المثل في الحاسد عندما قال: «**الحسود تعبان**». وإذا أردت أن تعرفه على حقيقته فابعث إليه

من يذمك عنده فإنه سيظهر لك من شأنه ما أنت جاهل به، وستعرف أنه ألح في حسده لك من الذباب. حياتك موته، وموتك سروره، يصدق عليك كل شاهد زور، ويكذب فيك كل عدل، لا يحب من الناس إلا من يبغضك، ولا يبغض إلا من يحبك، ويصدق فيه المثل القائل: «**العين ما تكرهش إلا الأحسن منها**».

لقد أبدع الجاحظ في تحليل نفس الحاسد وكشف حيله وخداعه ودهائه عندما قال: الحاسد قد يطعن في الكتاب فإن لم يأخذ بطعنه أحد، يعترف بخطئه، ويعلن أن ذلك كان عن سهو وغفلة، واعترافه هذا ليس من باب الفضيلة بل ليقال أنه لم يرجع عن قوله واعترافه بالخطأ إلا من عقل وازع ودين خالص. ولذلك يقال من أبلغ الطعن على ما تريد الطعن عليه أن تطعن ثم تستغفر الله، ثم تتمهل فترة، ثم تعود لطعن هو أعظم منه وأطم ليوثق بك فيه. وهذا حاسد آخر يسمع الطعن في المحسود فيضحك ولا يتكلم، وما وراء هذا الضحك والسكوت سوى إقرار بالطعن. وآخر يسمع الطعن ويُسكت القائل ويدعو الله بالصلاح للمحسود، ويكون بذلك قد أكد ما قاله الطاعن. ومع ذلك يخبرنا المثل بأن «**عُمر الحسود ما يسود**».

وإذا كان الأمر كذلك فاعلم أن مجاورة الموتى أهون من معاشرته؛ لأن الحاسد صدره مملوء بالغِل، والغِل غصن من أغصان الحسد، وفعل من أفعاله، وصفة من صفاته، ولذلك عندما ذكر الله تعالى ما من به على أهل الجنة في كتابه الكريم قال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (سورة الحجر، ٤٧).

فما أدخلهم الله الجنة إلا بعد ما نزع الغِل والحسد من قلوبهم، ولو لم يحدث ذلك لتحاسدوا؛ لأن الله عز وجل فضل بينهم في المنازل ورفع بعضهم فوق بعض درجات، فلما نزع الغل والحسد من القلوب ظن أدناهم منزلة فيها أنه أفضلهم وأكرمهم، وما ذلك إلا لسلامة قلبه فقرت عينه. ألم يقل المثل: «**يحسدوا العريان على شراية الصابون**».

وإنك لتجد من يتعوذ من شر الحاسدين تباهيًا ليس أكثر، وهو منتشر بين العامة، فتجده لا يمتلك من حوائط الدنيا شيء ويدعي أن الناس لا يتركونه في حاله وأنهم يحسدونه، والمثل يرد على هؤلاء بقوله: «**خزانة من غير باب ويقولوا يارب اكفينا شر الحُسَّاد**»، والخزانة حجرة صغيرة في البيت الريفي.

# الفصل التاسع

# الحيل الدفاعية

يميل الإنسان دائمًا إلى أن يتصرف بطريقة تحقق له سعادته وتبعده عن مصادر الألم. ومن أجل تحقيق هذا الهدف يصبح السلوك تفكيرًا وعملًا يقوم به الموجود البشري، ثم يتجه به وجهة معينة قد توصله إلى هدفه أو تبعده عنه.

وقد يمُر الإنسان بمواقف جديدة تتطلب منه جهدًا وإدراكًا للعلاقات التي تكون وتشكل هذه المواقف، أو قد يكون السلوك مكررًا وخبرته معادة. ولعل الهدف الذي يتطلع إليه الإنسان هو كيف يتكيف مع البيئة، وكيف يتصرف في الحدود التي تجعله متوافقًا مع إرادة الجماعة، وهو ما يذكرنا بالمثل الإماراتي القائل: «**إذا ما طاعك الزمان طيعه**»، وهو مثل يدعو الإنسان للتكيف مع الزمان ومستجداته والسير مع تطوراته وأحداثه، الأمر الذي يدعونا إلى التساؤل: ما الذي يدفع المرء إلى أن يتصرف تصرفات معينة في ظروف معينة، وما الذي يدعوه إلى أن يغير من تصرفاته أو يكررها في موقف آخر؟ كل هذه الأسئلة تجعلنا نتناول ما يسمى بالحيل الدفاعية[١].

إن الحيل الدفاعية Defence Mechanisms هي عمليات نفسية تقوم في الإنسان لا شعوريًا لصد هجمات القلق والتوفيق بين الدوافع المتنازعة، وهذه الميكانيزمات تستهدف مصلحة الذات، إذ تتوجه مهمتها إلى الدفاع عن الذات الواعية والحرص على راحتها وسلامتها بإنقاذها من القلق. فكل إنسان يستخدم تلقائيًا بعض هذه الميكانيزمات في حياته اليومية طالما لم يسرف الإنسان السوي في استخدامها، لكن إذا ما أفرط الإنسان باستخدامها فإنها تصبح أداة فعالة في الهدم والانهيار.

هذه الحيل النفسية قديمة قِدم الإنسان ذاته، وهي متأصلة في عاداته وسلوكه من قديم الأزل، وقد أدرك الأقدمون هذه الحقيقة وصاغوها في تعقيبات متداولة مما

(١) سيد صبحي (٢٠٠٣). الإنسان وصحته النفسية. ص٧٥-٧٦ بتصرف.

تمثل في الأمثال والأغاني الشعبية، وهي ظاهرة تدل على عمق جذور الاستبصار عند الإنسان على مر العصور ومع اختلاف مراحل التطور، كما تدل على قدرته الفائقة على التعمق فيما وراء السلوك الظاهري من دوافع خفية حضارية[١]. وفيما يلي هذه الحيل ودلالتها من الأمثال:

(١) يحيى الرخاوي (١٩٧٢). حياتنا والطب النفسي. ص ١٤٠.

## الكبت

**«الجعان بيحلم بسوق العيش»**

حيلة من حيل الدفاع تلجأ إليها النفس البشرية، ويقوم بها «الأنا» وتتم بشكل لا شعوري لطرد الدوافع والذكريات والأفكار المؤلمة وإكراهها على التراجع إلى اللاشعور، فمن الدوافع ما يؤذي نفوسنا أو يجرح كبرياءنا واحترامنا لأنفسنا، ويسبب لنا القلق والألم والضيق إن ظل ماثلًا في شعورنا كشعورنا بالنقص من عيب فينا، أو شعورنا بالذنب من جرم أتيناه، أو كراهية الطفل لأبيه الذي يقسو عليه.

كل هذه دوافع نستبعدها من شعورنا حتى لا تكون مصدر إزعاج لنا، وهذه الرغبات التي يكبتها الفرد تستقر في منطقة اللاشعور، ولكنها تظل تعمل في الخفاء وتلح في الظهور بعدة أساليب غير مباشرة، وتسمح النفس البشرية لهذه المواد اللاشعورية بالتعبير عن طريق التخيلات في حلم أو هفوة أو مرض نفسي حتى تبقى الشخصية على درجة من التوافق مع نفسها ومع محيطها.

وفي ذلك يقول المثل: «**الجعان بيحلم بسوق العيش**» فهو تعبير عن الجوع في الحلم وكأن الجائع في سوق خاص للخبز، وكذلك الهفوات التي عبرت عنها الحكمة القائلة: «**المرء مخبوء تحت لسانه**»[1]. إن الدافع المكبوت يظل يعمل باستمرار على دخول مجال الشعور، وفي نفس الوقت يلقى مواجهة لصده، وفي ذلك استنزاف للطاقة النفسية مما قد يترتب عليه تعبًا جسميًا ليس له أي سبب فسيولوجي ظاهر. وبعد عملية الكبت تبدأ كل الحيل الأخرى، فإن الانفعال الذي يصاحب الفكرة المكبوتة يبحث له عن تصريف، ويتم ذلك عن طريق الحيل.

(١) أنظر: الكلمات المائة للإمام علي، تحقيق محمد غالب وأنور زناتي، ص٣٠.

# التبرير

**«اللي ما تعرفش ترقص تقول الأرض عوجة»**

حيلة لا شعورية ـ غالبًا ـ من حيل التوافق تلجأ إليها النفس البشرية لتبرر سلوك الشخصية أو دوافعها التي لا تلقى قبولًا من المجتمع أو من ضمير الشخصية نفسها، بحيث تقدم النفس البشرية في هذه الحالة تبريرًا تعلل به السلوك أو الدافع المُدان حتى يقتنع الشخص ذاته بينه وبين نفسه على المستوى الشعوري بهذه التبريرات، ويحاول إقناع غيره بها حتى لا يقع اللوم عليه.

وفي ذلك يقول المثل: «**حجة البليد مسح التختة (السبورة)**». فهذا التلميذ فاشل دراسيًا فيبرر لنفسه أن الأستاذ أسرع في مسح السبورة قبل أن يتمكن من نقل ما عليها من معلومات، وهذا التلميذ رسب في مادة دراسية فيبرر لنفسه ذلك بأن المدرس قد تعمد رسوبه لخلاف شخصي بينهما، وفي مثل هذه الحالة يكون التلميذ ذاته مقتنعًا بهذا التبرير لأنه أتاه من مصدر لا شعوري غالبًا.

فالتبرير يعمل لتغطية الشعور بالنقص، وهذا ما يعبر عنه المثل القائل: «**اللي ما تعرفش ترقص تقول الأرض عوجة**». كما أن هناك من يحاول أن يستر عيوبه بأعذار باطلة، فيقولون في المثل: «**يكُبُّوا القهوة من عماهم ويقولوا خير من الله جاهم**». وعملية التبرير ترفع من قيمة الشخص في نظر الآخرين، أو على الأقل تحافظ عليها، أو توهمه بذلك. وفي المثل الشعبي القائل: «**حبيبك يمضغ لك الزلط، وعدوك يتنمى لك الغلط**» ما يلخص جوهر عملية التبرير، ويؤكد كثرة لجوء النفس البشرية إليها. فالحبيب هنا يبرر كافة سلوك المحبوب بحيث يصبح مقبولًا حتى لو كان مرفوضًا،

وفي هذا تبرير لوجود عاطفة الحب نفسها. أما العدو فيفسر كل شيء من جانب عدوه على أنه خطأ وضار مهما كان غير ذلك، حتى يبرر الشخص لنفسه وللآخرين عداوته لعدوه. وحيلة التبرير موجودة في قصص شائعة مثل قصة الثعلب والعنب المُر، والتي يقول عنها الشعر العربي:

وثب الثعلب يومًا وثبة شغفًا منه بعنقود العنب

لم ينله، قال هذا حصرم حامض ليس لنا فيه أرب

ويقول المثل: «**إذا بعد عليك العنقود قل حامض يا عنب**». فحيلة العنب المُر Sour-Grapes Mechanism صورة من صور السلوك التبريري، والذي يحاول الفرد من خلاله أن يجنب نفسه مشاعر الندم والأسى الناتج عن الشعور بالإحباط والفشل، أو العجز عن تحقيق الهدف، وذلك بمحاولة إقناع نفسه بأن الهدف لم يكن يستحق أصلًا، أو أنه كان أقل من أن يعاني الفرد من أجله مشاعر الحزن والأسى.

والعامة تصف هذا السلوك الذي يظهر عند بعض الأفراد على أنه «**قُصر ذيل**»؛ لأنه يُعبر عن عدم قدرة في الوقت الذي ينسب فيه ادعاء القدرة، ويقول المثل: «**قُصر ديل يا ازعر**»، تمامًا كما تتهم المرأة العانس كل الرجال بالخلق السيئ، وأن هؤلاء الرجال خونة، لذلك فهي ترفض الزواج، ولذلك تقول في المثل: «**العزوبية ولا الجوازة العار**»، وتقول في مثل آخر: «**قعاد الخزانة ولا الجوازة الندامة**».

وفي التبرير قد يستبدل الفرد دافعًا يقبله المجتمع بدافع آخر لا يرضى عنه، مثل الإنسان الذي ينفق أموال بسخاء في أوجه الخير قد يظن أنه يفعل ذلك بدافع الطيبة، على حين أنه قد يكون مدفوعًا إلى ذلك بحب التظاهر أو بشعوره بالإثم، فالتاجر الغشاش يكثر من الصدقة، و«نوبل» مكتشف الديناميت رصد جائزة مالية كبيرة من أجل السلام، وكأنه «يقدم رشوة للأنا الأعلى»[1] (الضمير).

وإن صح التعبير فالمثل يقول: «**إرشوا تشفوا**»، والمراد الإخبار بالواقع لا الحث على الرشوة، وكذلك المثل القائل: «**إلبرطيل شيخ كبير**»، فالبرطيل هو الرشوة،

(١) هذه العبارة للأستاذ الدكتور «حسين عبد القادر» في حديث شخصي مع المؤلف.

والمقصود بالبرطيل الشيخ الولي، وليس المقصود مدح الرشوة، بل المقصود بيان تأثيرها في نفوس بعض الناس[١].

وكأنه يضع المثل بين عينيه «**افتح جيبك ينقفل عيبك**» وكذلك الإنسان الذي يسرق تجده يبرر ذلك بأن أغلبية الناس تسرق، ولسان حاله يردد المثل: «**الدِّست قال للمغرفة يا سودة يا معجرفة قالت كلنا ولاد مطبخ**». وبذلك يتمكن من إشباع نزواته وحماية ذاته في نفس الوقت.

وحينما يقوم الإنسان بعملية التبرير فإنه لا يكون واعيًا بها، بل أنه يعتقد أن ما يقوم به من أعمال سيئة إنما هي أعمال حسنة، أو أنه يقصد منها الخير والصلاح. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الجانب اللاشعوري من الحيل العقلية عندما صور سلوك المنافقين الذين يقومون بعملية التبرير في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة، ١١-١٢).

(١) أنظر: الأمثال العامية لتيمور، ص١٢٩.

## الإسقاط

**«كل إناء ينضح بما فيه»**

هو التعامي عن عيوب الذات ونقائصها ونسبها إلى الغير. وهو حيلة تلجأ إليها النفس البشرية في حلها للصراع الدائر في الشخصية حول دافع نفسي معين بأن تتخلص من هذا الدافع فتسقطه على شخص آخر، وبذلك ترى الشخصية في ذلك الشخص دوافعها هي واتجاهاتها هي وخصائصها هي دون أن تفطن إلى أنها دوافعها الخاصة. ومثال ذلك أن يسقط البخيل دافع البخل على الآخرين فيصفهم ظلمًا بالبخل الشديد دون أن يفطن إلى أن البخل جزء من نفسه هو وليس من الآخرين، تمامًا كما يعتقد مريض الجنون أنه عاقل وأن الآخرين هم المجانين وليس هو (فرج طه وآخرون، ٢٠٠٩، ١٥٣).

يقول المثل: «**رمتني بدائها وانسلت**»، وهذا المثل له أصل كما جاء في كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام، حيث يقول: هذا المثل قيل لرُهم بنت الخزرج، وكانت امرأة سعد بن زيد مناة بن تميم، وكان لها ضرائر، فسابَّتها إحداهن يومًا، فرمتها رُهمُ بعيب هو فيها، فقالت ضرتها: رمتني بدائها وانسلت، فذهب مثلًا.

ويقول آخر: «**عيوبي لا أراها وعيوب الناس اجري وراها**». ويمكن أن ترى ذلك بوضوح في كثير من سلوك المصريين الذي يتمثل في النقد والسخرية من سلوكات يقوم بها هذا الشخص ويسقطها على الآخرين، فتجده ينتقد الإهمال والتسيب، وهو يمارس نفس السلوك. فالإسقاط هنا يشير إلى حيلة لا شعورية بمقتضاها ينسب الشخص إلى غيره ميولًا وأفكارًا مستمدة من خبرته الذاتية، يرفض الاعتراف بها لما

تسببه من ألم وما تثيره من مشاعر الذنب، وبذلك يتم استبعاد العناصر النفسية المؤلمة من حيز الشعور.

إن عملية الإسقاط هي عبارة عن إجراء نظمته الذات دفاعًا عن نفسها، وحماية لها من الاستخفاف، ولذلك يسقط الإنسان عن ذاته إلى غيره من الناس النزعات التي يستقبح غاياتها، وهكذا يرى في الغير ما به من عيوب فيدينهم إدانته لنفسه. فالزوج التي تنطوي نفسه على رغبة في خيانة زوجته يرميها هي بالعزم على الخيانة، وفي ذلك يقول المثل: «**زاني ما يآمن لمراته**»، ويقول مثل آخر: «**كلم الفاجرة تدهيك واللي فيها تجيبه فيك**».

وبطبيعة الحال فإن هذه الحيلة تجعل صاحبها يشوه مفهومه عن الواقع، ويقطع صلته الحقيقية بالعالم الخارجي، خاصة وأنه لا يرى هذا العالم بنظرة موضوعية صادقة، وإنما يجعل من نفسه محقًا في كل الأمور. والإسقاط يتم على مستوى لا شعوري دون أن يفطن الفرد لذلك، وهو لا يشمل فقط الدوافع المرفوضة اجتماعيًا، بل وغير المرفوضة أيضًا، فالشخص الذي يستشعر السعادة غالبًا ما يدرك أن الآخرين سعداء، ولعل المثل العربي المعروف: «**كل إناء ينضح بما فيه**» تعبير عن هذه الحقيقة.

وقد صور القرآن ذلك أصدق تصوير في وصف المنافقين الذين يحبون أن كل صيحة يسمعونها تصدر عن المسلمين موجهة ضدهم، ويظنون أن المسلمين يريدون أن يبطشوا بهم، وذلك نتيجة لما يضمرونه من شعور عدائي نحو المسلمين، فيقومون بإسقاط هذا الشعور العدائي عليهم، ولذلك يقول تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ (سورة المنافقون، ٤) ليوضح حقيقة الأمر أنهم هم الذين يضمرون العداء للمسلمين وليس العكس، وأن إدراكهم لما يسمعون من صيحات كأنها ضدهم ليس إلا وهمًا نتيجة عملية الإسقاط، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (المنافقون، ٤).

# النسيان

**«لما يطيب العليل ينسى جميل المداوي»**

«**هو الإنسان عقله دفتر**». اتضح أن كثيرًا من حالات النسيان تكون تعبيرًا عن دوافع لا شعورية أو شبه شعورية، «**قالوا يا حما ما كُنتيش كنَّه؟ قالت كنت ونسيت**»، وكنسيان المواعيد أيضًا، هنا يكون النسيان رمزًا إلى رغبة لا شعورية في الفرار من الشخص وعدم لقاءه، «**افتكر بلده ونسي ولده**»، وقل مثل ذلك في نسيان بعض الناس رد ما يستعيرونه من كتب أو ما يقترضونه من مال.

وقد يكون النسيان نتيجة لتزاحم المعلومات وتداخلها في عقل الإنسان، فحينما يتعلم الإنسان مواد جديدة فقد يؤدي ذلك إلى إضعاف تذكره لمواد سبق وأن تعلمها، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النوع من النسيان في قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ (الأعلى، ٦).

وفي التحليل النفسي يفضل دومًا مصطلح فقدان الذاكرة Amnesia «**زي العرسة ياكل وينسى**»، وإذا كان النسيان ظاهرة إنسانية عامة «**إذا كان طباخك جِعِيص لا تئمن من القرف**»، فقد دلل «فرويد» على المحتوى اللاشعوري للنسيانات وأصولها النفسية في اللاشعور، «**إن كُنتم نسيتم اللي جرى هاتوا الدفاتر تنقرا**»، «**من فات قديمه تاه**»، «**ياكل خيره ويعبد غيره**»، وهو يضرب لمن ينسى فضل صاحب الفضل ويطيع غيره. ومثله «**لما يطيب العليل ينسى جميل المداوي**»، «**عض الإيد اللي اتمدت له**»، ويقول آخر: «**أبات اعلم في المتبلم يصبح ناسي**».

## التكوين العكسي

**«شر البلية ما يضحك»**

هو عملية تكوين سمة شخصية أو ميل أو دافع مضاد لسمة أو ميل أو دافع غير مرغوب يوجد دفينًا في الشخصية. وتتم هذه العملية بشكل لا شعوري، وفي هذه الحالة يكون شعور الشخص مضاد تمامًا لما هو موجود في لا شعوره. (فرج طه وآخرون، ٢٠٠٩، ٤٠٠).

فالعقل يغير لا شعوريًا استجابة رذيلة تتنافى مع الذات أو مع مطالب المجتمع، يقوم الفرد بتحويل الاستجابة إلى نقيضها، كأن تتحول الكراهية إلى حب أو اهتمام، ويكون ذلك لا شعوريًا دون دخل من الإنسان، وبهذه العملية اللاشعورية تغوص الدوافع المنبوذة في أعماق النفس ويحل محلها دوافع نقيضة، فالفرد الذي يكره شخصًا بحيث تبعث هذه الكراهية في نفسه التوتر أخذت «الأنا» تظهر الحب والمودة لكي تخفي الكراهية، ولذلك يبالغ الفرد بإظهار المحبة بافتعال وإسراف، كالإفراط في السرور والضحك كتكوين عكسي لمصيبة كبيرة، كما يقال: «**شر البلية ما يضحك**».

فإذا ما أظهر طفل حنوًا بالغًا نحو أخيه الأصغر فإنه يخفي عادة دافعًا عدوانيًا، وكأن حنوه هو حنو القط على الفأر، ولذلك يقول المثل: «**الفار وقع من السقف، القط قال له اسم الله، قال له ابعد عني وخلي العفاريت تركبني**»، ويضرب هذا المثل في التحذير من العواطف الزائدة التي ليس لها ما يبررها[١].

(١) الرخاوي، مرجع سابق، ص١٤٥.

كما أن الخوف من المجتمع قد يتخذ صورة طاعة صارمة، يخفي الفرد ورائها دوافع العداء والتمرد، تجد ذلك في المدرس الذي يقسو على تلاميذه، وقد يكون هدفه هو القسوة على المجتمع الكبير الذي حرمه حظه من الرعاية والتقدير، ثم أزيح هذا الشعور العدواني وانصب على تلاميذه، ويعبر عن ذلك المثل فيقول: «**ما قدرشي على الحمار اتشطر على البردعة**». فهو يسخر ممن لا يقدرونه حقه فيقول: «**لا كرامة لنبي في وطنه**»، ويقول «**اللي تملكه اليد تزهده النفس**».

## التعطيل

«**يجرح ويداوي**»

هو قيام الفرد بسلوك يعاكس ما قام به فعلًا وكان غير مقبول شخصيًا أو اجتماعيًا، فالتعطيل يمثل محاولة من «الأنا» لإعادة تكوين الأفعال السابقة لتصبح أقل قلقًا، وكأنه يحاول إصلاح ما أفسد. مثال ذلك الأم التي تلغي عقابها لطفلها بإغراقه بالحب. فيقول المثل: «**يجرح ويداوي**»، ويقول مثل آخر: «**زي اللي الصابونة في إيد والنجاسة في إيد يطرطش ويغسل**».

## الإنكار

«**ودن من طين وودن من عجين**»

ميكانيزم دفاعي يبدأ منذ الطفولة المبكرة. فالأنا عند الطفل يرفض أن يكون على وعي بواقع غير لاذ ويدير له ظهره بإنكاره. والإنكار لا شعوري لتجنب الواقع المؤلم أو المسبب للقلق، وذلك برفض إدراكه أو مواجهته، ويبدو الفرد شأنه شأن النعام يدفن رأسه في الرمال، وهي حيلة تعبر بوضوح عن الهروبية.

ويُعد الإنكار صورة من صور الانسحاب التي تجعل صاحبها يلوذ بنفسه فينكر الحقيقة تخفيضًا للضغط النفسي والتوتر العصبي الذي يستشعره، أو كما يقول المثل: «**يخرج من المشكلة زي الشعرة من العجين**»، وهو بذلك يخدع نفسه ويهرب من مواجهة مشكلاته، وكأن ذلك ما يعبرون عنه في قولهم: «**ودن من طين وودن من عجين**».

## الإزاحة

**«ما قدرشي على الحمار اتشطر على البردعة»**

هي تحرير الطاقة الغريزية في نشاط بديل لمخرج مشبع مباشرة، سواء كان هذا المخرج غير ممكن أو ممنوع ومحرم (روبرت د. ناي، ٢٠٠٣، ٧٥). أو هي إعادة توجيه الانفعالات المحبوسة نحو أشخاص أو موضوعات أو أفكار غير الأشخاص أو الموضوعات أو الأفكار التي سببت الانفعال، وغالبًا ما تكون الأشخاص أو الموضوعات أو الأفكار التي تزاح إليها الانفعالات هدفًا آمنًا أو على الأقل أكثر أمنًا من الهدف الأصلي، والانفعال المزاح غالبًا يكون انفعال كراهية وخوف. يقول المثل: «**ما قدرشي على الحمار اتشطر على البردعة**».

## التعميم

**«إللي يتلسع من الشوربة ينفخ في الزبادي»**

هو تعميم تجربة أو خبرة معينة على سائر التجارب والخبرات المشابهة أو القريبة منها. وهو ما ينطق به المثل: «**اللي يقرصه التعبان يخاف من الحبل**»

أو «**إللي يتلسع من الشوربة ينفخ في الزبادي**». فهو انتقال من الجزئي إلى الكلي أو من الخاص إلى العام.

## التوحد (التقمص)

**«من أكل ابني بلحة نزلت حلاوتها بطني»**

هو عملية تلجأ إليها النفس بشكل لا شعوري، ودون أن يعي الفرد أنه يقوم بعملية التوحد، فيدمج الفرد شخصيته في شخصية آخر، وذلك بشعوره وسلوكه جميعًا، فالفرد يتوحد في شخصية شخص آخر به صفات مرغوبة لا توجد لدى الفرد، فيستدمج الفرد داخل ذاته دوافع واتجاهات وسمات شخص آخر بحيث تصبح أصيلة في كيان الفرد. والتقمص يختلف عن التقليد في أن التقمص لا شعوري بينما التقليد شعوري. ومثال ذلك تقمص شخصيات الأبطال والنجوم وغيرهم، وقد يتقمص الآباء شخصية أبنائهم، وهنا يستشعر الوالد بشعور ابنه في الفرح والألم، وربما يشعر بإشباع حاجاته العضوية مصداقًا للمثل القائل: «**من أكل ابني بلحة نزلت حلاوتها بطني**».

## التعويض

**«قرعة بمشطين وعورة بمكحلتين»**

هو محاولة الفرد النجاح في ميدان لتعويض إخفاقه أو عجزه (الحقيقي أو المتخيل) في ميدان آخر مما أشعره بالنقص، أو الظهور بصفة مقبولة لتعويض وتغطية صفة غير مقبولة. مثال ذلك: طفل يعاني من اضطراب الكلام يدفعه لتعويضه بأن

يصبح فيما بعد خطيبًا مفوهًا، وشخص قصير القامة يشعر بنقص فيعوضه بالنجاح العلمي أو السياسي[١]. يقول المثل: «**فقرا يمشوا مشي الأمرا**»، ويقول آخر: «**بياكلوا بصار ويتقلدوا من الناس الكبار**»، فالفقراء يهتمون بمظاهر كاذبة يخفون وراءها شعورهم بالدونية، ويظهرون أثرى من الواقع، في حين نرى بعض الأغنياء يبدون تواضعًا ويخفون ثرواتهم خوفًا من الحسد.

ويقول مثل آخر: «**يا وحشة كوني نغشة**»، ويزيد الأمر وضوحًا المثل القائل: «**أقرع ودقنه طويلة قال شيء يعوض شيء**»، وكذلك المثل القائل: «**قرعة بمشطين وعورة بمكحلتين**».

فإذا كان لديك نقص جسمي كالقصر مثلًا فلا تقلق، فالقلق لن يطيل جسمك، واسمع لقول «فرانسيس بيكون»[٢]: إن الأعرج الذي يسير في الطريق الصحيح يسبق المتعجل الذي يحيد عنه، ويقول المثل: «**قد الزبلة ويقاوح التيار**»، ويقول آخر: «**قد النملة وتعمل عملة**».

ومن الأمثلة الدالة على التعويض نبوغ «ديموستين»[٣] في الخطابة على الرغم مما كان يعانيه من تأتأة. و«بيتهوفن» الذي أخرج أروع القطع الموسيقية والذي كان يعاني من نقص السمع، و«أبي العلاء» في الشعر رغم عماه.

---

(١) حامد زهران، مرجع سابق، ص٣٩.

(٢) فرانسيس بيكون (١٥٦١-١٦٢٦م) فيلسوف ورجل دولة وكاتب انجليزي، قائد الثورة العلمية عن طريق الملاحظة والتجريب.

(٣) ولد في أثينا عام ٣٨٤ قبل الميلاد، توفي والده وهو في السابعة من عمره، كان ضعيف الصوت قصير النفس كثير الارتباك، وفي لسانه لثغة. تعمد حبس نفسه في غرفة وأخذ يتمرن على الخطابة، فيقف أمام المرآة ويخطب ويراقب إشارات يديه وتعبيرات وجهه، وبعد سنوات من الجهد المتواصل أصبح خطيب أثينا، وقد مزج خطبه بين النثر والشعر والثقافة والتاريخ.

## النكوص

**«رجعت ريما لعادتها القديمة»**

حيلة لا شعورية يقصد بها عودة الشخصية إلى أنماط من الدوافع أو من السلوك أو من كيفيات الإشباع النفسي لرغباتها لا تعود تتفق مع مرحلة النمو التي وصلت إليها الشخصية. فهي تقهقر إلى مستوى غير ناضج من السلوك لتحقيق نوع من الأمن والتوافق للفرد حين يتعرض لموقف محبط. «**من شب على شيء شاب عليه**»، «**رجعت ريما لعادتها القديمة**» ومثال ذلك المرأة الراشدة التي تسلك سلوك فتاة مراهقة، أو الراشد الذي يبكي عندما تواجهه مشكلة.

وقد قالوا في الأمثال: «**الشايب لما يدلع يبقى عامل زي الباب المخلع**». والشخصية تلجأ إلى عملية النكوص إذا استحالت إمكانية إشباع دوافعها بالطريقة السوية، فبكاء الشخص الراشد لاستدرار عطف الآخرين عليه حتى يشبعوا مطالبه هو نوع من عودته إلى تصرف طفلي كان يستخدمه كأسلوب ضغط على المحيطين به عندما كان طفلًا. «**عادتهم ولا هايشتروها**»، «**طول عمرك يارضا وانت كده**».

وقد رأينا أحد الأشخاص عندما تعرض لموقف ضاغط، حيث انكشف أمره أمام أستاذه بعدما قام ببعض السرقات العلمية منه، وعند مواجهته لجأ إلى البكاء الشديد حتى وصل به الأمر أنه تمَّرغ في الأرض كما يفعل الطفل المدلل، نعم «**الطبع يغلب التطبع**»، كما أن «**اللي فيه خصلة ما يبطلهاش**»، وقد اكتشفنا أن هذه السرقات العلمية ليست الأولى من نوعها، وإنما هو كما قال المثل «**من يومك يا خالة وانتِ على دي الحالة**»، وإذا كان المثل يقول: «**الطبع والروح في الجسد ما يطلعش إلا لما**

**تطلع»**، فنحن نرى عكس ذلك لأن سلوك الإنسان قابل للتعديل بدليل قول النبي ﷺ: «حسنوا أخلاقكم».

ولكن البعض ينطبق عليه المثل القائل «**نهيتك ما انتهيت والطبع فيك غالب، وعمر ديل الكلب ما ينعدل ولو علّقوا فيه قالب**»، فهل استفاد صاحبنا من الدرس؟ لا والله، وكأني أقرأ بين عينيه المثل «**الدناوة طبع**»، وما يفعله عندما يكتشف أمره فلا يهم؛ لأنه «**خد متعود على اللطم**»، و«**إذا كانت المية تروب تبقى الفاجرة تتوب**»، لقد وصلت درجة التبجح بمثل هذه الشخصية أنه يقوم بسرقة موضوعات علمية من الكتب وينشرها في صورة مقالات على مواقع في الإنترنت ومجلات الكترونية.

وكأني أستمع إلى المثل القائل: «**إزي إبنك يا دبا؟ السنة اللي فاتت مشي والسنى دي حبا**»، ويمكن أن ترى عقدة النقص بوضوح في مثل هذه الشخصية، ففي بكاءه اعتراف بالضعف، وفي نفس الوقت يحاول أن يخفي على الجميع هوسه بتحقيق هدف معين، ألا وهو «التفوق»، ورغبته في أن يكون في مقدمة الصفوف مهما كان الثمن، وقد وضُح ذلك في فلتات لسانه ذات يوم عندما قال: «**نفسي أفتح النت على أي صفحة أجد إسمي وأعمالي**»، حتى عندما يتفاخر بما يملك ومالا يملك يبدو وكأنه يُعاني من عقدة التفوق، ولكن بفحص سلوكه عن قُرب اكتشفنا السر الذي يحاول إخفاءه ألا وهو: «الشعور بالنقص».

## التفكيك (العزل)

**«اسمع كلامك أصدقك أشوف أمورك استعجب»**

هو فك الرابطة بين الانفعال والأفعال، وبين أنماط السلوك المتناقضة، وعزل كل منها في واد بعيد عن الآخر، مثال ذلك: شخص يصلي ويزني، وفي ذلك يقول المثل: «**اسمع كلامك أصدقك أشوف أمورك استعجب**»، ويوجد مثل آخر ينصح

صاحب هذه الشخصية فيقول: «**إمشي عدل يحتار عدوك فيك**»، والآخر الذي يقول: «**لا يتسرَّى ولا يبات بره**»، أي لا هو متخذ سرية (حظية)، ولا ممن يبيت في غير داره.

## التقديس

«**بصلة المحب خروف**»

هو مبالغة الشخص في تقدير من يحب وتنزيهه بشكل زائد عن الحد حتى يصفه بكل المحاسن التي فيه فعلًا والتي ليست فيه. بل ويخلع عليه أفضل أفكاره وغاية أمانيه، وبهذا يجد مبررًا للتعلق العاطفي به، فالوقوع في الحب مثل واضح من أمثلة المبالغة في صفات المحبوب والتغاضي عن عيوبه. فعندما قال عمر ابن أبي ربيعة: «**حسن في كل عين ما تود**» كان يعني إغفال المحبوب عيوب المحب، وإبراز الحسن دون غيره، وقد تصل المبالغة ما وصل إليه قيس ابن الملوح في قوله: «**محب لا يرى حسنًا سواها**»، وهو مصداقًا للمثل القائل: «**مراية الحب عميا**»، وكذلك المثل القائل: «**بصلة المحب خروف**»، وهو يوافق قول الشاعر:

إن ما قل منك يكثر عندي وكثير من الحبيب القليل

ومع وجود التقديس يوجد أيضًا الوحدانية «**القلب له واحد**»، وهذا الحب أساس التقديس وليس له أسباب أو مبررات «**العين وما تهوى والقلب وما يريد**»، كما أن «**القلب له أحكام**»، ولا إجبار فيه «**الحب مش بالعافية**»، «**حبني وخد لك زعبوط قال هي المحبة بالنبوت**».

وعلى العكس من الحب الذي يصل إلى حد التقديس، فهو علاقة تبادلية، «**تراعيني قيراط أراعيك قيراطين**»، و«**اللي يبص لي بعين ابص له باتنين**»، «**من فاتك فوته**»، «**من حبنا حبناه وصار متاعنا متاعه، ومن كرهنا كرهناه يحرم علينا اجتماعه**».

## الانسحاب

**«زي الدخان يخرج ما يرجع»**

هو الهروب عن مصدر التوتر والقلق ومواقف الإحباط والصراع الشديد، مثل الانسحاب لتجنب الإحباط في مجال التفاعل الاجتماعي. «**إمشي يوم ولا تطلع كوم**»، وأيضًا «**الباب اللي يجيلك منه الريح سده واستريح**»، والمثل يقول: «**إبعد عن الشر وغني له**»، ونفس المثل يستعمل في دول الخليج، فالفرد لا يقوى على مواجهة المواقف، ويعترف بفشله، مما يؤدي إلى احتقار ذاته والوصول إلى مشاعر دونية تسبب له الألم.

ومثال ذلك التلميذ الذي يجلس في الفصل شارد الذهن لا يكلم أحدًا ولا يتعاون مع أحد، أو كالزوجة التي تضطر إلى البقاء مع زوجها من أجل أطفالها، أو لسبب آخر، ولسان حالها يردد المثل: «**ضل راجل ولا ضل حيطة**». ومع ذلك فالانسحاب في الوقت المناسب يُعد من الأساليب الدفاعية المقبولة إذا لم يكن مبالغ فيه، فالانسحاب هنا له ما يبرره وهو عكس الانسحاب المرضي. فالانسحاب المرضي الهروبي يعبر عنه المثل القائل: «**زي الدخان يخرج ما يرجع**»، وذلك عكس الانسحاب الذي يعتمد على المهارة والذي يعبر عنه المثل القائل: «**الهروب نُص الشطارة**»، أو «**الجري نُص الجدعنة**».

## أحلام اليقظة

**«الجعان يحلم بسوق العيش»**

حيلة لا شعورية يلجأ إليها أغلبية الناس لإشباع الدوافع والرغبات التي عجزوا عن تحقيقها في عالم الواقع. «وفي أحلام اليقظة يستسلم الفرد لتخيلات يرى فيها نفسه وهو يحقق آماله ويشبع دوافعه ويتخطى العقبات التي تحول دون ذلك». كما يقول المثل: «**حلم القطط كله فيران**»، فالعديد من الناس نجدهم يسبحون بعقولهم في منازعات أو مناقشات حادة مع خصومهم أو منافسيهم، بعدما تعذر عليهم التعبير عن غضبهم تعبيرًا مباشرًا، وهذه الأفعال ليس لها من أثر إيجابي في تكيف صاحبها في التغلب على الصعوبة القائمة في حياته، وإنما هو يقنع نسبيًا بشبع وهمي لهذه الأوضاع.

فترى الضعيف يحلم بالقوة، والفقير يحلم بفوزه بجائزة مالية ضخمة، ويتخيل نفسه وقد تسلمها، بل وقام بشراء ما يطمع فيه ويريده من حاجات. والمثل الشعبي القائل: «**الجعان يحلم بسوق العيش**» خير تعبير عن ذلك.

وأحلام اليقظة ظاهرة طبيعية عادية لا ضرر منها، بل تعتبر من الاستجابات النافعة للإنسان في التنفيس عن انفعالاته، غير أن الإسراف فيها يؤدي إلى ابتعاد الفرد عن الواقع، والاحتماء بها كلما واجهته صعوبة أو مشكلة. وقد يُعبر المثل القائل: «**الأيام الزفت فايدتها النوم**» عن الهروب من ضغوط الحياة إلى النوم وما يلجأ إليه الفرد قبل النوم من أحلام يقظة للتنفيس عما بداخله من توترات. ومع ذلك ينصح المثل فيقول: «**إنسى الهم ينساك**».

## العدوان

**«مالقوش عيش يتعشوا بيه جابوا عبد يلطشوا فيه»**

هو إيذاء الغير أو الذات أو ما يرمز إليهما، وغالبًا ما يقترن بانفعال الغضب. وللعدوان صور شتى منها العدوان عن طريق العنف الجسدي، والعدوان باللفظ، وقد يتخذ أشكالًا أخرى غير مباشرة كإصراف الوالد في مطالبه ونواهيه، أو عصيان الطفل أوامر والديه، أو تضييق المعلم على طلابه بالإفراط في النقد والتهديد، كما قد يحدث العدوان في نكتة لاذعة تعبر عن عدوان دفين (راجح، ١٩٩٩، ٥٦٩).

وعلاقة الإنسان بالعدوان والعنف بصفة عامة قديمة قِدم الإنسان نفسه، فكانت أول جريمة قتل ارتكبها أحد أبناء آدم في حق أخيه، فقد روي في التوراة (العهد القديم) أن: «٨وَكَلَّمَ قَايِينُ هَابِيلَ أَخَاهُ. وَحَدَثَ إِذْ كَانَا فِي الْحَقْلِ أَنَّ قَايِينَ قَامَ عَلَى هَابِيلَ أَخِيهِ وَقَتَلَهُ» (سفر التكوين ٤: ٨). ووردت قصة ابني آدم في القرآن الكريم أيضًا: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (المائدة: ٢٧-٣٠). (محمد غالب، ٢٠١٧، ٢٩).

ولأهمية نعمة الأمن وعظم شأنها جعلها إبراهيم ـ عليه السلام ـ من أولى دعواته كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ

﴿أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ (سورة إبراهيم: ٣٥)، فقدم في الذكر مطلب الأمن على مطلب التوحيد؛ لأن التوحيد لا ينتشر عند الناس إلا بالأمن. قدم ـ عليه السلام ـ في دعائه نعمة الأمن على غيرها؛ لأنها أعظم أنواع النعم، وإذا فقدها الإنسان اضطرب فكره، وصعب عليه أن يتفرغ لأمور الدين أو الدنيا بنفس هادئة وقلب خال من المنغصات (محمد غالب، ٢٠١٧، ١٦).

والعدوان كحيلة نفسية يتجه إلى غير هدفه الأصلي، أي أنه يتجه إلى هدف غير مسؤول عن التوتر، وقد عبر عن ذلك المثل القائل: «**مالقوش عيش يتعشوا بيه جابوا عبد يلطشوا فيه**»، وقد يتجه العدوان إلى الجماد وهو غير مسؤول عن الإعاقة، فترى أن دافع العطش مثلًا إذا لم يُشبع أنشأ حالة من التوتر لا قِبل للمرء باحتمالها، فقد يكسر الإناء عدوانًا عليه، وفي ذلك يقول المثل: «**العطشان يكسر الحوض**»، وهو ما يُعرف بالعدوان المُزاح، وقد يكون العدوان على أشياء تافهة لا علاقة لها بمصدر التوتر، وقد عبَّر عن ذلك المثل الذي قيل فيمن يطارد ذبابة ويحاول قتلها بأنه لا يعدو أن يكون مليئًا بالتوتر، وأن هذا التصرف ما هو إلا تنفيث عن عدوانه، فيقول المثل: «**دي مش دبانة دي قلوب مليانة**».

فالعدوان يتحول وينصب على أول كبش فدا يلقاه في طريقه، سواء كان إنسانًا أم حيوانًا أم جمادًا، وذلك لوجود عقبات تحول دون العدوان المباشر على مصدر الإحباط.

وقد يصبح العدوان في ذاته مصدر متعة ولذة، وهو ما يطلق عليه في التحليل النفسي والطب النفسي «السادية»، حيث يتلذذ الفرد بإيلام الغير، وتتجلى السادية في علاقة الرجل بالمرأة عندما تمتزج الرغبة الجنسية بالرغبة في الإيلام، أي أن الأذى في ذاته مصدر متعة ولذة. ولا تقتصر السادية على مجال الجنس، بل لعلها أكثر وضوحًا في علاقة الرجال بالرجال.. أنظر إلى الجريمة بمختلف أشكالها: قتل، ضرب، إعتداء، تحقير، تشفي.. الخ. وقد تأخذ أشكالًا جماعية تتباين أشكال تنظيمها ابتداء من جماعات العنف المنظمة لتصل إلى العنف المستتر بقناع من السلطة، حيث الاعتقال والتعذيب، وغير ذلك.

وهي عكس «الماسوشية» التي هي ارتداد العدوان إلى الذات، فكما يجد السادي لذة ومتعة في إيلام الآخرين يجد الماسوشي لذة مقابلة في إيلام الآخرين له، وهو ما يعبر عنه المثل القائل: «**القط ما يحبش الا خنَّاقه**».

فالماسوشي يستسلم للظلم والقهر والعنت فيما يشبه الخضوع المطلق، وهو ما تلاحظه في الشخصية المصرية قبل الثورة، إذ تستعذب الألم والشكوى إلى حد يصل إلى المذلة، بل يستعذب الشعور بأنه شهيد وضحية، ويستعذب الشعور بالظلم والضيم، ويستشعر البطولة في تحمله للألم والعذاب والهموم، ويرى نفسه بطلًا في التحمل والصبر، وكأن الصبر الذي هو في الأصل حيلته الدفاعية التي يرد بها الظلم والقهر قد أصبح غاية وهدفًا في حد ذاته.. يتمسك به ليثبت لنفسه وللآخرين قدرته وبطولته، ومن قبل ذلك إيمانه وتدينه، فتجده يقول: «**سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبري**»[١].

فهو صبور بطبعه، ويستمد قوته من الصبر، بل يربط دائمًا بين الصبر والإيمان، والصبر ملحقاته: القسمة والنصيب، والحظ والبخت، والمثل يقول: «**قيراط بخت ولا فدان شطارة**»، والبخت مرادف للحظ، أما الشطارة فهي الفهلوة والحداقة، أي أن الحظ يفوق الشطارة. فالصبر إذًا تبرير نفسي، أو قُل حيلة دفاعية.

## الصبر

**«اللي يصبر على المر لابد يدوق الشهد»**

الصبر مرحلة تعبئة ضرورية قبل الانطلاق. إذ تبين «نعمات فؤاد» أن الصبر قدرة مصرية خاصة، وهو نابع من الإيمان الراسخ، إذ يملك المصري قدرة على امتصاص المحن وقهر الصعاب، نتيجة لثقته بالله، ويقينه بأن النصر لابد أن يكون حليفه في

(١) عزة عزت، مرجع سابق، ص ١٢١.

النهاية، يقول تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة : ٤٥]، ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة : ١٥٣]، وأيضًا ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [البقرة : ٢٥٠]. فالصبر خير دواء لكل داء ولذلك جاءت الأمثال تحث على الصبر: «**الصبر مفتاح الفرج**»، «**الصبر أحسن دوا**»، «**بكره تفرج**»، «**اصبري يا ستيت لما يخلى لك البيت**»، «**اصبر تنول**»، «**اللي يصبر على المر لابد يدوق الشهد**»، «**اتقل على الرز يستوي**»، ومع ذلك فهناك أمثال تحث على عدم الصبر إذا كان الإنسان يستعمله كحيلة دفاعية فقط، بل وتسخر منه، تجد ذلك في قوله: «**الصبر مر**»، و«**بعد الصبر القبر**»، و«**الكيل طفح**»، «**فرج صرمه خرج**»، «**اللي يعمل ظهره قنطرة يستحمل الدوس**».

ويلعب الصبر دورًا بارزًا كضابط اجتماعي يحمي المجتمع من كثير من الشرور التي قد تنتج عن رد الأذى بالأذى بدلًا من الصبر عليه حتى ينتقم الله، فالمثل يقول: «**دولة الظلم ساعة**»، وأن «**الظالم له يوم**»، وهو يصبر انتظارًا لهذا اليوم ولذلك تجده يقول: «**لو صبر القاتل على المقتول كان اتقتل لوحده**»، ويقول: «**اصبر على جار السوء يا يرحل يا تجيله داهية**»، ولعلك ترى أن مفهوم الصبر من المفاهيم الثقافية التي تتطور وتتغير، وإذا بقي اللفظ، ولكن المعنى يختلف في ضوء الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية و... الخ.

# الاستسلام

**«بيضة النهاردة أحسن من فرخة بكره»**

عرفنا أن المفاهيم تتطور وتتغير، وإن ظل اللفظ كما هو فقد يختلف المعنى، فقد يعني اللفظ معنى معينًا في ظروف معينة، ويعني معنى آخر في ظروف أخرى. فتجد الشخص يتعايش ويستسلم للظروف، أحيانًا في رضا واستسلام، وأحيانًا رغمًا عنه، وعلى كلٍ فهي وسيلة لتحقيق الأمن النفسي قدر المستطاع للفرد، استمع إلى المثل وهو يقول: «**نص العمى ولا العمى كله**»، «**الأعور وسط العميان ملك**»، «**شيء أهون من شيء**»، «**آدي الله وآدي حكمته**»، والمثل العربي يقول: «**ما كل ما يتمناه المرء يدركه**»، وآخر يقول: «**لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع**»، ولابد للإنسان أن يرضى بما أصابه «**الحمد لله اللي جت على قد كده**»، فالقناعة والصبر والرضا تصل بك إلى ما هو أفضل «**ما بعد الضيق إلا الفرج**»، «**يشم على ظهر إيده يشبع**»، وفي حالة عدم الرضا يقول: «**اللي ما يرضى بحكم موسى يرضى بحكم فرعون**»، «**اللي ما يرضاش بالتوت يرضى بشرابه**». وقد يصل الحال إلى الرضا بالموجود، والاستسلام التام، وعدم التطلع «**بيضة النهاردة أحسن من فرخة بكره**»، «**غنى النفس هو الغنى الكامل**»، «**إن حضر العيش يبقى المش شبرقة**».

رأينا أن الحيل الدفاعية وسائل لخفض القلق والتوترات، فهي تهون من وطأة العقبات المادية والمعنوية التي تعترض الفرد، فهي ذرائع تقي الإنسان من الآلام التي تأتيه من جسمه ومن نفسه ومن الناس، ومن ثم فهي تهبه شيئًا من الهدوء والراحة ولو بصورة وقتية وهمية، إنها محاولات للاحتفاظ بالتوازن النفسي، وهذا من فوائدها، ولكنها لا تحل المشكلات. إنها كالعقاقير المهدئة تخفف الألم لكنها لا تفعل شيئًا لإزالة أسبابه الجوهرية.

إن الثقافة الشعبية لا تقتصر على ما وصفته الشعوب من الأجيال الغابرة بل يمكن لكل جيل أن يضيف إلى ثقافته الشعبية من الخبرات والمعارف ما يضاف إلى كتلة ثقافته الموروثة ليقدمها للجيل التالي وقد اكتسبت بمسحة من سماته، وغيرت عن ميوله واتجاهاته، ويقوم هو بدوره بإضافة جديدة، وهكذا تمضي الأجيال وفق ناموس الحياة الطبيعي بين أخذ وعطاء يتأثر بما يأخذ ويؤثر فيما يعطي[١].

ومن أبرز عناصر الثقافة الشعبية كانت «الأمثال»؛ لأنها حجر الزاوية في معرفة الشعوب، ولا شك أن الدراسة الحقيقية للمجتمع تبدأ من دراسة الفلسفة اليومية في العلاقات السائرة الاجتماعية والإنسانية، أو تلك الأفكار الجارية في التعامل اليومي، وهذه الأمثال هي دليل صادق على طبيعة الشخصية بسلبياتها وإيجابياتها.

(١) فاطمة المصري (١٩٨٥). أبحاث ومقالات في الدراسات الاجتماعية والنفسية. ص١٣٣.

# الفصل العاشر

# الإعاقات

# الإعاقات

**«الأعرج بين المكسحين غزال»**

لقد كان يطلق في الماضي على الشخص المعوق اسم العاجز، ثم شاعت مصطلحات أخرى مثل: المقعدون، والشواذ، وذوى الاحتياجات الخاصة...الخ. وأكثر التسميات حتى الآن هي «المعوقون»، ومن أكثر التعريفات شيوعًا للمعوقين هو تعريف ميثاق الثمانينات لرعاية المعوقين الصادر عن المؤتمر العالمي الرابع عشر للتأهيل بكندا، حيث عرف الإعاقة بأنها تقييد أو تحديد لمقدرة الفرد على القيام بواحدة أو أكثر من الوظائف التي تعتبر من المكونات الأساسية للحياة اليومية، مثل القدرة على الاعتناء بالنفس ومزاولة العلاقات الاجتماعية والأنشطة الاقتصادية، وقد ينشأ العجز نتيجة لخلل جسماني، أو إصابة ذات طبيعة فسيولوجية أو نفسية أو تشريحية.

وتصنف الإعاقات بصفة عامة إلى فئات منها الإعاقات الجسمية أو الفيزيائية، ومن أمثلتها: الصم والبكم، والمكفوفين...الخ. والفرق بين السوي والمعوق هو فرق نسبي، أي فرق في الدرجة وليس في النوع، فنحن جميعًا معوقين ولكن بدرجات مختلفة ومتفاوتة «**لا تشتميني يا خدوجة أنا عورة وانتي عروجة**»، أو نحن جميعًا أسوياء ولكن بدرجات متفاوتة، حيث لا يوجد شخص سوي على الإطلاق، والكمال المطلق لله وحده.

والمجتمع له دور في استمرار الإعاقة وتفاقمها، فالمعوق منذ لحظة ميلاده وهو يجد نفسه في وسط اجتماعي لا يعينه على تخطي حاجز الإعاقة، أو التوافق مع ذاته

أو مع مجتمعه، بل على العكس من ذلك نجد ذخيرة من التراث السلبي، فضلًا عن التسميات والألقاب والصفات ذات الآثار السلبية على معنويات المعوق والتي يمكن أن تجعل منه إنسانًا متجبرًا، حتى ينطبق عليه المثل القائل: «**كل ذي عاهة جبار**».

والإعاقات لها أشكال مختلفة مثل: العمى والعرج والصمم و...الخ. وباختلاف الإعاقات اختلفت الأمثال، فمنها من تحدث عن العرج فقال: «**الأعـرج بين المكسحين غزال**»، «**على العرج ما في حرج**»، «**أعرج يسحب مكسح يقوله تعالى نتفسح**»، «**لو عرفوا حلاوة هرجته ما عايروني بعرجته**»، وعن الصمم يقول المثل: «**طبل عند اطرش**»، «**الطرش للأكابر والعمى للحرافيش**»، وعن الأبكم يقول: «**أم الأخرس أعرف بلغواه**»، وهناك مثل جامع لعدة إعاقات يقول: «**الإبرة وقعت في البير، الأطرش سمع رنتها، والأعمى شاف وين وقعتها، والأخرس سب عيلتها**».

وتختلف درجة الإعاقة عند المكفوفين من ضعف البصر بدرجاته إلى العمى التام، وقد بينت الأمثال ذلك عندما قالت: «**نُص العمى ولا العمى كله**»، وفي مثل آخر: «**أعمى قال لأعور كاس العمى مُرّ قال نُص الخبر عندي**». ومن الأمثال السلبية في هذا الباب قول المثل: «**إذا لاقيت الأعمى اكسر عصاه انت مش احن عليه من اللي عماه**»، ومثله في البيئة السعودية «**إن شوفت أعمى دبه وخد غداه من عبه ما نتش أخير عليه من ربه**».

وقد تعددت الأمثال بين الإيجاب والسلب منها: «**جابوا العمية ترد الرمية**»، «**خاطر الأعمى قُفة عيون**»، «**عمية وعرجة وكيعانها خارجة**»، «**العمى يا بدر**»، «**فقد البصر أهون من فقد البصيرة**»، «**قالوا للأعمى زوقّ عصايتك قال يعني من حُبي فيها**»، «**قالوا للأعمى الزيت غِلي قال فاكهة مستغني عنها**»، والمقصود بالزيت هنا هو المادة التي يُضاء بها المصباح، وهو عنده سواء بقي في الظلام أو في النور فالأمر كالفاكهة التي استغنى عنها.

ونحن نرى أن المعوق الحقيقي هو الشخص الذي يعجز بشكل مستمر عن القدرة على الإنجاز وتحقيق الذات وإشباع الحاجات بصورة استقلالية، فلا يستطيع أن يحيا حياة كريمة، بصرف النظر عن وجود أو عدم وجود قصور في الأعضاء أو

الحواس، وها هي «هيلين كيلر» قمة شامخة في هذا المجال، فقد سلبتها الأقدار ثلاث من حواسها، فهي: عمياء صماء بكماء، ومع ذلك فقد حصلت على ثلاث درجات للدكتوراه، وأتقنت خمس لغات إتقانًا تامًا، وقامت بتأليف ثمانية عشر كتابًا من شوامخ المؤلفات العلمية، ولعل من أهمها كتاب: يجب أن نؤمن بالله We must believe in god.

ويجب أن نعلم أن هناك تفاوتًا في الفروق الفردية بين الناس عمومًا والمعوقين خصوصًا، فليس كل أصم بيتهوفن، وليس كل أعمى هوميروس أو أبو العلاء المعري، وليس كل مُقعد أو مشلول روزفلت، وليس كل من تعددت إعاقته هيلن كيلر.

ولنا مثل في عبد الله بن أمّ مكتوم ـ رضي الله عنه ـ الذي أنزل الله في حقّه في أوّل سورة (عبس) قرآنًا يُتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وكان الرسول ﷺ كلما رآه يقول: «مرحبًا بمن عاتبني فيه ربّي». تحمل الكثير من المشقة في سبيل إعلان دينه فهاجر مع من هاجر من مكة إلى المدينة، ورغم إعاقته شارك مشاركة فعلية في الدعوة الإسلامية، فحفظ القرآن وروى أحاديث المصطفى ﷺ، وكان لجمال صوته يؤذن للصلاة مع بلال بن رباح رضي الله عنه.

وهذا عمرو بن الجموح ـ رضي الله عنه، من صحابة رسول الله ﷺ عانى في إحدى ساقيه عرجًا شديدًا، ورغم ذلك شهد مع الرسول ﷺ بيعة العقبة الثانية كما شهد معركتي بدر وأُحُد قائلًا: «فو الله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة» وتوجّه نحو القبلة داعيًا ربّه: «اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك ولا تردني إلى أهلي خائبًا» واستشهد معه ولده في معركة أُحُد. فمرّ به الرسول ﷺ فقال: «إنّي أراك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنّة».

وينبغي على المعوق أيًا كانت إعاقته أن يُدرب نفسه على مواجهة الواقع، وعلى تقبله تقبلًا إيمانيًا وإيجابيًا حتى يستطيع أن يتخطى حاجز الإعاقة ويتجاوزها إلى التكيف والتوافق الإيجابي العميق مع ربه وخالقه أولًا ثم مع نفسه وإعاقته ثانيًا وأخيرًا مع الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه.

# المراجع

القرآن الكريم.

الكتاب المقدس.

إبراهيم احمد شعلان (٢٠٠٨). **الشعب المصري في أمثاله العامية**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ابن قيم الجوزية (١٩٨١). **الأمثال في القرآن**. بيروت: دار المعرفة.

أحمد أمين (٢٠١٣). **قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية**. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

أحمد تيمور (١٩٨٦). **الأمثال العامية**. (ط٤). القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر.

أحمد زايد (٢٠٠٦). سيكولوجية العلاقات بين الجماعات. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، **عالم المعرفة**، عدد٣٢٦.

أحمد عبد الخالق (١٩٩٦). **دليل تعليمات القائمة العربية للتفاؤل والتشاؤم**. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

أحمد السيد عبد المنعم (٢٠١٢). فعالية استراتيجيات العلاج البنائي في تنمية القوى الشخصية لدى عينة من الشباب الجامعي. **رسالة دكتوراه غير منشورة**. كلية التربية، جامعة عين شمس.

أحمد عزت راجح (١٩٩٩). **أصول علم النفس**. (ط١١). القاهرة: دار المعارف.

أحمد عكاشة (١٩٩٣). **علم النفس الفسيولوجي**. (ط٨). القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

أحمد عكاشة (ب.ت). **تشريح الشخصية المصرية**. القاهرة: دار الشروق

أحمد فائق (٢٠٠٣). **مدخل عام لعلم النفس**. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

أسامة سعد أبو سريع (١٩٩٣). الصداقة من منظور علم النفس. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. **عالم المعرفة**، عدد ١٧٩.

أشرف عبد الوهاب (٢٠٠٦). **التسامح الاجتماعي بين التراث والتغير**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

أكرم زيدان (٢٠٠٨). سيكولوجية المال. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. **عالم المعرفة**.

الحسن اليوسي (١٩٨١). **زهر الأكم في الأمثال والحكم**. (تحقيق) محمد حجي، ومحمد الاخضر. الدار البيضاء: دار الثقافة.

إمام عبد الفتاح إمام (٢٠١٨). **الديمقراطية والوعي السياسي ومقالات أخرى**. القاهرة: دار نيو بوك للنشر والتوزيع.

إمام عبد الفتاح إمام (١٩٩٤). الطاغية: دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. **عالم المعرفة**، ع ١٨٣.

إيتيان دي لابويسيه (٢٠١٤). **مقالة في العبودية المختارة**. (ترجمة) مصطفى صفوان. قطر: وزارة الثقافة والفنون والتراث.

جابر عصفور (٢٠٠٩). **نقد ثقافة التخلف**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

حامد عبد السلام زهران (١٩٩٧). **الصحة النفسية والعلاج النفسي**. (ط٣). القاهرة: عالم الكتب.

حسين عبد القادر (٢٠٠٥). **بوش الصغير في ضوء التحليل النفسي**. الأردن: دار أزمنة.

راي كروزير (ترجمة) معتز سيد عبد الله (٢٠٠٩). الخجل. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. **عالم المعرفة**، عدد٣٦١.

روبرت د. ناي (ترجمة) أحمد إسماعيل صبح، ومنير فوزي (٢٠٠٣). **السلوك الإنساني: ثلاث نظريات في فهمه**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الزمخشري (١٩٨٧). **المستقصى في أمثال العرب**. (ط٢). بيروت

سعد الفيشاوي (تعريب وتحرير) (٢٠٠٧). **المعجم العلمي للمعتقدات الدينية**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

السيد إبراهيم الدسوقي (١٩٩٤). الخجل لدى المراهقين من الجنسين. **مجلة التقويم والقياس التربوي**. عدد٣.

سيد صبحي (٢٠٠٣). **الإنسان وصحته النفسية**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

صموئيل حبيب (١٩٨٩). **الخوف**. القاهرة: دار الثقافة.

طلال حرب (١٩٩٤). **الفشل: أسبابه ونتائجه من زاوية التحليل النفسي**. بيروت: دار الآفاق الجديدة.

عادل عز الدين الاشول (١٩٨٢). **علم النفس النمو**. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

عبد الله بن المقفع (١٩٦١). **الأدب الصغير**. القاهرة: مطبعة صبيح.

عبد الله عسكر (٢٠٠١). **الاكتئاب النفسي بين النظرية والتشخيص**. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

عبد الرحمن الكواكبي (٢٠١٤). **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**. القاهرة: دار البشير للثقافة والعلوم.

عزة عزت (٢٠٠٣). **الشخصية المصرية في الأمثال الشعبية**. (ط٢). القاهرة: مركز الحضارة العربية.

علاء الحمزاوي (١٩٩٧). التعبير الاصطلاحي في الأمثال العربية: دراسة تركيبية دلالية. **رسالة دكتوراه**. كلية الآداب، جامعة المنيا.

علاء كفافي (١٩٩٨). الثقافة والمرض النفسي. **مجلة علم النفس**. ع٤٦.

فارس كمال نظمي (٢٠٠٧). الحب الرومانسي بين الفلسفة وعلم النفس. أربيل: دار أراس للطباعة والنشر.

فؤاد البهي (١٩٧٥). **الأسس النفسية للنمو**. (ط٤). القاهرة: دار الفكر العربي.

فؤاد زكريا (١٩٧١). التعصب من زاوية جدلية. **مجلة الفكر المعاصر**. عدد٧٤، ص ص٢-٩.

فاطمة المصري (١٩٨٥). **أبحاث ومقالات في الدراسات الاجتماعية والنفسية**. دار المريخ للنشر.

فرج عبد القادر طه، وحسين عبد القادر محمد، وشاكر قنديل، ومصطفى كامل (٢٠٠٩). **موسوعة علم النفس والتحليل النفسي**. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

فيصل عباس (١٩٩٤). **التحليل النفسي للشخصية**. بيروت: دار الفكر اللبناني.

كمال الدسوقي (١٩٩٠). **ذخيرة علوم النفس**. ج٢. القاهرة: الدار الدولية للنشر والتوزيع.

مارك بوكانان (ترجمة) أحمد علي بدوي (٢٠١٠). **الذرة الاجتماعية**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

مايسة النيال ومدحت أبو زيد (١٩٩٩). **الخجل وبعض أبعاد الشخصية**. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

مايكل أرجايل (ترجمة) فيصل عبد القادر يونس (١٩٩٣). سيكولوجية السعادة. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. **عالم المعرفة**، عدد ١٧٥.

محرم كمال (١٩٩٨). **الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء**. (ط٢). الهيئة المصرية العامة للكتاب.

محسن خضر (٢٠١١). ظاهرة العقاب البدني في المدرسة العربية. **مجلة العربي**، عدد٦٣٠.

محمد إبراهيم عيد (١٩٩٠). **الاغتراب النفسي**. القاهرة: مؤسسة الرسالة الدولية للإعلان.

محمد العلواني (١٩٩٣). **الأمثال في الحديث النبوي الشريف**. المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

محمد المهدي (٢٠٠٧). **علم النفس السياسي: رؤية مصرية عربية**. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

محمد جابر الفياض (١٩٦٨). الأمثال في القرآن الكريم. **رسالة ماجستير** (غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة عين شمس.

محمد جابر الفياض (١٩٧٨). الأمثال في الحديث النبوي الشريف: جمع وتخريج ودراسة. **رسالة دكتوراه** (غير منشورة) كلية الآداب، جامعة عين شمس.

محمد طه (٢٠٠٦). الذكاء الإنساني. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. **عالم المعرفة**. عدد٣٣٠.

محمد عبد الرحمن الربيع (١٩٩٩). **نوادر البخلاء: نصوص ودراسة**. القاهرة: دار الشروق.

محمد غالب بركات، وأنور زناتي (٢٠٠٩). **الكلمات المائة للإمام علي**. القاهرة: دار الآفاق العربية.

محمد غالب بركات (٢٠٠٩). المقامرة النفسية وعلاقتها بوجهة الضبط والعنف لدى عينة من المراهقين. **رسالة ماجستير**. كلية التربية، جامعة عين شمس.

محمد غالب بركات (٢٠١١). **قلق الموت في ظل الإرهاب الصهيوني**: دراسة نفسية تاريخية. القاهرة: دار الآفاق العربية.

محمد غالب بركات (٢٠١٧). **سيكولوجية البلطجة: رؤية علاجية**. القاهرة: دار نيو بوك للنشر والتوزيع.

محمد فؤاد عبد الباقي (١٩٩٦). **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**. القاهرة: دار الحديث.

مصطفى زيور (د.ت). **في النفس**. القاهرة: جي جي للطباعة.

مينيكه شيبر (ترجمة) منى إبراهيم وهالة كمال (٢٠٠٨). **إياك والزواج من كبيرة القدمين: النساء في أمثال الشعوب**. القاهرة: دار الشروق.

هاني الجزار (٢٠٠٩). **أسباب التعصب: نحو رؤية تكاملية**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. مكتبة الأسرة.

هدى جعفر حسن (٢٠٠٦). التفاؤل والتشاؤم وعلاقتهما بضغوط العمل والرضا عن العمل. **مجلة دراسات نفسية**. ج١٦، ع١، ص ص٨٣-١١١.

هناء أحمد محمد عيد (٢٠٠١). فعالية الأمثال الشعبية كمنظمات متقدمة في تدريس علم الاجتماع على تنمية وعي طلاب المرحلة الثانوية بقضايا الفرد والمجتمع. **رسالة ماجستير** (غير منشورة)، كلية التربية، جامعة عين شمس.

ويليام ديفيز (٢٠١٨). صناعة السعادة: كيف باعت لنا الحكومات والشركات الكبرى الرفاهية؟. (ترجمة): مجدي عبد المجيد خاطر. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. **عالم المعرفة**، عدد ٤٦٤.

يحيى الرخاوي (١٩٧٢). **حياتنا والطب النفسي**. القاهرة: دار الغد للثقافة والنشر.

يزيد السورطي (٢٠٠٩). السلطوية في التربية العربية. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. **عالم المعرفة**، عدد٣٦٢.

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (تحقيق) عبد السلام هارون (١٩٦٤). **رسائل الجاحظ**. ج٣. القاهرة: مكتبة الخانجي.

أبي حامد الغزالي (تحقيق) محمد محمد تامر (٢٠٠٤). إحياء علوم الدين. ج٣. القاهرة: دار الآفاق العربية.

يوسف ميخائيل أسعد (١٩٨٩). **الكذب وأثره في الإنسان**. القاهرة: دار غريب.

Emerson, et al,. (2016). An Ungrateful Disposition: Psychometric Properties of the Dispositional Envy Scale in Brazil. *Paidéia* sep-dec. 2016, Vol. 26, No. 65, 351-358. doi:10.1590/1982-43272665201605

Lange, J., & Crusius, J. (2015). Dispositional envy revisited: Unraveling the motivational dynamics of benign and malicious envy. *Personality and Social Psychology Bulletin, 41*(2), 284 294. doi:10.1177/0146167214564959

Smith, R. H., & Kim, S. H. (2007). Comprehending envy. *Psychological Bulletin, 133* (1), 46-64. doi:10.1037/0033- 2909.133.1.46

## المؤلف في سطور.

حاصل على درجة الدكتوراه في فلسفة التربية تخصص: الصحة النفسية والإرشاد النفسي، جامعة عين شمس.

حاصل على درجة الماجستير في فلسفة التربية تخصص: الصحة النفسية، جامعة عين شمس.

**الإسهامات العلمية**

أوجه عديدة من اضطراب ما بعد الصدمة (ترجمة). القاهرة: دار نيو بوك للنشر والتوزيع (٢٠١٩).

سيكولوجية البلطجة: رؤية علاجية. القاهرة: دار نيو بوك للنشر والتوزيع (٢٠١٧).

فعالية تعديل السلوك في علاج سلوكات البلطجة لدى عينة من المراهقين. مجلة الإرشاد النفسي، عدد٤٠، ج٢، ديسمبر ٢٠١٤، مركز الإرشاد النفسي بجامعة عين شمس.

إدمان القِمار. القاهرة: دار الآفاق العربية (٢٠١٤).

تحقيق مخطوط الهبات لابن عطاء الله السكندري. القاهرة: دار الآفاق العربية (٢٠١٤).

قلق الموت في ظل الإرهاب الصهيوني: فلسطين نموذجًا. دراسة نفسية تاريخية. القاهرة: دار الآفاق العربية (٢٠١١).

الفرق والمذاهب في الرسالات الثلاث: دراسة مقارنة. القاهرة: دار الآفاق العربية (٢٠١١).

تحقيق مخطوط الكلمات المائة للإمام علي ـ رضي الله عنه ـ القاهرة: دار الآفاق العربية (٢٠٠٩).

تحقيق مخطوط إثبات نبوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبي الحسن الزيدي. القاهرة: دار الآفاق العربية (٢٠٠٩).

تحقيق مخطوط ثمرات العلوم للتوحيدي. دمشق: دار نينوى للطباعة والنشر (٢٠٠٩)، وتونس: دار سحر (٢٠١٠).

العلاج بالمعنى (في) نبيل حافظ: العلاج النفسي بين النظرية والتطبيق. كلية التربية، جامعة عين شمس (٢٠٠٧).